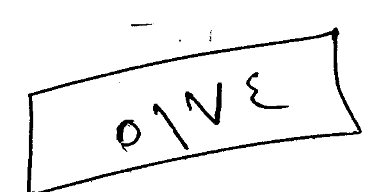
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قســـم الكتاب والسنة







المعوقات عن الجهاد في سبيل الله وسبل علاجها في ضوء القرآن الكريم

إعـــداد

الطالب / زبن بن عـبدالله بن زبن العضياني العتيبي

رســـالة لنيل درجة الدكتوراه

إشــراف

فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد بن أحمد القاسم

الجزء الثاني

١٤٢٢-١٤٢٣هـــ

الفصل الرابع

نبز المنافقين للمجاهدين بالغرور وعدم النباهة ، وعلاجه في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نبز المنافقين للمجاهدين بالغرور وعدم النباهة وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

المبحث الثاني : الآيات التي تضمنت نبز المنافقين للمجاهدين وشرحها .

المبحث الثالث : علاج هذا العائق .

المبحث الأول

نبز المنافقين للمجاهدين بالغرور وعدم النباهة وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

النَّبْزُ : اللمز ، وهو مصدر : نَبَزَه ، يَنْبُزُه ، ورجل : نُبَزَة كَهُمَزَة : يلقِّب الناس كثيراً . والتنابز : التعاير ، والتداعي بالألقاب .

والمراد هنا تعيير المجاهدين واستنقاصهم [1] .

ينتهز المنافقون الفرص ، ويقتنصون المناسبات ليبثوا فيها سمومهم ضد الإسلام و مجاهديه ، يدفعهم إلى ذلك أمران :

أحدهما : ليشفوا بقولهم غليل نفوسهم التي تكاد تحترق من حقدها على الإسلام ، وعداوتها للمسلمين ، ولا يخفف من غيظها مثل تلك الفرص التي يروحون فيها عن أنفسهم بما استطاعوا بثه من عبارات التنقص والازدراء .

الثاني : ليشككوا المسلمين في دينهم الحق ، ويوهنوا صفوفهم ، فلربما يستمع إليهم ضعفاء المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم فيصغون إلى مقولتهم ، ويحدث الخلل في صفوف المسلمين ، وتتفرق وحدتهم وتضعف قوتهم ، وينثني عن الجهاد في سبيل الله عزمهم ، وهذا ما تصبوا إليه نفوس المنافقين ، وتطمح إليه أفئدتهم ، فمتى رأوا الفرصة مواتية لهم ، وظنوها ناجحة ، تفوَّهوا بملء أفواههم من ساذج القول الذي ينبيء عن نتن القلوب المريضة .

---

[1] - تفسير المشكل من غريب القرآن (٢٣٥) القاموس المحيط (٦٧٧) .

ومن ذلك نبزهم للمجاهدين وقياداتهم بالبلاهة والغـــرور وأن تصرفـــاتهم تصرفات البلهاء المغرورين التي لا تصدر عن روِيَّة وتفكير ، وبعد نظـــر ، بـــل يعتريها الحمق ، والجهل وانخداع أصحابها بما يرون أو يســـمعون ، ولا يســـأم المنافقون من تكرار هذا في مواقف مختلفة ومناسبات متعددة سجلها الله عليـــهم في آيات بينات من القرآن الكريم :

الموقف الأول :

وصفهم المجاهدين في غزوة بدر بالغرور ، وأنه غرهم دينهم حـــتى أوردوا أنفسهم موارد الهلاك كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ (١) .

حينما تراءى الجيشان ، جيش الإسلام يقوده المصطفى صلى الله عليه وسلم تغشاه السكينة ، ويدفعه الإيمان الصادق ، واليقين التام ، والثقـــة بوعـــد الله ، وتحفه الملائكة ، مع قلة عدده وعدته ، إذ لم يتجاوز ثلاثمائة وبضعة عشر رجـــلاً ، منهم فارس واحد .

وجيش الشرك والكفر والعناد ، يقوده أبو جهل في عدده ، الذي يفـــوق جيش المسلمين أضعافه ، وعدته الهائلة ، تضج فيه أصوات الدفوف و القينات ، ويدفعه الأشر ، والبطر والرياء ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٢) .

---

١ - سورة الأنفال (٤٩) .

٢ - سورة الأنفال (٤٧) .

عندها نظر المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، إلى الموقف نظرة مادية صرفة ــ لأنهم لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، و لا يعقلون أن القوة لله جميعاً ــ فرأوا المجاهدين ، لقمة سائغة في أيدي المشركين ، لأنهم القوة الغالبة ، بعددها وعدتها .

ولذا تنفس المنافقون والذين في قلوبهم مرض الصعداء ، ساخرين بالمسلمين وجهادهم ، رامينهم بالغرور والخديعة ، إذ لو لم يكونوا كذلك ، لما رموا أنفسهم في هذا الخطر الداهم ، والموت المحقق ، وعميت أعين المنافقين وصمت أذانهم ، وأغلقت قلوبهم عن الحق والحقيقة ، فلم يهتدوا إلى ما اهتدى إليه المجاهدون المؤمنون ، من الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، فقد وعدهم إحدى الحسنيين ، إما النصر والعزة ، وإما الشهادة والفوز بدار الخلد ، ولذا باعوا أنفسهم رخيصة في سبيل الله ، و لم يعبأوا بأي قوة غير قوة الله عز وجل ، قال سيد قطب : « إن المنافقين يقفون ليتفرجوا والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت ، وفي نفوسهم سخرية من هذه العصبة التي تتصدى للخطر ، وتستخف بالخطر ! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة ، وللأخطار الواضحة ، إنهم هم لا يعرفون مبرراً لهذا التهور ــ كما يسمونه ــ وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة !. إنهم يحسبون الحياة كلها ــ بما فيها الدين والعقيدة ــ صفقة في سوق التجارة . إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها ، فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى ! . إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان ، إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائماً ، فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين : النصر و الغلب ، أو الشهادة والجنة . ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف ، فهناك الله ، وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض »[1] .

---

[1] في ظلال القرآن (٣/ ١٥٣٣) .

الموقف الثاني :

وصف المنافقين أيضاً لوعد الله ووعد رسوله بالغرور ، وهذا ما حصل في غزوة الأحزاب كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [1] .

ومن لوازم ذلك أن من يأخذ بهذين الوعدين فهو مغرور ، قد وقع في الخديعة .

لما تعاهد الأحزاب على استئصال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، واجتمعت جيوشهم واشتد الخطب ،كما قال تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [2] ، موقف مهيب جيوش الأعداء تكالبت على المسلمين من كل جانب ، والخطر عظيم لكنه الامتحان والابتلاء ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[3] ، ابتلاء عظيم ليميز الله الخبيث من الطيب ، فيظهر المؤمن الصادق ، من المنافق الكاذب ، وهذا ماتمحص من هذا الموقف العصيب ، فعندما اشتد الكرب ثبت المؤمنون الواثقون بوعد الله ، ووعد رسوله ، وازدادوا إيماناً ويقيناً ﴿ وَلَمَّا رَءَا

١- سورة الأحزاب (١٢) .

٢- سورة الأحزاب (١٠) .

٣- سورة الأحزاب (١١) .

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (1) .

وأما المنافقون فقد وقفوا مبهوتين من هول الموقف ، وعظيم الخطر ، ترتجف أفئدتهم وترتعد فرائصهم وما استطاعوا إخفاء نفاقهم كعادتهم ، فأباحت ألسنتهم بمكنون صدورهم ، ليتقربوا به إلى أشياعهم زلفى ، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (2) . تكذيب لوعد الله ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكفر بواح . سخرية بوعد الله ووعد رسوله ونبز للمجاهدين بالبلاهة والغرور ، إذ لو كانوا عقلاء أذكياء ما رموا بأنفسهم في هذا الخضم الهائل من الأعداء الذي لا يدان لهم به ، ولا استطاعة ، يقولونه استخفافاً بهذين الوعدين واحتقاراً لمن صدق بهما فورد حياض الموت كهؤلاء المجاهدين ، خوف ورعب في نفوسهم وإرجاف ، وتخذيل في صفوف المسلمين ليشتتوا شملهم ، ويمزقوا وحدهم ، وتنكسر شوكتهم ، وتلك هي مقولة المنافقين في كل زمان ومكان ، متى رأوا أن لها أثراً في نفوس المجاهدين ، وردهم عن الجهاد في سبيل الله ، أو رأوا شدة الخطر وخافوا على أنفسهم من غشيانه قال سيد قطب : « وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، عن العصبة المسلمة يوم بدر : ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ ﴾ هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصبة المسلمة تتعرض لجحافل الطاغوت في عنفوانه ، وعدتها الأساسية التي تملكها هي هذا

1- سورة الأحزاب (22) .

2- سورة الأحزاب (12) .

الدين ، وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة ، وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمات الله ، وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه))[1] .

المَوقف الثالث :

نبزهم للنبي صلى الله عليه وسلم إمام المتقين ، وقائد المجاهدين بأنه أذن صاغية ، لكل ما يقال ، لا يفرق بين صادق وكاذب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [2] .

لم يرض المنافقون من النبي صلى الله عليه و سلم بالوجه البشوش والثغر الباسم ، والجانب اللين ، والصفح عن جهلهم ، والعفو عن زلاتهم هكذا كان صلى الله عليه وسلم يعاملهم إذا قابلوه هش لهم وبش ، وإذا جهلوا صفح وإذا غلطوا عفا في سماحة من غير تأنيب ، ولا تعنيف يعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[3] .

لم يرضوا بهذا الأدب الرفيع ، والخلق النبيل ، بل وصفوه بغير وصفه ، وقابلوه بالإساءة والأذى ، فقالوا : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي : سماع لكل قول ، يقبل كل ما يقال له ، لا يميز بين صادق وكاذب يجوز عليه الكذب والخداع والغرور ، لا يدرك غش القول وزوره من حلف له صدقه ، ومن دس عليه قولاً قبله ،

---

١ - في ظلال القرآن (٣/ ١٥٣٣) .

٢ - سورة التوبة (٦١) .

٣ - سورة الأعراف (١٩٩) .

متى بلغه عنهم شيء لا يرضيه كفاهم منه أن يعتذروا إليه بالكذب والباطل ، فيقبل منهم دون إدراك لحقيقة الأمر .

هكذا ينبز المنافقون المصطفى صلى الله عليه وسلم بالبلاهة والغرور ، لأنه سماعة لكل قول لا يعرف الحق من الباطل ، والخطأ من الصواب في زعمهم ، ولا شك أن هذا الطعن الصريح في حق المصطفى صلى الله عليه وسلم نبز لأتباعه المؤمنين ضمناً لأنه قدوهم وإمامهم وإذا صدق هذا في حقه ــ كما يزعم المنافقون ــ كان في حق أتباعه من باب أولى ، وناتج هذا عند المنافقين . أن المؤمنين المجاهدين كلهم بلهاء مغرورين تبعاً لنبيهم .

ولعمري إن المنافقين هم أولى أن يوصفوا بالبلاهة والغرور من المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا وعدهما وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضلاً عن أن يصفوا بهذا الوصف المشين السراج المنير والرحمة المهداة ، الذي أكمله الله خَلقاً وخُلُقاً وآتاه النبوة ، ومن أوتي النبوة فقد أوتي خيراً عظيماً .

لكن النفاق الذي ملأ قلوبهم ، حملهم أن يقولوا في المصطفى صلى الله عليه وسلم ما قالوا وأن يطعنوا في دينه ويعيبوا أتباعه .

الموقف الرابع :

لم يكتف المنافقون في طعنهم للمصطفى صلى الله عليه وسلم بأنه أذن صاغية لكل قول ، بل اتهموه بالظلم والجور في تصرفه ، ولا سيما في توزيع الصدقات والعطايا ، كما في قوله جلّ وعلا : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ (1) . يلمزون النبي صلى الله عليه وسلم ويعيبون في عدالته ،

---

1 - سورة التوبة (٥٨) .

لأهم يزعمون أنه يحابي في توزيع الصدقات وليس هذا النقد الجائر في حق النبي صلى الله لصالح الإسلام ولا لقصد صحيح ، وإنما هو لصالح أنفسهم فقط فمتى أعطوا من هذه الصدقات وَسَمُوها بالعدالة ، وإن لم يعطوا عدوها ميلاً وظلماً ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (١) . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنهمَا قَالَ بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ غَنِيمَةً بِالْجِعْرَانَةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: اعْدِلْ فَقَالَ لَهُ : ((لَقَدْ شَقِيتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ))(٢) .

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِي اللَّهُ عَنْه إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا ، قَالَ : فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ ، بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ ، وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ ، وَالرَّابِعُ ، إِمَّا عَلْقَمَةُ ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ . قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : ((أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً)) ؟. قَالَ : فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الإِزَارِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ قَالَ : ((وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ)) ؟ . قَالَ : ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ . قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ ؟ . قَالَ : ((لاَ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي)) . فَقَالَ خَالِدٌ : وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ ! . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ

---

١ - سورة التوبة (٥٨) .

٢ - صحيح البخاري (٥٦/٤) كتاب فرض الخمس باب (١٥) ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين . حديث (٧) . وصحيح مسلم (٧٤٢/٢) . كتاب الزكاة . باب(٤٧) ذكر الخوارج وصفاتهم . حديث(١٤٨) . واللفظ للبخاري .

قُلُوبِ النَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ)) . قَالَ : ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ ، فَقَالَ : ((إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، وَأَظُنُّهُ قَالَ : ((لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ))[1] .

وعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ ، فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ . قَالَ رَجُلٌ : وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا ، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ . فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ((فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ . رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ))[2] .

وعن أبي سعيد قال : بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ)) . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّه عَنْه : يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ

---

[1] - صحيح البخاري(٥/١١٠) كتاب المغازي . باب(٦١) بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع الحديث الثالث واللفظ له ، و صحيح مسلم(٢/٧٤٢) كتاب الزكاة . باب(٤٧) ذكر الخوارج وصفاتهم .حديث (١٤٤) .

[2] - صحيح البخاري (٤/٦٠-٦١) . كتاب فرض الخمس . باب(١٩) ما كان النبي صلى الله وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم من الخمس ونحوه . حديث(٨) . واللفظ له . وصحيح مسلم (٢/٧٣٩) . كتاب الزكاة . باب(٤٦) إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه . حديث (١٤٠) .

يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ — وَهُوَ الْقِدْحُ- ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ » . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَوُجِدَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي نَعَتَ [1] .

هكذا يقابل المنافقون النبي المصطفى بهذا الجفاء والطعن الظالم ، ليشككوا المسلمين في نبيهم ، ويفقدوهم الثقة فيه وفي ما يدعو إليه .

الموقف الخامس :

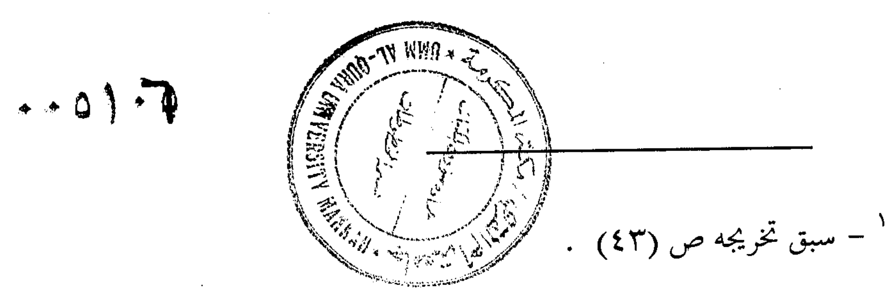
نبزهم ولمزهم للمؤمنين في الصدقات ، كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] . حينما دعا المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الصدقة ليجهز بها الغزاة في سبيل الله عز وجل ، أوليسد بها حاجة الفقراء والمساكين ، أجابه

[1] – صحيح مسلم (٢/٧٤٤-٧٤٥) . الزكاة . باب(٤٧) ذكر الخوارج وصفاتهم . حديث (١٤٨) . السنن الكبرى للنسائي (٦/٣٥٥) . كتاب التفسير باب (١٦٩) قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ . حديث (١١٢٢٠) .

[2] – سورة التوبة (٧٩) .

المؤمنون الصادقون كل على قدر استطاعته راضية بها نفوسهم يبتغون بها رضا الله ، ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإسهاماً في الجهاد في سبيل الله عز وجل بالمال إيماناً بقول المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا »[1].

لم يرض هذا المنظر المنافقين فلجأوا إلى الغمز واللمز ليثبطوا المطوعين ويخذلوهم عن الإنفاق في سبيل الله عزوجل ، وقالوا للمكثر مراء يريد السمعة ، وللمقل إن الله غني عن صدقته ، أخرج ابن جرير بسنده عن أبي سلمة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً » قال : فقال عبدالرحمن بن عوف : يارسول الله إن عندي أربعة آلاف : ألفين أقرضهما الله وألفين لعيالي قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت ، فقال رجل من الأنصار : وإن عندي صاعين من تمر ، صاعاً لربي وصاعاً لعيالي قال : فلمز المنافقون وقالوا : ما أعطى ابن عوف إلا رياء ، وقالوا : أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا ، فأنزل الله ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾[2] الآية . وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ قَالَ : لَمَّا أُمِرْنَا بالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ ، مِنْهُ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا ، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلاَّ رِئَاءً فَنَزَلَتْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ



[1] – سبق تخريجه ص (٤٣) .

[2] – جامع البيان (١٠/١٩٥-١٩٦) وسنده حسن ، ويشهد له حديث أبي مسعود بعده الذي رواه البخاري الآتي .

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية[1] .

لم يسلم من تجريح المنافقين ولمزهم أحد من المطوعين المكثر عندهم أراد الرياء ، والمقل يذكر بنقصه ، يقولون هذا حتى يتراجع المكثرون عن الإنفاق خشية التشهير بهم ، وأنهم يراءون بصدقاتهم ، ويستحي المقل عن المد القليل أمام الناس ، فتقل النفقة ويضعف الجند وينخذل المجاهدون ، قال ابن سعدي : ((إن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير ، فإن الذي ينبغي هو إعانته وتنشيطه على عمله ، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه))[2] ولكن المؤمنين المخلصين الواثقين بقبول الله عزوجل للصدقة الخالصة كثيرة كانت أو قليلة ، لم يثنِ عزمهم كلام المنافقين ، ولم يعبأوا به فكل بذل قدر طاقته محتسبا أجره على الله قال ابن جرير حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال أمر النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يتصدقوا ، فقام عمر بن الخطاب ، فألقى مالا وافرا فأخذ نصفه ، قال : فجئت أحمل مالاً كثيراً ، فقال له رجل من المنافقين : ترائي ياعمر ؟. فقال عمر : أرائي الله ورسوله ، وأما غيرهما فلا ، قال : ورجل من

---

[1] – صحيح البخاري (٥/٢٠٥-٢٠٦) . كتاب التفسير . تفسير براءة . باب(١١) قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية. الحديث الأول . والسنن الكبرى للنسائي (٦/٣٥٧) . كتاب التفسير . باب(١٧١) قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. حديث (١١٢٢٣).

[2] – تيسير الكريم الرحمن (٢/٢٨٢) .

الأنصار لم يكن عنده شيء فآجر نفسه ليجر الجرير على رقبته بصاعين ليلته فترك صاعاً لعياله وجاء بصاع يحمله ، فقال له بعض المنافقين إن الله ورسوله عن صاعك لغنيان))[1] .

قال سيد قطب رحمه الله : ((هكذا تقولوا على المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، واطمئنان ضمير ، ورغبة في المساهمة في الجهاد كل على قدر طاقته ، وكل على غاية جهده . ذلك أنهم لا يدركون بواعث هذا التطوع في النفوس المؤمنة . لا يدركون حساسية الضمير التي لا تهدأ إلا بالبذل في عن طيب خاطر . لا يدركون المشاعر الرفرافة التي تنبعث انبعاثا ذاتيا ، لتلبي دواعي الإيمان والتضحية والمشاركة . من أجل هذا يقولون عن المكثر : إنه يبذل رياء ، وعن المقل : إنه يذكر بنفسه . يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيراً ، ويحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل القليل . فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيرين . ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدي شحيحو الأنفس ، لا ينفقون إلا رياء ، ولا يدركون من بواعث النفوس إلا هذا الباعث الصغيرالحقير)) [2] .

ولا شك أن هذه الاتهامات التي يتفوه بها المنافقون في مثل هذه المواقف ضد الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم والمجاهدين لها أثر كبير في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله ، فلربما تقع في أذن تصغي لها ، أوقلب يقبلها . فإن صفوف المسلمين لا تخلوا من ضعفاء الإيمان الذين يستمعون إلى المنافقين ، وتؤثر فيهم تلك الأقوال ، لضعف إيمانهم ، وقلة اعتمادهم على الله ، وإنما ينظرون إلى الأمور بعين الواقع المشاهد ، ويغفلون عن التوفيق الرباني ، والمدد الإلهي الذي

---

[1] - جامع البيان (١٠/١٩٧-١٩٨). وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٢٨) . وعزاه إلى ابن أبي حاتم .

[2] - في ظلال القرآن (٣/١٦٨١) .

يحاط به المجاهدون في سبيل الله ، ولا سيما حينما يكون العدو يفوق المجـاهدين في العدد والعدة ، ثم يرمي المنافقون بتلك العبارات المخذلة المرجفـة ، فتثـير الخوف والقلق ، وتخلخل وحدة الصف ، وتفرق الكلمة .

أو عندما يصادم المنفقون لأموالهم في سبيل الله المجهزون للجيوش باللمز في صدقاتهم ، فيقال للمكثر : هذا أراد السمعة والرياء ، وللمقل : هذا عطـاء لا ينفع ولا يجدي . ولهذا الكلام أثره في إيقاف الإنفاق في سبيل الله خشية التعيير بالرياء أو بالنقص والحاجة ، ولا يصبر في مثل هذا ، إلا المؤمن القوي الواثـق بوعد الله ونصره .

وإذا كان هذا هو حال المنافقين ، وتلك أقوالهم في عصر المصطفى صلـى الله عليه وسلم ، ووقت نزول القرآن الكريم الذي يظهر معايبهم ، ويفضـح سرائرهم ، فمما لا ريب فيه أنهم من بعده أشد إندساساً بين المسلمين ، وأعظم طعناً في الدين ، وأقوى تهكماً بالمجاهدين واستهزاءً بالمتطوعين .

المبحث الثاني

الآيات التي تضمنت نبز المنافقين للمجاهدين وشرحها .

١- قال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

٢- قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2] .

٣- قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[3] .

---

[1] - سورة الأنفال (٤٩) .

[2] - سورة الأحزاب (١٢).

[3] - سورة التوبة (٦١-٦٣) .

٤- قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[1] .

٥- قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

الشرح :

١- قوله تعالى :﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ هم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام ﴿ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي : شك في الإسلام لم يصح يقينهم ، ولم تنشرح بالإيمان صدورهم [3] وللمفسرين فيهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم قوم من أهل مكة ، تكلموا بالإسلام ، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرها ، فلما رأوا كثرة المشركين ، وقلة المسلمين ، ارتابوا

---

[1] - سورة التوبة (٥٨-٥٩) .

[2] - سورة التوبة (٧٩).

[3] - جامع البيان (١٠/٢٠) .

ونافقوا وقالوا : ﴿ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ ﴾ . وبه قال الشعبي ومجاهد وغيرهما [1] .

الثاني : أنهم المشركون ، لما رأوا قلة المسلمين ، وبه قال الحسن [2] .

الثالث : أنهم قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف المنافقين [3] .

﴿ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ ﴾ الغرر : الغفلة ، والسهو ، والخداع ، فالغِرُّ : الغافل الساهي ، أوالذي يغُرُّ غيره ومنه الغرير أي : الغلام الذي لا علم عنده بالأمور بيِّن الغرارة ، ويقال : فلان غرر بنفسه : عرضها للمكروه والمخاطرة ، والهلاك ، وهو لا يدري تغريراً وتغِرَّةً [4] .

و﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ : إشارة إلى المجاهدين في غزوة بدر ، لما رأوا قلتهم أمام المشركين فلم يشكوا أن المشركين سيغلبونهم ، ﴿ دِينُهُمۡۗ ﴾ أي : دين الإسلام والمعنى : أن دين الإسلام الذي اعتنقه هؤلاء المجاهدون ، خدعهم وانغروا به ، غافلين عن العواقب ، غير مقدرين لها ، حتى أوردهم ، هذه الموارد التي لايدان لهم بها ولا استطاعة لهم بها ، يقولون هذا احتقاراً لهم واستخفافاً بعقولهم .

---

[1] – تفسير القرآن العزيز (٢٣٧/١). جامع البيان (٢١/١٠) . زاد المسير (٣٦٧/٣-٣٦٨) تفسير ابن كثير (٣٣١/٢) .

[2] – زاد المسير (٣٦٨/٣) . تفسيرالقرآن للعز (٥٤١/١) . الكشاف (١٦٣/٢) .

[3] – زاد المسير (٣٦٨/٣) . تفسيرالقرآن للعز (٥٤١/١) .

[4] – مشارق الأنوار (١٣١/٢) . المجموع المغيث (٥٤٩/٢-٥٥٠) . بتصرف .

وفي الحقيقة أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض هـم الأولى بالاحتقار والاستخفاف ، وهم أصحاب الأحلام الضعيفة ، لأن نظرهم ، نظرة حالية ، خالية من بعد النظر ، ونور البصيرة ، وقوة العقيدة ، وإلا لعلموا ما هو الدافع الحق الذي حمل المجاهدين على ورود ذلك الموقف الذي أفزع المنافقين ومن شاكلهم ، إذ لم يكن لهم دافع سوى الإيمان الصحيح ، الذي رسخ في القلوب رسوخ الجبال الراسيات ، وطرد منها كل خوف سوى الخوف من الله العزيز الحكيم ، فوثقوا بنصر ربهم وصدقوا وعده ، وخاضوا المعارك جهاداً في سبيله ونصراً لدينه ، وإعلاء كلمته ، لا عدو يفزعهم ، ولا قوة ترهبهم إلا قوة الله فإن القوة لله جميعاً ، متوكلين عليه سبحانه وتعالى ، ومفوضين إليه أمرهم ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ كفاه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا تغالب قوته قوة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما قضاه وأجراه والله أعلم .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الآية في سياق آيات يمتن الله فيها بنعمته على المؤمنين ويذكرهم بعظيم فضله ، وجميل صنعه ، حين أحدق بهم الأعداء ، وتعاهدوا على استئصالهم في غزوة الأحزاب بدأها جل وعلا بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] الآية . والمعنى : واذكروا من جملة نعم الله عليكم في هذه الغزوة ، أن أظهر لكم المنافقين الذين يكنون لكم

---

[1] - راجع الآيات (٩-١٢) من سورة الأحزاب .

العداء ، ويظهرون محبتهم لكم ولنبيكم حتى ابتلاهم الله في هذه الغزوة بشدة الخوف فلم يثبتوا ، و لم يصبروا حتى أباحوا ما في نفوسهم ، هم ومن سايرهم من ضعفاء الإيمان المرتابين فعرفتموهم بلحن القول ، وتميزوا ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الآية . قال ابن إسحاق في وصف الغزوة : « واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم وأسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط »[1] .

وقال ابن جرير حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم : يافلان أرأيت إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله »[2] . فأين هذا من هذا ، وأحدنا لا يستطيع أن يخرج يبول من الخوف ؟. ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ . فقال : كذبت لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[1] - السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٢٢) .

[2] - أخرج البخاري (٧/٢١٧ –٢١٨) كتاب الأيمان والنذور . باب (٣) كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم . الحديث الثاني عن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا هلك قيصر فلا قصير بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » .

فأخبره فدعاه ، فقال : ما قلت ؟. فقال كذب عليّ يا رسول الله ، ما قلت شيئاً وما خرج هذا من فمي قط [1] .

يصور هذا الخوف المهيب الذي لم يصبر المنافقون والذين في قلوبهم مرض على تحمله ، وظنوا أن لا نجاة لهم من الهلاك فقالوا : ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ما رواه ابن إسحاق قال : « فحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليملن : يأبا عبدالله ، أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟. قال : نعم ، يا ابن أخي ؛ قال فكيف كنتم تصنعون ؟. قال : والله لقد كنا نجهد ؛ قال : فقال : والله لو أدركناه : ماتركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . قال : فقال حذيفة : يا ابن أخي ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هُوِياًّ [2] من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ــ يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة ــ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ ». فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد فلما لم يقم أحد ، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ؛ فقال : « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم ، فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا » . قال : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جليسه ؟ . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ . قال : فلان بن فلان . ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ،

---

[1] – جامع البيان (٢١/١٣٣) وسنده جيد إلا أنه مرسل وله شواهد فيستأنس به في تفسير الآية .

[2] – قطعة من الليل أي : ساعة . القاموس المحيط (١٧٣٥) .

لقد هلك الكراع [1] والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي « أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئت لقتلته بسهم ، قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه ، وهو قائم يصلي في مرط[2] لبعض نسائه مراجل[3] فلما رآني أدخلني إلى رجليه ، وطرح علي طرف المرط ، ركع وسجد ، وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم »[4] .

ويشهد له مارواه مسلم عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ :كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ : لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ : أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ . لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؟ . فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؟ . فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ،ثُمَّ قَالَ : « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؟ . فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ، فَقَالَ : « قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ » . فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ قَالَ : « اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » . فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ

---

[1] – الخيل . مختار الصحاح (٥٦٧) .

[2] – المِرْطُ : كساء من صوف أو خز . المصباح المنير (٢١٧) .

[3] – والمراجل : ضرب من وشي اليمن قاله ابن هشام في السيرة (٣/٢٣٣) .

[4] – السيرة النبيوة لابن هشام (٣/٢٣١-٢٣٣) .

كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ)) . وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ : ((قُمْ يَا نَوْمَانُ))[١] .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ﴾ أي : من المنافقين قوم يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي : أذن سامعة لكل خبر ، مصدق لكل قول ، والأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد ، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته أذن سامعة [٢] .

١ - صحيح مسلم (١٤١٤/٣-١٤١٥) . كتاب الجهاد والسير . باب(٣٦) غزوة الأحزاب . حديث (٩٩) .

٢ - الكشاف (١٥٩/٢) .

قال ابن جرير حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عن أبي إسحاق قال : ذكر الله عيبهم – يعني المنافقين – وأذاهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وكان الذي يقول تلك المقالة فيما بلغني نبتل بن الحارث ، أخو بني عمرو بن عوف ، وفيه نزلت هذه الآية وذلك أنه قال : إنما محمد أذن ، من حدثه شيئاً صدقه [1] .

وقيل : نزلت في جماعة من المنافقين ، كانوا يؤذون الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقولون فيه ما لا ينبغي ، فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد : نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول ، فإنما محمد أذن سامعة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية [2] .

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي : أذن يستمع إلى الوحي من عند الله ثم يبلغه إليكم ، أو أذن خير يستمع إليكم في أدب فلا يعنفكم ، ولا يؤاخذكم بخداعكم ومكركم ، بل يعفو عنكم ويحلم عليكم . فهو أذن خير ، لا أذن شر ، فسلم لهم قولهم فيه ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ولكن فسره بما هو مدح وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته ، وأنه من أهل سلامة القلوب والغِرَّة [3] .

وفي قوله : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ رد عليهم بما قالوا ، إذ لاشيء أبلغ في الرد عليهم بهذا الوجه ، لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة ، ثم كر على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه ، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء

---

[1] – جامع البيان (١٠/١٦٨) وانظر: الدر المنثور (٣/٢٥٣) .

[2] – أسباب النزول للواحدي (٢٨٦) . تفسير الخازن (٣/٩٤) . وتفسير البغوي (٣/٩٤) .

[3] – جامع البيان (١٠/١٦٨) . الكشاف (٢/١٩٩) . بتصرف

القول بالموجب ، لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم ، ثم بتاً للطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه [1] .

﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ يصدق بالله وحده لاشريك له ، فيصدق كل ما يخبره به عنكم وعن سواكم . ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يصدق المؤمنين لا الكافرين ، ولا المنافقين فيطمئن إليهم، ويثق بهم لما علم عنهم من صدق إيمانهم ، ومحبتهم لله ولرسوله ، وبغضهم للكذب وأهله ، قال ابن جرير : ((هذا تكذيب من الله للمنافقين الذين قالوا : محمد أذن ، يقول جل ثناؤه : إنما محمد صلى الله عليه وسلم مستمع خير يصدق بالله وبما جاءه من عنده ، ويصدق المؤمنين لا أهل النفاق والكفر بالله ، وقيل : ويؤمن للمؤمنين معناه : يؤمن المؤمنين ، لأن بعض العرب تقول فيما ذكر لنا عنها : آمنت له ، وآمنته ، بمعنى : صدقته كما قيل : ﴿ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[2] . ومعناه : ردفكم وكما قيل : ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[3] . ومعناه : للذين هم ربهم يرهبون))[4] .

﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ ﴾ أي : وهو رحمة لمن آمن منكم ، لأنه السبب في إيمانهم ، وخروجهم من الضلالة إلى الهدى ، فهو رحمة مهداة لمن اتبعه واهتدى بهداه ، وصدق بما جاء به من عند ربه . ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ

---

[1] – الإنصاف فيما تضمنه الكشاف (٢/١٩٨) بهامش الكشاف .

[2] – سورة النمل (٧٢) .

[3] – سورة الأعراف (١٥٤) .

[4] – جامع البيان (١٠/١٦٩) .

رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ويعيبونه من المنافقين وغيرهم من الكفار ليس لهم حق في هذه الرحمة ، وإنما ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : مؤلم موجع ، من عند الله عزوجل لأن الله يغار لنبيه ، ولا يرضى له الأذى . ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أي : أن المنافقين يحلفون لكم أيها المؤمنون بالله عزوجل ، لتصدقوهم في اعتذارهم ، عما وصلكم من أخبارهم ، وإيذائهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه مكذوب عليهم ، ولم يقولوه فترضوا عنهم وتصفحوا لهم ، قال ابن جرير : حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الآية ، ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين ، قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير ، قال : فسمعها رجل من المسلمين ، فقال : والله إن ما يقول محمد حق ، ولأنت شر من الحمار ، فسعى بها إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى الرجل فدعاه ، فقال له : ((ما حملك على الذي قلت)) ؟ . فجعل يلتعن ، ويحلف بالله ما قال ذلك . وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله في ذلك ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

[1] - جامع البيان (١٠/١٧٠) . وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢٥٣/٣) وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر إلى قتادة . وأورد الواحدي في أسباب النزول (٢٨٧) نحوه عن السدي وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢٥٣/٣) وعزاه لابن أبي حاتم . وانظر : زاد المسير (٣/٤٦٠) . وتفسير البغوي (٢/٣٠٦-٣٠٧) .والخازن (٣/٩٤-٩٥).

قال ابن عطية : ((المراد جميع المنافقين الذين يحلفون للرسول والمؤمنين أهم معهم في الدين ، وفي كل أمر وحرب وهم يبطنون النفاق ، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ،وهذا قول جماعة من أهل التأويل))[1] .

وهذا هو ديدن المنافقين في كل زمان ومكان ، وسمة واضحة من سماتهم . ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[2]. والله أحق أن يرضوه بالتوبة والرجوع إليه مما فعلوا وقالوا في رسوله ، وكذلك رسوله ، ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لأن المؤمن لا يُقَدِّمُ شيئاً على رضا الله ، ولا على رضا رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن كانوا -كما يزعمون — أهم مؤمنون فأحق من يرضونه هو الله بالتوبة والإنابة ، ورسوله بالطاعة والانقياد . ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ سؤال توبيخ وإنكار معناه : ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذباً للمؤمنين ليرضوهم ، وهم مصرون على النفاق والكفر الخفي ، والطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن من يحادد الله ورسوله ويخالف أمرهما - كما فعلوا هم بنفاقهم ، وحلفهم على الكذب ، وطلبهم لرضا الخلق ، دون رضا الخالق — أن له نار جهنم جزاء بما فعل خالداً فيها أبداً لا خروج منها ولا نهاية إلا ما شاء الله ، وهذا هو الهوان

---

[1] – المحرر الوجيز (٣/٥٣) . البحر المحيط (٥/٦٤) .

[2] – للعلماء أقوال كثيرة في إفراد الضمير في ﴿ يُرْضُوهُ ﴾ منها : أن فيه حذف والتقدير : والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه ، ومنها : أنهما في حكم مرضي واحد إذ رضا الله هو رضا الرسول ، ومنها : أنه أفرد لتعظيم الله جل وعلا . معاني القرآن للنحاس (٣/٢٢٨-٢٢٩) . البحر المحيط (٥/٦٤) .

والذل العظيم الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه فقد فاته النعيم وهلك في عذاب الجحيم .

وفي هذا رد عليهم في دعواهم الإيمان ، إذ المؤمن يعلم هذا ويخاف عذاب ربه ، ولا يجرأ على محاربة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لما كان إيمانهم لا يتجاوز ألسنتهم قالوا ما قالوا ، وفعلوا ما أرادوا فلا إيمان يمنعهم ولا خوف يردعهم .

٤ - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي : ومن المنافقين ، ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ يعيبك في قسمة الصدقات ، ويطعن عليك ، واللمز في اللغة : العيب في السر ، وقيل : اللمز : العيب في الوجه ، وأصله الإشارة بالعين والرأس والشفة مع كلام خفي ، والهمز : العيب بالغيبة ، رجل لمزة : يعيبك في وجهك ، وهمزة يعيبك بالغيب[1] .

وهؤلاء المنافقون لم يكن لمزهم لقصد صحيح ، وإنما هو لصالح أنفسهم الدنيوي بدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا ﴾ أي : من الصدقات ، ﴿ رَضُوا ﴾ بالقسمة و لم يبالوا بالدين ولا بالحق ، ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا

[1] - الجامع لأحكام القرآن(١٠٦/٨) . لسان العرب (٤٠٦/٥) .

هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[1] يغضبون ويصفون هذه القسمة بالجور والظلم ، إذ لم ينالوا منها شيئاً . قال سيد قطب : « فالنص القرآني يقرر أن القولة قولة فريق من المنافقين ، يقولونها لا غيرة على الدين ، ولكن غضباً على حظ أنفسهم ، وغيظاً أن لم يكن لهم نصيب ، وهي آية نفاقهم الصريحة ، فما يشك في خلق الرسول صلى الله عليه وسلم مؤمن بهذا الدين ، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق الأمين ، والعدل فرع من أمانات الله التي ناطها بالمؤمنين فضلاً على نبي المؤمنين . وواضح أن هذه النصوص تحكي وقائع وظواهر وقعت من قبل ، ولكنها تتحدث عنها في ثنايا الغزوة لتصوير أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفي ثناياها »[2] .

قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴾ أي : هؤلاء المنافقون الذين يلمزونك في الصدقات ﴿ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أي: ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء ، وقسم لهم من قسم ، رضا تسليم وقناعة : ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أيضاً ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي : كافينا و ﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ العظيم وعطاه الكريم ﴿ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ سيعطينا أيضاً من الصدقة وغيرها ما نستحقه ، ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ أي : أن حاجتنا ورغبتنا إلى الله وحده دون من سواه . « لكان هذا كله خيراً لهم »[3] . وهذا توجيه من الله عزوجل لهم إلى سلوك الطريق الأولى ، كما أنه حض للمؤمنين الذين عرفوا الحق ، وسلكوا طريقه بالثبات عليه ولزومه والله أعلم .

---

1 - سبق روايات تبين سبب النزول انظر : ص (٤٨٥-٤٨٧) .

2 - في ظلال القرآن (٣/١٦٦٨) .

3 - الجامع لأحكام القرآن(٨/١٠٦) .

٥ – قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ ﴾ أي : ومن المنافقين الذين يعيبون على المتصدقين من المؤمنين صدقاهم ، فإذا رأوا المكثر نسبوه للرياء ، وإن رأوا المقل قالوا : الله غني عن صدقته ، و لم يع أولئك المنافقون أن الله عزوجل غني عن صدقة المكثر والمقل سواء ، ولا تزيد في ملكه شيئاً ، ولكنه يقبل الصدقة من صاحبها إذا أخلص بها لوجه الله ويضاعف له بها الأجر والمثوبة ﴿ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ ﴾ : هم الذين يفعلون الشيء تبرعاً من غير أن يجب عليهم ، وأصله : المتطوعين ، فأدغمت التاء في الطاء [1] .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ أي : المقل الذي لا يجد ما يتصدق به إلا القليل ، قال الشعبي : ((الجَهْد في العمل ، والجُهْد في المعيشة))[2] . فالمعنى : جهدهم أي : شيء قليل يعتاشون به . قال ابن جرير حدثنا محمد بن رجاء أبو سهل العباداني ، قال حدثنا عامر بن يساف اليمامي ، عن يحيى بن أبي كثير اليمامي ، قال : جاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلآف درهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلآف فاجعلها في سبيل الله ، وأمسكت أربعة آلآف لعيالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((بارك الله لك فيما أعطيت ، وفيما أمسكت)) . وجاء رجل آخر فقال : يا رسول الله ! بت الليلة أجر الماء على صاعين ، فأما أحدهما

[1] – الجامع لأحكام القرآن(١٣٧/٨) .

[2] – جامع البيان (١٩٨/١٠) .

فتركت لعيالي ، وأما الآخر فجئتك به اجعله في سبيل الله ، فقال « بـــارك الله لك فيما أعطيت ، وفيما أمسكت » . فقال ناس من المنافقين : والله ما أعطـى عبدالرحمن إلا رياء وسمعة ، ولقد كان الله ورسوله غنيين عن صـاع فـلان ، فـــأنزل الله ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ يعني عبدالرحمـن بـن عـوف ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ يعني صـاحب الصـاع ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ أي : المنافقون ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي : من المطوعين المتصدقين ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ هذا من باب المقابلة و المشاكلة على سوء صنيعـهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ، لأن الجزاء من جنس العمل[2] . كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[3] .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : أعد الله لهؤلاء المنافقين عذاباً أليمـاً في الآخرة جزاء بما كانوا يعملون .

---

[1] – جامع البيان (١/١٩٧) . وسبق له شواهد ص (٤٨٨) .

[2] – تفسير ابن كثير (٢/٣٩٠).

[3] – سورة الأنفال (٣٠) .

المبحث الثالث

علاج هذا العائق

جاء علاج هذا العائق في القرآن الكريم كما يلي :

أولاً :

إذا وقف المسلم المتبصر مع الآيات الكريمة التي تضمنت نبز المنافقين للمجاهدين بالغرور والبلاهة ، يجد أنها تعالج هذا العائق الخطير ، بما يشفي العليل ، ويحصن السليم ، وبيان هذا كما يأتي :

١- أن الآية الأولى ختمت بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) . وفي هذا بيان بأن المجاهد الذي يجاهد في سبيل الله عز وجل يجب أن يتوكل على الله ، ولا ينظر إلى القوة المادية البحتة ، ولا يصغي إلى أراجيف المنافقين ومرضى القلوب الذين لا يبصرون للنصر سبيلاً ، ولا يعرفون له طريقاً إلا بالتغلب المادي الصرف ، حسبما تمليه عقولهم القاصرة ، ونظرتهم القريبة .

فإذا توكل على الله ، وفوض أمره إليه ، وجاهد في سبيله مؤمناً به ، مصدقاً بوعده ، واثقاً بنصره ، طالباً لإحدى الحسنيين إما النصر والتمكين ، وإما الشهادة والخلود في جنات النعيم فإن الله معزه وناصره ، وهو سبحانه العزيز الحكيم قال صلى الله عليه وسلم : ((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ

١- سورة الأنفال (٤٩) .

اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » [1] .

قال ابن جرير في تفسير الآية : « ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فإن معناه : ومن يسلم أمره إلى الله ويثق به ، ويرضى بقضائه فإن الله حافظه وناصره ، لأنه عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يقهره أحد ، فجاره منيع ، ومن يتوكل عليه يكفه ، وهذا أمر من الله جل ثناؤه المؤمنين به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم أن يفوضوا أمرهم إليه ، ويسلموا لقضائه ، كما يكفيهم أعداءهم ، ولا يستذلهم من نأواهم ، لأنه عزيز غير مغلوب فجاره غير مقهور ، ﴿ حَكِيم ﴾ يقول : هو فيما يدبر من أمر خلقه حكيم لا يدخل تدبيره خلل » [2] .

وفي هذا دحض لتلك المقولة ، ورد لها في نحور أصحابها ، ورفع لمعنويات المجاهدين المؤمنين ، وشحذ لهممهم .

٢- ختمت الآية الثالثة بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [3] . توعد القائلين لهذه المقولة بالعذاب المؤلم الذي لا تقوى عليه أجسادهم ، ولا تتحمله جلودهم ثم أتبعه تهديد

---

[1] - حسن أخرجه الترمذي (٤/٦٦٧) كتاب صفة القيامة والرقاق والورع باب (٥٩) . حديث (٢٥١٦) . وسنده كلهم ثقات سوى قيس بن الحجاج الكلاعي السلفي روى عن حنش بن عبدالله الصنعاني وعنه ابن لهية وليث بن سعد . وثقة ابن حبان . وقال الحافظ : صدوق . مات سنة ١٢٩ هـ . روى له الترمذي وابن ماجه . التقريب (٤٥٦) . الخلاصة (٣١٧) . ومن طريقه أخرجه أحمد (١/٢٩٣و٣٠٧٦) . وقال الترمذي : حسن صحيح .

[2] - جامع البيان (١٠/٢٢) .

[3] - سورة التوبة (٦١) .

آخر بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [1] . ويدل هذا على شناعة جرمهم وعظم ذنبهم الذي ارتكبوه حينما وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف الذي أرادوا منه الطعن في شخصه صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن جريمة عظيمة ، وذنباً كبيراً ، لما توعدهم سبحانه وتعالى عليه بالعذاب الأليم ، ووسمهم بالمحادة لله ولرسوله التي يترتب على ورود نار جهنم والخزي العظيم في الآخرة .

ويتضمن هذا التحذير للمؤمنين من مضاهاة قولهم ، والوقوع في مكرهم ، إذ في نظافة المجتمع من ذلك ، قوته وعزته ، ومجده ونصره ، فمتى كان سليماً من تلك الأقوال كان سليماً من أهل النفاق المستهزئين بالدين وأهله المخذلين للمجاهدين .

٣- رده سبحانه وتعالى على الذين يلمزون المطوعين في الصدقات ويسخرون منهم ، بمثل فعلهم ، حيث قال تعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [2] . ومن سخر الله منه خاب وخسر الدنيا والآخرة ، وفي هذا تثبيت للمؤمنين الباذلين لأموالهم في سبيل الله عز وجل ، ورفع لمعنوياتهم لأنهم على الحق ، وصدقاتهم مقبولة عند الله قليلها وكثيرها ما دامت خالصة لوجهه الكريم . فليستمروا في نفقاتهم ، ولا يعبأوا بكلام المنافقين ،

١- سورة التوبة (٦٣) .

٢- سورة التوبة (٧٩) .

فإن المنافقين هم الأحق بالسخرية إذ أن نهايتهم إلى العذاب الأليم ، ويؤيد هذا موقف نوح عليه السلام مع قومه عندما كان يصنع الفلك وهم يسخرون منه ويرد عليهم بمثل قولهم حتى كانت العاقبة له وللمؤمنين معه قال تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [1].

فما هو الفرق بين استهزاء قوم نوح وبين استهزاء المنافقين ؟.

ولكنه عليه السلام لما كان واثقاً بنصر الله ، مصدقاً لوعده لم يعبأ بسخريتهم ، وإنما مضى في صناعته حتى أتمها ، وجاء ما وعده ربه به .

ثانياً :

١- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ

١- سورة هود (٣٨-٣٩) .

فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (١).

تبين هذه الآيات الكريمة أن قوة العدة وكثرة العدد ، لاتعمل شيئاً مع عناية الله عزوجل بعباده المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله فهؤلاء جنود طالوت ملك بني إسرائيل حينما نظروا إلى عدوهم وتقالوا عددهم معه قالوا ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ ﴾ فثبتهم أهل العلم منهم والفضل وذكروهم بأن نصر الله من عنده سبحانه ليس عن كثرة عدد ولا عدة ، وكم هي المواقف التي انتصرت فيها القلة الصابرة ، على الكثرة الطائشة ، ثم لما تراءت الفئتان التجأ المؤمنون إلى ربهم بالدعاء وهو سبحانه القريب من عباده ، وكان النصر بإذن الله لهم .

فمتى صبر المجاهدون وصدقوا في جهادهم وأخلصوا لربهم أعزهم الله ونصرهم ، وإن كان عددهم قليلاً بالنسبة إلى عدد عدوهم (٢).

٢- مدد الله عز وجل للمجاهدين في سبيله بإنزال الملائكة عليهم في ساحة المعركة كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ

١- سورة البقرة (٢٤٩-٢٥١) .

٢- انظر تفسير ابن كثير (٣٠٩/١-٣١١) .

هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [1].

فبين سبحانه وتعالى أنه مع صبر المجاهدين في القتال ، وتقواهم الله عز وجل فإنه سبحانه يمدهم بالملائكة تربط على قلوبهم وتثبت أقدامهم وما النصر إلا من عند الله عز وجل ينصر من يشاء .

وإذا تيقن المجاهدون بمدد الله لهم وأنه ناصرهم لم ينظروا إلى كثرة العدو ، وإن فاقهم في العدة والعتاد .

فعندهم ما يفوق هذا وإن كانوا أقل منه عدداً وعدة ، عندهم الإيمان الصادق ، واليقين الثابت بمن يملك القوة الحقة فيجاهدون لأجله لا يخافون غيره [2] .

---

١ - سورة آل عمران (١٢٤-١٢٦) .

٢ - انظر : تيسير الكريم الرحمن (١/٢٩٥) .

الفصل الخامس

تظاهر المنافقين بالاستعداد للجهاد ، ثم التولي وقت الجد

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول : تظاهر المنافقين بالاستعداد للجهاد ، ثم التولي وقت الجد وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

المبحث الثاني : شرح الآيات التي تضمنت تظاهر المنافقين بالاستعداد للجهاد ثم توليهم وقت الجد .

المبحث الثالث : علاج هذا العائق .

المبحث الأول

تظاهر المنافقين بالاستعداد للجهاد ، ثم التولي وقت الجد وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

من الأساليب التي يكيد بها المنافقون للإسلام ، وأهله ويثبطون بها المجاهدين عن جهادهم في سبيل الله أسلوب المخادعة والمراوغة قال تعالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾[1] .

يتظاهرون بالجد والاستعداد للجهاد في سبيل الله بالنفس والمال في حال الرخاء والأمن ، والاطمئنان ، كما تظاهروا بالإسلام والإيمان بين يدي المؤمنين ، فإذا جاء الجد ونادى منادي الجهاد في سبيل الله ، وتحقق الخروج للغزو تغشاهم الخوف ، وعلاهم الرعب ، وانكشف عنهم الغطاء وانخزلوا عن المسلمين ، ونادوا فيهم بعبارات التخذيل والتخويف يشهد لذلك ما حصل منهم :

أولا : في غزوة أحد حيث تشاور المنافقون مع النبي صلى الله عليه وسلم وأدلى زعيمهم عبدالله بن أبي ابن سلول برأيه ، وخرجوا مع المسلمين للقتال متظاهرين بالإيمان والجد في الجهاد ، فلما دنوا من المكان وقرب اللقاء انخزل بهم ابن أبي وأثاروا الشكوك حول الغزو ، وإن كانوا تستروا بغطاء آخر كما سلف[2] .

---

[1] - سورة البقرة (٩) .

[2] - هو احتجاجهم بانقاص رأي القائد انظر ص (٤٠٥) ومابعدها من هذا البحث .

ثانيا : في غزوة الأحزاب حينما عزم المصطفى صلى الله عليه وسلم على حفر الخندق وأخذ يحفر هو وأصحابه ، أبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك ، رجال من المنافقين ، وجعلوا يؤرّون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا إذن . وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

وعندما عسكر المصطفى صلى الله عليه وسلم في وجه الأعداء ، واشتد البلاء انخذلت طائفة منهم ، ونادت في القوم ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ ﴾[2] . ذلك النداء الذي يدل على أن الدين والأخوة الإيمانية ، ليس لهما في قلوبهم قدر ، وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي[3] . وطائفة أخرى تستأذن في الرجوع لما أصابها الجبن ، وضاق ذرعها ، وانتهى صبرها ، ولكنها تسلك سبيل الاعتذار والاحتيال الباطل ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾[4] .

---

[1] - السيرة النبوية لابن هشام (٢١٦/٣) والآية (٦٣) من سورة النور .

[2] - سورة الأحزاب (١٣) .

[3] - تيسير الكريم الرحمن (١٣٤/٤) .

[4] - سورة الأحزاب (١٤) .

تلك هي حال المنافقين في كل زمان ومكان ، أشحة بأنفسهم وأموالهم عن الجهاد في سبيل الله ، ويعتريهم الخوف والرعب في أوقات الشدة والفزع ، ترجف قلوبهم ، وتنهار قواهم ألسنة ساكتة وأعين باردة ، كالذي يصارعه ملك الموت لا حول له ولا قوة ، وإذا زال الخطر وارتفع الخوف ، برزوا بألسنة حداد ، وأعين شداد ، ظهروا أسودا تنظر متى تكون الصولة والجولة ، لينزلوا ساحة الموت بالحسام المهندة ، فيضربوا بها أعناق الأعداء ، تراهم أسود الوغى ، ولكنهم ليوث الأمن والرخاء ، ثعالب في الشدة والبلاء قال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[1] .

ولا شك أن لهذا أثرا كبيرا في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله عزوجل حينما يرى المؤمنون تمزق الجيش وانخزال عد كبير ممن يرونه مسلما ويعدونه منهم ، ناهيك عما يبثه هؤلاء من الأراجيف وعبارات التخويف بين صفوف المجاهدين التي يكون لها وقع في النفوس ، فإنها — وإن عرفها كثير من المؤمنين إلا أنها — قد تنطلي على البقية ، ولا سيما أن ذلك يحصل من قوم يشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويعدون بالجهاد في سبيل الله

[1] - سورة الأحزاب (١٨-١٩) .

مؤكدين ذلك بالأيمان المغلظة كما قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ [1] . وعاهدوا الله على الصبر في وجوه أعدائه وبذل المال في سبيله قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [2] . وقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [3] .

والآن يرجعون القهقري ، كأن لم يقسموا على الخروج ، ولم تكن منهم عهود ومواثيق ، مبررين خذلانهم بضعف القوة وقلة الحيلة أمام الجند الهائل من الأعداء ، أو متشبثين بالأعذار الباطلة ليخفوا بذلك نفاقهم ، ويكسروا ساعد المجاهدين في سبيل الله عزوجل . فيستميلون ضعفاء الإيمان .

لكن المؤمنين المخلصين لا ينثنون عن جهادهم في سبيل الله و لا ترجعهم أراجيف المنافقين ، بل يرون المنافقين على صورهم الحقيقية التي وصفها الله عزوجل بقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ

---

[1] – سورة النور (٥٣) .

[2] – سورة الأحزاب (١٥) .

[3] – سورة التوبة (٧٥-٧٦) .

لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [1].

إن التالي لكتاب الله عز وجل المتتبع لأحوال المنافقين يجد تناقض المنافقين ، وخذلانهم وانخذالهم بعد الاستعداد والتظاهر بالجد في حال الرخاء والأمن ، ثم اضمحلال ذلك عند العزيمة ، ليس مع المؤمنين فحسب ، بل حتى مع إخوانهم الكفار الذين هم على ملتهم ، وتربط بينهم أخوة الدين قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[2] .

وذلك وعد ابن أبي وأصحابه لبني النضير ، ثم تخليهم عن نصرهم ، حينما حاربهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد همهم بالغدر به ، قال ابن إسحاق في سياق القصة : « وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج ، منهم عدو الله ، عبدالله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل ، وسويد وداعس ، قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا

[1] - سورة المنافقون (٤) .

[2] - سورة الحشر (١١-١٢) .

معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك – يعني مدة الحصار ست ليال – من نصرهم ، فلم يفعلوا))[1] .

ولن يفعلوا لأنهم قدموا مخافة الناس على مخافة الله والخشية منه فأصابهم الرعب ، وجبلوا على الذل والهوان كما قال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2] .

---

[1] – السيرة النبوية لابن هشام (١٩١/٣) .

[2] – سورة الحشر (١٣) .

المبحث الثاني

شرح الآيات التي تضمنت تظاهر المنافقين بالاستعداد للجهاد وقت الرخاء ثم توليهم وقت الجد

١- قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

يخبر سبحانه وتعالى عن حال المنافقين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله عزوجل مع رسوله ، إذ يعدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم في حال الأمن والرخاء ، بأنهم جاهزون ومستعدون للخروج في الغزو معه متى أمرهم ، ولم يكن هذا مجرد وعد فحسب ، بل أكدوه بالأيمان المغلظة ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أي : طاقة ما قدروا أن يحلفوا ، مأخوذ من قولهم جَهَدَ نَفْسَهُ : إذا بلغ طاقتها وأقصى وسعها ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ معك في الغزو ، مجاهدين في سبيل الله عزوجل ، لا يفزعهم العدو ، ولا يمنعهم الخوف .

ولكن لما كانت تلك وعود كاذبة ، وأيمان فاجرة ، لما لم يعلم الله من حالهم ونفاقهم ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينهاهم عن القسم ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ﴾ أي : لا تحلفوا ، فليس لنا حاجة في حلفكم الكاذب قد نبأنا الله من أخباركم فطاعتكم ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي : لا تخفى علينا إنما هي قول لا فعل معه ، وكل ما حلفتم كذبتم كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ

[1] - سورة النور (٥٣) .

لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1] . وقيل : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أي : بالمعروف من غير حلف ولا أقسام ، كما يطيع المؤمنون الله ورسوله بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم .

فالله يعلم أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة ، والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لا يروج عليه شيء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها[2].

٢- قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾[3] .

الآية الكريمة في سياق الآيات التي تصف حال المنافقين في غزوة الأحزاب إذ نادت طائفة منهم بالرجوع وأن لا مقام لهم ، واستأذنت طائفة أخرى قائلة : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾[4] . فيخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية أن هؤلاء قد سبق منهم عهد لله عز وجل قبل هذه الغزوة ، أن يقاتلوا في سبيله ، وإذا لقوا العدو ﴿ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ قالوا هذا العهد إذ

---

[1] – سورة التوبة (٩٦) .

[2] – تفسير ابن كثير (٣١١/٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٤/٣) .

[3] – سورة الأحزاب (١٥) .

[4] – سورة الأحزاب (١٣) .

كانوا آمنين والآن في وقت الجد والجهاد والصبر ، ينقضون عهدهم ويفرون وللمفسرين في هؤلاء أقوال :

أحدها : أنهم ناس غابوا عن وقعة بدر ، فلما رأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا : لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ، فساق الله إليهم ذلك وبه قال قتادة[1].

الثاني : أنهم بنو حارثة ، هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل[2] عاهدوا الله لا يعودون لمثلها فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم[3].

الثالث : أنه لما نزل بالمسلمين يوم أحد ما نزل ، عاهد الله معتب بن قشير وغيره لا نولي دبراً قط ، فلما كان يوم الأحزاب نافقوا .

أورده ابن الجوزي ورجحه بقوله : " وهو أليق مما قبله "[4] .

الرابع : أنهم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم " قالوا فإذا فعلنا ذلك

---

[1] - جامع البيان (١٣٧/٢١) . زاد المسير (٣٦٢/٦) . تفسير البغوي (٥١٧/٣) .

[2] - أي لما نزل في بني سلمة قوله عزوجل : ﴿ **إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا** ﴾ آل عمران (١٢٢) .كما سبق عن جابر رضي الله عنه ص (٤١٢).

[3] - جامع البيان (١٣٧/٢١) . تفسير البغوي (٥١٧/٣) الجامع لأحكام القرآن (٩٩/١٤) .

[4] - زاد المسير (٣٦٣/٦) .

فمالنا يا رسول الله ؟. قال : " لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة " . قالوا : قد فعلنا ذلك . فذلك عهدهم وبه قال مقاتل والكلبي[1].

قال البغوي : " وهذا القول ليس بمرضي ، لأن الذين بايعوا ليلية العقبة كانوا سبعين نفرا ، لم يكن فيهم شاك ، ولا من يقول هذا القول ، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يفروا فنقضوا العهد " .

وقال ابن الجوزي : " وإذا كان الكلام في حق المنافقين فكيف يطلق القول على أهل العقبة كلهم " .

وبالنظر في هذه الأقوال يظهر بعد القول الرابع لما يأتي :

١- لأن أصحاب العقبة الثلاثة والسبعين الذين بايعوا رسول الله عليه وسلم ، ورضي عنهم لم يشك منهم أحد في صدق المصطفى صلى الله عليه وسلم وأن ما جاء به هو الحق من عند الله ، وبرز صدق من حضر منهم بدرا وأحدا حيث كانوا صبرا في اللقاء والجهاد في سبيل الله .

٢- أن الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن حال المنافقين ، وفرارهم في غزوة الأحزاب .

ولذا فقد رده الإمامان البغوي وابن الجوزي رحمهما الله تعالى .

وأما الأقوال الثلاثة الأخرى فيمكن الجمع بينها ، لأنها كلها من صفات المنافقين ولم يحضر المنافقون بدرا والآية تخبر عمن نقض عهده من المنافقين وفر بعد أن عاهد على القتال وأن لا يفر وهو في حال السلم .

---

[1] - زاد المسير (٣٦٣/٦) . تفسير البغوي (٥١٧/٣) الجامع لأحكام القرآن (٩٩/١٤) .

﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ أي : أن الله سيسألهم عن هذا العهد الذي أعطوه إياه من أنفسهم ، وهم آمنون من غير إلزام فلما كان وقته ودعت إليه الحاجة نقضوه وولوا هاربين .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[1] .

يخبر الله سبحانه وتعالى أن من صفات المنافقين نقض العهد والميثاق بعد أن يعطوه قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي : من المنافقين ﴿ مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾ أعطى الله العهد والميثاق ﴿ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : رزقنا مالاً ووسع علينا في الدنيا ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ لنخرجن الصدقة من هذا المال الذي رزقنا به ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ فيه فننفقه في سبيل الله ونصل به الأرحام ، ونعين على نوائب الحق ، كما يفعل الصالحون بأموالهم . ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أي : منحهم المال ووسع عليهم في الرزق ﴿ بَخِلُواْ بِهِۦ ﴾ أي : بهذا المال فلم يفوا بما قالوا ، ولم ينفقوا منه في حق الله ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ عن الطاعة والانقياد لما عاهدوا الله ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عن الخير ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ الله ﴿ نِفَاقًا ﴾ سكن ﴿ فِى

---

[1] - سورة التوبة (٧٥-٧٧) .

قُلُوبِهِمْ ﴾ مستمراً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ أي : يلقون الله عزوجل ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ من الصدقة والنفقة في سبيله ﴿ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ وفي هذا وعيد لمن هذه حاله ، وتخويف لغيره من الوقوع في مثل ما وقع فيه ، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء لأنه بجمع آيات المنافق الثلاث ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))[1] .

٤ – قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[2] .

يخبر سبحانه وتعالى عما جرى بين المنافقين واليهود من الوعود بأسلوب السؤال الدال على التعجب من صنيعهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ﴾ . في الدين لأن الكفر

---

[1] – جامع البيان (١٠/١٨٨) . تيسير الكريم (٢/٢٨٠) . بتصرف . والحديث سبق تخريجه ص (٢٩٣) .

[2] – سورة الحشر (١١-١٢) .

يجمعهم وإن اختلفت مللهم ، أو أخوة الصداقة والموالاة ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ هم يهود بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدهم المنافقون وأطمعوهم في النصرة والموالاة على المؤمنين فقالوا لهم : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم ومنازلكم وأجليتم عنها ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ ونترك ديارنا ونذهب في صحبتكم أينما ذهبتم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا ﴾ يريد يمنعنا من الخروج معكم ، أو سألنا خذلانكم ﴿ أَبَدًا ﴾ وإن طال الزمان ، وعد جازم ﴿ وَإِن ﴾ اشتد الأمر و ﴿ قُوتِلْتُمْ ﴾ أي : قاتلكم رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه ﴿ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ عليهم ، وفي المغازي في سياق قصة بني النضير قال : ((جاءهم رسول ابن أبي أتاهم سويد وداعس فقالا : يقول عبد الله بن أبي : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا في حصونكم ، فإن معي قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ، فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم))[1] .

ولكنها وعود في الأمن والاطمئنان ، وإذا كان الخوف والفزع ذهبت أدراج الرياح كالسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ولذا قال تعالى ردا عليهم : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾[2] . في وعدهم بالخروج والنصرة ، وأكرم به من شهادة ، شهادة من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ثم فصل سبحانه الرد عليهم بعد الإجمال فقال : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ ﴾ أي : اليهود ﴿ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ أي : المنافقون ﴿ وَلَئِن

---

[1] – المغازي للواقدي (١/٣٦٨) .

[2] – إرشاد العقل السليم (٥/٧٠٦-٧٠٧) . فتح القدير (٥/٢٠٤) . بتصرف .

قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أي : لا ينصر المنافقون اليهود كما وعدوهم . وقد تحقق ذلك قال ابن إسحاق وهو يتكلم عن إجلاء بني النضير : ((وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج ، منهم عدو الله ، عبد الله بن أبي ابن سلول ، ووديعة ، ومالك بن قوقل ، وسويد ، وداعس ، قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك – أي : مدة الحصار ست ليال – من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال إلا الحلقة[1] . ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[2] . بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ومنهم سار إلى الشام))[3] . قال الواقدي : ((فلم يقربهم ابن أبي ولا أحد من خلفائه وجلس في بيته ، ويئست بنو بني النضير من نصره ، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صويراء يقولان لحيي : أين نصر ابن أبي ؟))[4] .

﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾ أي : ولئن نصر المنافقون يهود بني النضير ليولن الأدبار منهزمين عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه هاربين منهم ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي : لاينصر اليهود إذا الهزم ناصرهم ، أو لا ينصر المنافقون بعد ذلك ، بل يذلهم الله ويخزيهم[5] . وفي هذا بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالنصر .

---

[1] – الحلقة : السلاح . المصباح المنير (٥٦) .

[2] – نجاف الباب : العتبة وهي أسكُفّة الباب . اللسان (٩/٣٢٣) .

[3] – السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٩١) .

[4] – المغازي (١/٣٧١) .

[5] – جامع البيان (٢٨/٤٦) . فتح القدير (٥/٢٠٤) بتصرف .

المبحث الثالث

علاج هذا العائق

لقد عالج القرآن الكريم هذا العائق بعدة أمور :

أولا : إبطال هذا الادعاء :

فإن الله عز وجل فضح نفاقهم ، وكشف كذبهم ، ورد عليهم ادعاءهم بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [1] أي : لا تحلفوا على الكذب فليس لنا حاجة في أيمانكم ، وطاعتكم قول بلا عمل وقد نبأنا الله بذلك فإن الله خبير بما تعلمون ويجازيكم على ما يعلمه منكم [2]. كما فضحهم في وعدهم لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالنصرة إن قوتلوا ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، وكشف زيف وعودهم وأنها تذهب وقت الجد والحاجة كأن لم تكن لا يلتزمون بوعد ولا يصدقون في عهد ورد عليهم ادعاءهم فقال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[3].

---

1 - سورة النور (٥٣) .

2 - انظر تفسير الآية ص(٥٢١-٥٢٢) من هذا البحث .

3 - سورة الحشر (١١-١٢) . وانظر : تفسيرها ص (٥٢٦-٥٢٨) من هذا البحث .

وفي كشف الله عز وجل لهذه الحقيقة درس لمن تسول له نفسه أن يحـــذوا حذوهم سواء من عاصرهم أو من أتى بعدهم إلى أن يرث الأرض ومن عليــها . فحين ما يعلم سعة علم الله عز وجل الذي يعلم ما في القلوب ، ونطق الألســن الكاذبة يهابه ويحذر عقابه إن كان له قلب حي ، ويعود إلى الصواب .

ثانيا: التخويف من سوء العاقبة :

حينما أخبر عز وجل أن من المنافقين من أعطى الله العهود والمواثيق لئـــن أتاه الله من فضله ليصدقن منه وليعملن به عمل الصالحين من إنفاقه في ســبيل الله عز وجل ، ولما تفضل الله تبارك وتعالى عليه ومنحه المال بخل به و لم يوف بما قال . فعاقبه الله عز وجل بقولـــه : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[1] .

أي : عاقبهم بالنفاق الذي يسكن قلوبهم ويحرمهم التوبة إلى أن يلقــوا الله عـــز وجل وهم على هذه الحال السيئة جزاء كذبهم وخلفهم الوعد ، بمنع الإنفـــاق في سبيل الله وبخلهم بالمال .

وهذا وإن كان فيه وعيد لمن هذه حالهم وتلك فعلتهم ، ففيه أيضا تهديـــد وتخويف لغيرهم ، لكي لا يقع فيما وقعوا فيه فيستحق العقوبة التي نالوها فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والله لا يرد بأسه عن القوم الفاسقين [2] .

---

[1] - سورة التوبة (٧٧) .

[2] - انظر تفسير الآية ص(٥٢٥-٥٢٦) من هذا البحث . ومختصر تفسير البغوي (٣٧٥/١) .

ثالثا : قطع الأمل أمام الفارين :

رد سبحانه وتعالى على هؤلاء المنافقين الذين يتظاهرون بالاستعداد للجهاد في وقت الجد بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [1] . فأمر سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبرهم أن فرارهم لن ينفعهم ، فلا يمنعهم من الموت ولا يطول أعمارهم إذا جاء الأجل المحتوم الذي قد قدره الله عليهم ، وإذا لا يمتعون بالعيش بعد هذا الفرار إلا مدة آجالهم المقدرة وهي مدة قليلة .

كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟

[1] - سورة الأحزاب (١٦-١٧) .

يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (١) . وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢) .

فكان الأحرى بهم والحالة هذه أن يصدقوا في عهدهم ، وأن يثبتوا مع المجاهدين في سبيل الله فالجهاد لا يقصر آجالهم ، والفرار منه لا يزيد أعمارهم .

ثم بين تعالى أن الأسباب لا تغني عن العبد شيئاً إذا أراده الله بسوء فقال : ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم ﴾ أي : يحميكم ويمنعكم ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا ﴾ من هزيمة أو مرض أو غير ذلك من الأضرار والشرور ﴿ أَوْ ﴾ من يحول بين الله وبينكم إن ﴿ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ من نصر وعز . بل الله هو وحده النافع الضار المعطي المانع ﴿ وَ ﴾ هؤلاء ﴿ لَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يتولاهم فيجلب لهم المنافع ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينصرهم فيدفع عنهم المضار (٣) .

إن هذه الآيات – وهي تعالج هذا المرض في نفوس المنافقين وتقطع الأمل في الحياة بسبب الفرار من الموت أو القتل – تغرس في نفوس المؤمنين عقيدة الإيمان بالقضاء و القدر ، وأن الله هو المحيي المميت ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ،

١- سورة النساء (٧٧-٧٨) .

٢- سورة الأعراف (٣٤) .

٣- انظر : تفسير البغوي (٣/٥١٧) . تفسير ابن كثير (٣/٤٨٢) . تيسير الكريم الرحمن (٤/١٣٥-١٣٦) . فتح القدير (٤/٢٦٧) .

كما قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] .

لأن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر هي التي تجعل المؤمن يقف في سبيل الله صابرا محتسبا لا يهاب الأعداء ، موقنا بأن ما كتبه الله حاصل لا محالة . مما يرفع العزيمة ويقوي الشكيمة [3] ، ويدفع إلى الجهاد في سبيل الله .

رابعا : التثبت والاحتراز :

كما في قوله يبارك تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [4] فقد أمر سبحانه وتعالى بالتثبت من الأخبار والاحتراز من عواقبها ، فيجب على المسلمين التثبت من الدعاوى والشائعات وفحصها ليعلموا مدى صدق قائليها من كذبهم ، ولا يقبلوها دون اختبار ، لأن المنافقين يتسترون بين صفوف المسلمين ويكيدون لهم في الخفاء .

---

١ - سورة الحديد (٢٢-٢٣) .

٢ - سورة التغابن (١١) .

٣ - الشكيمة : قوة القلب ، والأنفة والانتصار من الظلم . وفلان شديد الشكيمة : إذا كان شديد النفس أنفا أبيا . الصحاح (٥/١٩٦١) اللسان (١٢/٣٢٤) .

٤ - سورة الحجرات (٦) .

وقد تبين مما سبق كيف يعطون المسلمين العهود والمواثيق في وقت الرخـــاء ليحملوهم على الجهاد ويحركوهم ضد الأعداء ، يريدون بذلك توريط المســلمين وتسليمهم للأعداء ، حتى إذا كان الجد واشتد الأمر تخلوا عنهم . كما تبين ممـــا سبق أيضاً كيف يعد المنافقون إخوانهم من الكفار بـــالنصرة ضـــد المســـلمين ليحمسوهم على قتال المسلمين وليقووا عزائمهم في الوقوف أمام المجاهدين ، وإن كانوا كاذبين لا يقدرون على نصرهم .

فلا يقبل المسلمون دعوى كل مدعي ما لم يعلم حاله ، ويعرف صدقه لكي لا يقعوا في حبائل المنافقين ، فإذا جاء الأمر في الآية بالتثبت والاحتراز من أخبار الفاسق معلوم الفسق ، فلا شك أن التثبت والاحتراز من خبر المجهول أولى حـــتى يعرف حاله [1] .

وهذا علاج يبرئ العليل ويشفي الغليل لمثل هذا العائق ولكن شبهه المنـافق كثيرة لا تقف عند هذا كما سيأتي .

[1] انظر : تفسير ابن كثير (٢٢٣/٤) . تيسير الكريم الرحمن (٧٧/٥-٧٨) .

الفصل السادس

احتجاج المنافقين بحماية شؤونهم الخاصة وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله وعلاجه في ضوء القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :احتجاج المنافقين بحماية شؤونهم الخاصة وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

المبحث الثاني : شرح الآيات التي تضمنت احتجاج المنافقين بحماية شؤونهم الخاصة .

المبحث الثالث : علاج هذا العائق .

المبحث الأول

احتجاج المنافقين بحماية شؤونهم الخاصة وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

من الأعذار التي يعتذر بها المنافقون في التخلف عن الجهاد في سبيل الله ويثيرون بها دواعي التثبيط لدى المجاهدين ، احتجاجهم بحماية شؤونهم الخاصة التي لا عذر لهم في تركها ، إذ تركها عار عليهم كما في قوله عز وجل عنهم : ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [1] أي : ليست بحصينة ، وممكنة للسراق لخلوها من الرجال [2] . قال الواقدي وهو يصف الشدة التي لاقاها المسلمون في غزوة الأحزاب : " واجتمعت بنو حارثة فبعثوا أوس بن قيظي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله : إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا نرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجعوا بذلك وتهيئوا للانصراف . فبلغ سعد ابن معاذ ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله لا تأذن لهم ؛ إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا . ثم أقبل عليهم فقال لبني حارثة : هذا لنا منكم أبداً ، ما أصابنا وإياكم من شدة إلا صنعتم هكذا .

---

١ - سورة الأحزاب (١٣) .

٢ - تفسير البغوي (٥١٦/٣) الجامع لأحكام القرآن (٩٨/١٤) إرشاد العقل السليم (٣١٢/٤) .

فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر ابن إسحاق نحوه [1].

ويشكل على هذا ما أخرجه البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾[2] . بَنِي سَلِمَةَ وَبَنِي حَارِثَةَ وَمَا أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ وَاللَّهُ يَقُولُ : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾))[3] .

ولعل الراجح ما حكاه ابن الجوزي وغيره عن السدي قال : ((إنما استأذنه رجلان من بني))[4] . فلعل الذين قالوا بنو حارثة أرادوا هذين الرجلين ومن سار معهم من بني حارثة ، وعلى هذا يصبح لا معارضة بينه وبين ما في صحيح البخاري ، لأن ما في البخاري يعني من آمن والتزم بإيمانه ، ولا يمنع هذا أن يكون من بني حارثة منافقون استأذنوا في ذلك الموقف والله أعلم . وقد احتج هؤلاء في طلب الإذن لهم بالانصراف من معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والخروج إلى أهليهم بحماية بيوهم وذراريهم من العدو . مظهرين أن هذا عذر يبيح لهم الاستئذان والخروج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخفين في أنفسهم حقيقة أمرهم وخوفهم إذ مرادهم الحق هو الفرار من الموت أو القتل لما رأوا كثرة العدو ، وشدة الموقف كما وصفه الله عز وجل بقوله : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ

---

١ – المغازي للواقدي (٢/٤٦٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٢٢) . وأخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهم ((أنهم بنو حارثة قالوا : ((بيوتنا مخلية نخشى عليها السراق . جامع البيان (٢١/١٣٥) .

٢ – سورة آل عمران (١٢٢) .

٣ – سبق تخريجه ص (٤١٢) .

٤ – زاد المسير (٦/٣٦٠) . الجامع لأحكام القرآن (١٤/٩٨) .

﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [1] وهنا يهلع المنافقون ، وتخور قواهم ، فمنهم من ينادي ﴿ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [2] ومنهم يستأذن ويقول : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ ، ولذا كذبهم الله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

إنه الخوف والذعر أصابهم بسبب النفاق وفساد القلوب فالتمسوا الأعذار وإن كانت أوهن من خيط العنكبوت . ليخفوا بها حالهم ويرضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

ولا شك أن لهذه الحجة أثراً في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله عز وجل

أولاً : أنه يندس تحتها كثير من المنافقين في كل عصر ومصر الذين يزعمون أن لهم من المشاغل والأمور ما يحتاج إليهم بطريق الأولى كرعاية الذراري وحماية البيوت وغيرها مما يدعون أنه عذر يبيح لهم التخلف عن الجهاد في سبيل الله ، ويستترون وراءه عن المسلمين ، فلا ينكشف حالهم ، ولا يعرف نفاقهم وفي ذلك بلاء عظيم .

ثانياً : أنه ينخدع بهم كثير من ضعفاء الإيمان ، وقليلي البصيرة فيتبعونهم في تلك الأعذار وهم لا يدركون خطأهم وبطلان أعذارهم . وفي هذا ما فيه من تقليل عدد المجاهدين وإضعاف العزائم فلا تخلو الأمة الإسلامية من منافقين يختفون بين أبنائها ويوالون لأعدائها ، كما لا تخلو من ضعفاء الإيمان وقليلي البصيرة إن لم يكونوا سوادها الأعظم .

---

١ – سورة الأحزاب (١٠-١١) .

٢ – سورة الأحزاب (١٣) .

المبحث الثاني
شرح الآيات التي تضمنت احتجاج المنافقين بحماية شؤوهم الخاصة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (1) .

جاءت هاتان الآيتان الكريمتان ضمن آيات من سورة الأحزاب وصف الله فيها غزوة الأحزاب وكيف أحدق الأعداء بالمسلمين وتواصوا على استئصالهم ، وكيف انكشف فيها المنافقون على حقيقتهم وسبقت الإشارة إلى تفسير الآيات ووصف الغزوة (2) . إلى أن قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي : من المنافقين ﴿ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أي : لا مكان لكم تقيمون فيه ، أو لا إقامة لكم تقيموها هنا(3) ﴿ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ إلى منازلكم عن القتال ، يريد بهذا تثبيط المؤمنين عن الجهاد . ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ﴾ أي

---

1 - سورة الأحزاب (١٣-١٤) .

2 - انظر ص (٤٥٨) وما بعدها . (نبز المنافقين) .

3 - مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/١٣٤) . زاد المسير (٦/٣٦٠) .

: من المنافقين وقد سبق من المراد بهذا الفريق ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي : خالية ضائعة ، يمكن من أرادها دخولها وأصل العورة : ما ذهب عنه الستر والحفظ ، فكأن الرجال ستر وحفظ للبيوت ، يقال : دار مُعورة ذات عَوْرَة : إذا كان يسهل دخولها ، وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة [١] .

ولما كانت دعواهم كاذبة وحجتهم باطلة قال تعالى رداً عليهم ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ كما يدعون ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي : ما يريدون إلا الهروب من القتل . ﴿ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ أي : المدينة لو دخلت عليهم من نواحيها وجوانبها ، فالقطر : هو الجانب والناحية [٢] . ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ ﴾ أي : الشرك ﴿ لَآتَوْهَا ﴾ لجاءوها ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ أي : ما احتبسوا عن إجابتهم إلى الشرك إلا قليلاً [٣] .

---

١ - انظر : تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (٣٤٨) . المفردات (٣٥٥) زاد المسير (٦/٣٦١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٩٨) .

٢ - غريب القرآن لابن اليزيدي (١٤١٤) . تفسير المشكل من غريب القرآن (١٩٣) .

٣ - جامع البيان (٢١/١٣٦) . زاد المسير (٦/٣٦١) .

المبحث الثالث

علاج هذا العائق

جاء علاج هذا العائق عن الجهاد في سبيل الله عز وجل في القرآن الكريم في الآيات التالية :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى رد احتجاج المنافقين وتعذرهم بحماية شؤونهم عليهم ، وبين كذبهم وغاية مرادهم بقوله ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي : من القتل لا لأجل حماية دورهم وذراريهم ، فلو أن المدينة دخلت عليهم من نواحيها وطلب منهم الشرك لأجابوا غير متلبثين ولا مدافعين ولذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ فكيف بمن سيستسلم لمن يدخل عليه مدينته ويذعن لما يطلب منه أن يحتج بحماية داره ؟ .

فإنها حجة داحضة ودعوى باطلة .

ثانياً: قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

بين جل وعلا في هذه الآية أنه ما كان ينبغي لأهل المدينة من المهاجرين والأنصار ، ومن جاورهم من الأعراب المسلمين أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوه إذا عزا ، ولا أن يرضوا لأنفسهم بالراحة والدعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المشقة والتعب ، بل الواجب عليهم أن يفدوه بأنفسهم ، وأن يجاهدوا معه ويرافقوه في سفره .

وإذا فعلوا ذلك فإنه ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وهو التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وهي المجاعة في سبيل الله ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أي : لا يطئون أرضاً يغيظ الكفار وطؤهم إياها ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ أسراً أو قتلاً أو هزيمة أو غنيمة ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ يثابون عليه لأنها آثار أفعالهم الصالحة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

فقطعت هذه الآية الحجة أما من يتخلفون عن الجهاد في سبيل الله عز وجل ويعتذرون بمشاغلهم الخاصة ، فالآية الكريمة وإن كانت تتحدث عن غزوة تبوك

---

[1] - سورة التوبة (١٢٠-١٢١) .

[2] - انظر : جامع البيان (٦٤/١١) . المحرر الوجيز (٣/٩٥-٩٦) . زاد المسير (٣/٥١٥) . الجامع لأحكام القرآن (٨/١٨٤-١٨٥) .

إلا أن حكمها عام ، فيلزم المسلمين الخروج مع إمامهم إلى الجـــــهاد في حـــال حاجته إليهم لئلا يقل العدد ويضعف الجند والله أعلم [1] .

[1] - انظر : المراجع السابقة .

الفصل السابع

احتجاج المنافقين بتكاليف الجهاد وأثره في الإعاقة عن الجـــهاد في ســـبيل الله وعلاجه في القرآن الكريم وفيه المباحث التالية

المبحث الأول : احتجاج المنافقين بتكاليف الجهاد وأثره في الإعاقة عن الجـــهاد في سبيل الله

المبحث الثاني : شرح الآيات التي تضمنت احتجاج المنافقين بتكاليف الجهاد

المبحث الثالث : علاج هذا العائق

المبحث الأول

احتجاج المنافقين بتكاليف الجهاد وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

يحتج المنافقون على الخروج في سبيل الله بتكاليف الجهاد ومشاقه ، ويعظمون بذلك العقبات أمام المجاهدين كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ ﴾ (١) . فحين ما انخذل المنافقون عن الجهاد ، نادوا في المسلمين بهذه المقولة التي سجلها الله – وصمة عار عليهم وعلامة تمييزهم – تتلى في كتابه ما شاء سبحانه .

وذلك حينما أمر المصطفى صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزوة تبوك في وقت الصيف واشتداد الحر ، ونضج الثمار ووقت محبة الراحة والخلود إلى الأرض كما سلف (٢) . عظم ذلك على المنافقين وأصابهم الخوف والفزع ، كيف لهم بترك الظل البارد ، وترك الثمر الناضج ، وقطع المفاوز والقفار في الشمس والحر ؟ . فاستأذن فريق منهم النبي صلى الله عليه وسلم وتخلف فريق بلا استئذان ، ولكن مع ذلك لا يعجبهم أن يروا قوافل المجاهدين تنطلق غازية في سبيل الله ترفع راية الإسلام ، فانطلقوا يخذلون في صفوف المسلمين وهم يقول بعضهم لبعض : ﴿ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ ﴾ يهولون الأمر ، ويضعون العقبات في طريق المجاهدين أي : لا تنفروا في حرارة الشمس الحارقة ، ونار الرمضاء المؤلمة مع شدة العطش وقلة الماء وانعدام الظل فتلك مشاق لا تطاق ، ولا يستطيع تحملها إنسان .

---

١ – سورة التوبة (٨١) .

٢ – انظر : ص (٣٧٤) من هذا البحث .

لم يكن المنافقون يريدون بذلك الرفق بالمجاهدين ، ولا يريدون تبيين الواقع ليأخذ المجاهدون الاستعداد التام له .

و لم تكن تلك المشاق التي يفخمونها هي الحائل بينهم وبين الجهاد في سبيل الله حقيقة ، ولذا قال تعالى عنهم : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [1] . أي : لو كان الخروج إلى غنيمة حاضرة ، ومنفعة دنيوية سهلة ، أو كان السفر إلى موضع قريب سهل محقق المنفعة ما تعذروا ولا ترددوا في الخروج ، ولكن طالت عليهم المسافة وصعب عليهم السفر [2] .

إن احتجاج المنافقين بتكاليف الجهاد له أثر في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله ، حينما يهتف المنافقون بإبراز المشاق والتكاليف في طريق المجاهدين التي يراها الناس حقيقة ، فينخدع بها قليلوا الإيمان وضعفاء النفوس ولا سيما حينما يكون أمر المنافقين غامضاً و لم تنكشف حالهم ، ويظن من يسمعهم أنهم مسلمون ناصحون ، وتحدث تخلل وتفرق في صف المسلمين مما يمزق وحدتهم ويضعف قوتهم ويعوق طريقهم عن الجهاد في سبيل الله .

---

[1] - سورة التوبة (٤٢) .

[2] - انظر : ص (٣٨٢) من هذا البحث .

المبحث الثاني

شرح الآيات التي تضمنت احتجاج المنافقين بتكاليف الجهاد

قال تعالى : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [1] . يخبر سبحانه وتعالى عن حال المنافقين ، وموقفهم من غزوة تبوك فقال : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ أي : سر الذين خلّفهم الله وثبطهم عن الغزو مع رسوله والمؤمنين للجهاد في سبيله وإعلاء دينه ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ بجلوسهم وتأخرهم في بيوتهم ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي : لخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أمرهم بالخروج فالمراد بخلاف : المخالفة أي : مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَكَرِهُوٓاْ ﴾ أي : هؤلاء المخلفون ﴿ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ونتيجة لهذا الكره للجهاد الذي نزل في قلوبهم يوصي بعضهم بعضاً بعدم الخروج في سبيل الله ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ ﴾ أي : للجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ أي : حر الصيف الشديد ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مما فررتم فإن كنتم فررتم من الخروج في حر الصيف وعصيتم الرسول لذلك ، فنار جهنم التي أعدها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله أشد حرًّا كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ

---

[1] - سورة التوبة (٨١) .

وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [1] .وقال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [2]

.فهذا هو الحر الشديد الذي يجب أن يحذر ويتقى ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ ويفهمون لنفروا معه الرسول صلى الله عليه وسلم في حر الصيف ليتقوا حر جهنم الذي لا يماثله حر [3] .

---

[1] – سورة التحريم (٦) .

[2] – سورة البقرة (٢٤) .

[3] – انظر : جامع البيان (١٠ / ٢٠٠-٢٠١) . المحرر الوجيز (٣ / ٦٥ – ٦٦) . تفسير البغوي (٢/٣١٥) . تفسير ابن كثير (٢ / ٣٩١-٣٩٢) . الجامع لأحكام القرآن (١٣٧/٨) .

المبحث الثالث

علاج هذا العائق

جاء علاج هذا العائق في الآيات التالية :

١- قول الله تعالى في الآية نفسها : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ فهو وإن كان أسلوباً إخبارياً إلا أن فيه تهديداً لهم ، ووعيداً على ما ارتكبوا من خطيئة بمخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم خروجهم معه في سبيل الله عز وجل .

٢- قوله تعالى في الآية بعدها : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [١] . أمر معناه : التهديد لهم على فعلهم ، وليس أمراً بالضحك أي : فليضحكوا قليلاً في الدنيا الفانية ، فإنهم سيبكون طويلاً في نار جهنم جزاءاً لهم على مخالفتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ استنفرهم فلم ينفروا [٢] .

٣- قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [٣] .

---

١ – سورة التوبة (٨٢) .

٢ – جامع البيان (١٠ / ٢٠٢) . الجامع لأحكام القرآن (٨ / ١٣٨) .

٣ – سورة التوبة (٨٣) .

أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم إن رده الله إلى هؤلاء المنافقين فاستأذنوه في الخروج معه بأن لا يأذن لهم بالخروج معه ولا يقاتلوا معه عدواً لأنهم خالفوه ورضوا بالقعود أول مرة فعاقبهم بأن يخلفهم مع الخالفين ولا يصحبوه أبداً [1] .

فالآيات الكريمة جاء فيها التهديد لهم على فعلهم والوعيد لهم بالنكال جزاء صنيعهم ، ومعاقبتهم بأن لا يصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً في غزوه مما يدل على أن احتجاجهم بتكاليف الجهاد احتجاج باطل وأن تمسكهم به مخالف لرسول الله صلى الله عليه وسلم استحقوا عليه العقوبة في الدنيا بإبعادهم عن صحبة رسول الله في غزوه ومقاتلة أعداء الله وفي الآخرة الغذاب في النار[2] .

وفي هذا تحذير لغيرهم بأن لا ينخدع بشعارات المنافقين وإدعاءاتهم الكاذبة التي تبرز في ظاهرها بلون الحق والصواب وفي باطنها المكر والخديعة للإسلام وأهله .

وفي ختام هذا الباب أود أن أذكر بأن على المسلم أن يراعي الأمور التالية :

أولاً : الإيمان الصادق الذي يوجب التسليم والانقياد التام لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : الحذر من المنافقين ومسايرتهم في القول والفعل ، فكلما قوي الإسلام وعز المسلمون ، كان احتمال وجود المنافقين بينهم أقوى وتخفيهم أكثر .

---

[1] – جامع البيان (١٠ / ٢٠٣) . المحرر الوجيز (٣ / ٦٦) . تفسير البغوي (٢ / ٣١٥) .

[2] – انظر : المحرر الوجيز (٣ / ٦٦) .

ثالثاً : إذا لم يعرف المسلم المنافقين بأشخاصهم ، فقد بين الله عز وجل لنا كثيراً ملامحهم في الفعل والقول كما سلف في هذا الباب مما يمكن معرفتهم به ، ولا سيما في المواقف الشديدة التي لا يصبر فيها إلا المؤمنون الصادقون .

وبعد بيان هذا العائق وبيان علاجه يمكن التعرف على عائق آخر وعلاجه في الباب التالي .

الباب الثالث

المعوقات عن الجهاد في سبيل الله بسبب أعداء الأمة وعلاج ذلك في ضوء القرآن الكريم

وفيه تمهيد وأربعة فصول :

التمهيد : حول تحديد أعداء المسلمين ، وبيان ملامحهم إجمالاً ،وتوضيح حجم خطورتهم في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

الفصل الأول : كيد الأعداء ، ومؤامراتهم .

الفصل الثاني :قوانينهم الوضعية ومعاهداتهم المعاصرة .

الفصل الثالث : قوتهم وتفوقهم في العدد والعدة .

الفصل الرابع : علاج هذا العائق في القرآن الكريم .

التمهيد

حول تحديد أعداء المسلمين ، وبيان ملامحهم إجمالاً ،وتوضيح حجم خطورتهم في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

التمهيد

حول تحديد أعداء المسلمين ، وبيان ملامحهم إجمالاً ،وتوضيح حجم خطورتهم في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

بعد ما بعث الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يصدع بما جاءه من الحق وأن يجهر بالدعوة إلى الله بعد أن كانت سرًّا ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [1] . امتثل أمر ربه ، ونادى في قومه بلا إله إلا الله محمد رسول الله . لم يرض بهذا قومه ، بل تنكروا له ولما جاء به ، وسخروا منه ، ووصفوه بالسحر والكذب ، مبينين له صبرهم على كفرهم ، وتماديهم في غييهم كما قال عز وجل : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ [2] . لم يرضوا بما جاء به صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا يعيشون في جاهلية ، وضلال ، لا يعرفون معروفاً ، ولا

[1]- سورة الحجر (٩٤) .

[2]- سورة ص (٤-٨) .

ينكرون منكراً ، مع معرفتهم ، واعتقادهم بأن الله هو الخالق ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (1) . ولكن لم ينفعهم ذلك الاعتقاد ، ولم ترشدهم تلك المعرفة إلى عبادة الله .

فعبدوا الأصنام ، وألهوها من دون الله عز وجل ، حتى أصبح لكل أهل بيت صنم يعبدونه ، إذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في مترله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل مترله أن يتمسح به أيضا(2) .

حتى أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً (3) . وليس هذا في مكة وحدها ، بل في جزيرة العرب كلها فعن أبي رجاء العطاردي يقول : ((كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ وَأَخَذْنَا الآخَرَ فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ ثُمَّ طُفْنَا بِهِ))(4) .

فألفوا عبادة الأصنام ، وأحبوها ، وأي : حب بعد هذا الحب الذي لا يترك عبادة حجر حتى يجد حجراً خيراً منه - كما يرى - . وما عرفوا من الحياة إلا الحياة الدنيا ، لا بعث ولا نشور ، ولا عقاب ولا ثواب بعد الموت ﴿ وَقَالُوٓاْ

1- سورة الزخرف (٨٧) .

2- انظر : السيرة لابن هشام (١/٢٦٢-٢٦٤) . تفسير ابن كثير (٤/٣٠-٣١) . ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٦٩-٧١) .

3- أخرج البخاري (٥/٩٢) كتاب المغازي باب (٤٨) .أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح حديث (٧) . عَنْ عَبْدِاللَّهِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّــــه عَلَيْــهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلاثُ مِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُـولُ (**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ**) (**جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**) .

4- صحيح البخاري (٥/١١٩). كتاب المغازي . باب (٧٠) وفد بني حنيفة . حديث (٤) .

مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [2] .

وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ينبذ هذا جملة ، وتفصيلاً إذ يسلب من الأصنام ألوهيتها ، ويمقت عابديها ، ويَعِد بالبعث والنشور ، وأن بعد الموت حياة ، وثواباً وعقاباً وجنة وناراً .

ولذا لم يقفوا من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عند حد التنكر لها والرفض ، بل ناصبوه العداء ، وتربصوا به الدوائر وعذبوا أصحابه ، وخططوا لاغتياله ، وحذروا منه الوفود والحجاج ، وكلما ازداد أصحابه كلما زاد حقد المشركين وبغضهم له صلى الله عليه وسلم ولما جاء به .

ولما أذن الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة ، وهاجر إليها ، جاور فيها اليهود قتلة الأنبياء ، وليس محمد صلى الله عليه وسلم عندهم بأعز من أولئك . بل إن مبعثه صلى الله عليه وسلم حرمهم النبوة ، وقطع أملهم في أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم المرتقب منهم ، فكفروا به وبما جاء به قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن

---

[1] - سورة الجاثية (٢٤) .

[2] - سورة الإسراء (٤٩) .

فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١) .

فقد كان بنو إسرائيل قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم يعلمون خروجه وصفته ووقته بما هو مكتوب عندهم في كتبهم ، ولكن كانوا يظنون أنه منهم ، وكانوا يستفتحون به على العرب ، فيقولون : لو خرج النبي الذي أظل وقته لقاتلناكم معه ، واستنصرنا عليكم به ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وعرفوه كفروا به على معرفة وعلم ، حسداً من عند أنفسهم أن كان من العرب ولم يكن منهم . بل زاد بغضهم واشتد حقدهم لما جاورهم في المدينة وظنوا أنه ستكون له فيها القيادة والريادة ، وأنهم سيفقدون ما كان لهم من ذلك . فأخذوا يمكرون للإسلام وأهله ، ويكيدون للمصطفى صلى الله عليه وسلم خاصة ، واستأصل الحقد في نفوسهم وملأ البغض قلوبهم .

ولما تمكن صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وكثر أنصاره ، وانتشرت أخباره ، وبغث البغوث ، وأرسل المراسيل ، ظهرت عداوة النصارى للإسلام فهؤلاء الأعداء الذين سجل الله عداوة في كتابه قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢) .

١- سورة البقرة (٨٩-٩٠) .

٢-سورة المائدة (٨٢) .

إنها العداوة المتأصلة في النفوس ، المستمرة على مر العصور والأزمان ، قال ابن عطية في تفسير الآية : « وهذا خبر مطلق منسحب على الزمن كله ، وهكذا هو الأمر حتى الآن ، وذلك أن اليهود مرنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم ، ودربوا على العتو والمعاصي ، و مردوا على استشعار اللعنة ، وضرب الذلة والمسكنة ، فهم قد لجت عداوتهم ، وكثر حسدهم ، فهم أشد الناس عداوة للمؤمنين ، وكذلك المشركون عبدة الأوثان من العرب ، والنيران من المجوس ، لأن الإيمان إياهم كفر ، وعروشهم ثل ، وبين أنهم ليسوا على شيء من أول أمرهم فلم يبق لهم بقية فعداوتهم شديدة ، والنصارى أهل الكتاب يقضي لهم شرعنا بأن أول أمرهم صحيح لولا أنهم ضلوا ، فهم يعتقدون أنهم لم يضلوا ، وأن هذه الآية لم تنسخ شرعهم ، ويعظمون من أهل الإسلام من استشعروا منه صحة دين ، ويستهينون من فهموا منه الفسق ، فهم إذا حاربوا فإنما حربهم أنفة وكسب ، لا أن شرعهم يأخذهم بذلك وإذا سالموا فسلمهم صاف ... واليهود لعنهم الله ليسوا على شيء من هذا الخلق ، بل شأنهم الخبث ، واللي بالألسنة ... ولم يصف الله تعالى النصارى بأنهم أهل ود ، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين ، فهو قرب مودة بالنسبة إلى متباعدين »[1] .

نعم ليس للمؤمنين عند النصارى ود ومحبة ، وإن كانوا أقرب الأطراف الثلاثة ، ولكنها العداوة التي بعضها أشد من بعض ، ولعل من الأسباب التي أججت لهب العداوة في صدور اليهود ، وأضرمت نار الحقد في نفوسهم للمسلمين حتى فاقوا غيرهم في العداوة للإسلام وأهله ما يلي :

١- بينما كانت اليهود ترى أنها الأمة المختارة ، والشعب المصطفى ، على سائر الأمم والشعوب ، وأن الأنبياء منهم ، إذا هي تفاجأ ببعثة نبينا محمد

---

[1]- المحرر الوجيز (٢/٢٢٥-٢٢٦) .

صلى الله عليه وسلم من العرب الأميين ، وإذا بأمته تكون خير أمة كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [1] .

٢- أن القرآن الكريم الذي هو المعجزة الخالدة لهذا النبي صلى الله عليه وسلم هو أعظم من فضح اليهود ، وكشف عوراتهم ، وأزاح الستار عن مخازيهم ، ليراهم الناس على حقيقتهم السوداء ، قلوب مريضة ، ونوايا خبيثة . وأنى لهم النيل من هذا الكتاب العظيم المحاط بعناية الله وحفظه .

٣- أن النبي صلى الله عليه وسلم هو النبي الذي جاهد اليهود وكسر شوكتهم وأذل سادتهم ، وأرغم أنوفهم ، مع أنهم قتلة الأنبياء .

٤- أن علماء هذه الأمة هم أفضل الناس في محاجة اليهود ، وأفضلهم في مناظراتهم ، وأكثر الناس تعقبا لباطلهم في التأليف والتصانيف [2] .

ولا نغفل أن هناك عدوا رابعا موازيا لهؤلاء إن لم يكن شرا منهم ، ولكنه يندس في صفوف المسلمين يعمل بأعمالهم ويقول بأقوالهم ظاهرا ، ويبطن الكفر ، ويكن للمسلمين العداوة البغضاء وهو المنافقون وقد سبق الكلام عنهم مفصلا في الباب الثاني .

ومن هنا ندرك أن أعداء الأمة الإسلامية هم كل من كفر بالله عز وجل ، ولم يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم سواء أكان يهوديا أم نصرانيا أم مشركا

---

[1] -سورة آل عمران (١١٠) .

[2] - انظر : تفسير ابن كثير (٢/٨٨-٨٩) . تيسير الكريم الرحمن (١/٥٥٢-٥٥٣) . قبل الكارثة نذير ونفير (٣٦-٣٧) .

وثنياً أم منافقاً فمهما تنوعت مللهم وتفرقت نحلهم إلا أنه يجمعهم جامع الكفر والعداء ضد الإسلام وأهله . إذ يرون أن الإسلام هو العدو الوحيد للكفر والكفار ، فملل الكفر لو تخالفت وتناحرت فلأجل المصالح الدنيوية ، والمطامع المادية ، وجرياً على الطباع البشرية . لا لأجل العقيدة والدين .

ويظهر لنا حجم خطر هؤلاء الأعداء ، على الأمة الإسلامية ، ومدى تأثيرهم في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله عز وجل حينما نرى مدى الحسد الذي تغلل في نفوسهم لنا ، وأنه لا يرضيهم منا إلا اتباعهم فيما هم عليه : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [1] . لا يريدون أي خير دنيوي أو أخروي وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [2] . فأي حسد أخبث من هذا الحسد أن يتمنى الإنسان زوال نعمة الإيمان والراحة عن أخيه ؟ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [3] . فبين سبحانه وتعالى عداوة اليهود والنصارى المستمرة و الدائمة وأنه لا يطفئها إلا

---

[1]- سورة البقرة (١٠٥) .

[2]- سورة البقرة (١٠٩) .

[3]- سورة البقرة (١٢٠) .

اتباع ملتهم ، مع أن رضا كل واحدة منهما مباين لرضا الأخرى ، أي لن ترضى عنك اليهود ولو خليت شأنهم ، حتى تتبع ملتهم ، ولا النصارى ولو تركتـــــهم ودينهم حتى تتبع ملتهم [1] .

هذا العداء الذي أشربت به الدماء ، واختلطت به القلوب ، والحسد الذي تمركز في النفوس ، حتى أنزل الله به القرآن الكريم حرك الأعداء ليكيدوا للإســــــلام وأهله ، ويحولوا بينهم وبين الجهاد في سبيل الله عز وجل وهذا ما سيأتي ببيانه في الفصول التالية وبالله التوفيق .

1- إرشاد العقل السليم (١/١٨٢) .

الفصل الأول

كيد الأعداء ومؤامراتهم وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

كيد الأعداء ومؤامرهم وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

الكيد المكر والخبث ، يقال : كاده يكيده ، كيداً ومكيدة . فهو : ضرب الاحتيال ، وربما قيل للحرب : كيداً . وقد يكون الكيد محموداً كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (١) قيل : أراد بالكيد : العذاب ، والصحيح أنه هو الإملاء والإمهال المؤدي إلى العذاب (٢) .

ويراد به هنا المكر والخبث ، والاحتيال ، وهذا هو فعل الكفار بالإسلام وأهله منذ أن شع نور الإسلام ، فكانت نواة هذا الكيد ، ما خططه المشركون في مكة للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه ، وإماتة دينه في مهده ، ومن ذلك إرسالهم إلى النجاشي ملك الحبشة ، لرد المهاجرين إليهم ، وتحالف قريش ضد بني هاشم وبني عبد المطلب وكتبوا فيه الصحيفة الظالمة ، وما خططوه في دار الندوة تحت توقيع إبليس لاغتياله صلى الله عليه وسلم .

وفي المدينة تآمرت يهود على اغتياله صلى الله عليه وسلم بإلقاء الصخرة عليه من أعلى المترل الذي كان جالساً في ظله . ودسوا له السم في اللحم ، وتآمروا مع أعدائه ضده ، وهكذا لا يخلو عصر من العصور على مر الزمان إلا وللكفار فيه تخطيط ومكيدة للإسلام والمسلمين ولكنا نقفر العصور ونختصر

١-سورة القلم (٤٥) .

٢- الصحاح (٥٣٣/٢) . المفردات (٤٤٥) . القاموس (٤٠٣) .

الزمن لنصل إلى بعض المخططات الكيدية المعاصرة التي أصبحت عائقاً في وجه المسلمين ضد إقامة فريضة الجهاد في سبيل الله عز وجل ومن هذا ما يأتي :

أولاً : الاستشراق والمستشرقون :

الاستشراق يعنى به : دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون من أهل الكتاب بوجه خاص للإسلام والمسلمين ، من شتى الجوانب : عقيدة ، وشريعة ، وثقافة ، وحضارة ، وتاريخا ، ونمطا ، وثروات ، وإمكانيات بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه ، وتضليلهم عنه ، وفرض التبعية للغرب عليهم ، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات ، تدعي العلمية والموضوعية ، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي [1] .

فهو إذاً دراسة تتبعية مستفيضة ، وتقص شامل لأحوال الإسلام والمسلمين ، لا لأجل العلم والاستفادة الدينية من الإسلام ، ولكن لأجل بحث مناطق الضعف ، والقوة ، ونقاط الطعن في الإسلام ، ليفيد منها الغربيون في النيل من الإسلام بتشويهه ، والتشكيك لأهله ، أو بالتصدي له ومقاومته .

والمستشرق : هو من يهتم بهذه الدراسة ، ويقوم بها ، ويدفعهم إلى هذه الدراسة سببين هما :

الأول : أنه لما كان دين الإسلام خاتم الأديان السماوية ، وكان صريحاً في ألفاظه ، واضحاً في عباداته ، عدلاً في أحكامه سمحاً في تعامله ، يخاطب القلوب ويؤثر في النفوس .

١- رؤية إسلامية للاستشراق (٧) .

أقلق ذلك الرهبان — الذين كانت تخضع الجماهير لقيادهم الدينية — خشية أن يفضح كذبهم ويسلبهم الثقة أمام أتباعهم ، فاتجهوا لدراسة الشرق الإسلامي ، بقصد الطعن في الإسلام وتشويه محاسنه ، وتحريف حقائقه ، ليثبتوا لتلك الجماهير أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار وأن المسلمين قوم همج لصوص ، سفاكو دماء ، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية ، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي ، مستغلين في ذلك الخوف من الإسلام والكره لأهله في نفوس الغربيين الذي خلقته الفتوحات الإسلامية الأولى والحروب الصليبية ثم الفتوحات العثمانية في أوربا .

الثاني الاستعمار :

لم ييأس الغربيون من العودة إلى بلاد الشرق واحتلالها ، بعد إخفاقهم في الحروب الصليبية ، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها ، من عقيدة وعادات وأخلاق ، وثروات ؛ ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها ، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها ، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا ، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا ، وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث ، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية ، فنفقد الثقة في أنفسنا ، ونرتمي في أحضان الغرب ، نستجدي منه المقاييس الأخلاقية ، والمباديء العقدية ، وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعاً لا تقوم لنا من بعده قائمة [1] .

١- الاستشراق والمستشرقون (١٥-١٧) . ورؤية إسلامية للاستشراق (٤٠-٤٨و٥٠-٥٣) . أضواء على الثقافة الإسلامية (١٠٥-١٠٦) .

وأما الأهداف التي يقصد المستشرقون تحقيقها فيقول عنها الدكتور مصطفى السباعي ما يلي :

تنقسم أهداف المستشرقين في جملتهم من الدراسات الاستشراقية إلى ثلاثة أقسام :

أ- هدف علمي مشبوه ويهدف إلى :

١-التشكيك بصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومصدرها الالهي ، فجمهورهم ينكر أن يكون الرسول نبياً موحى إليه من عند الله جل شأنه ، ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً ، وبخاصة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى « صرع » كان ينتاب النبي صلى الله عليه وسلم حيناً بعد حين ، ومنهم من يرجعه إلى تخيلات كانت تملأ ذهن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يفسرها بمرض نفسي ، وهكذا ، كأن الله لم يرسل نبياً قبله حتى يصعب عليهم تفسير ظاهرة الوحي ، ولما كانوا كلهم ما بين يهود ومسيحيين يعترفون بأنبياء التوراة ، وهم كانوا أقل شأناً من محمد صلى الله عليه وسلم في التاريخ والتأثير والمبادئ التي نادى بها ، كان إنكارهم لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم تعنتاً مبعثه التعصب الديني الذي يملأ نفوس أكثرهم كرهبان وقسس ومبشرين .

ويتبع ذلك إنكارهم أن يكون القرآن كتاباً منزّلاً عليه من عند الله عز وجل ، وحين يفحمهم ما ورد فيه من حقائق تاريخية عن الأمم الماضية مما يستحيل صدوره عن أمي مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، يزعمون ما زعمه المشركون الجاهليون في عهد الرسول من أنه استمد هذه المعلومات من أناس كانوا يخبرونه

بها ، ويتخبطون في ذلك تخبطاً عجيباً ، وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علمية لم تعرف وتكتشف إلا في هذا العصر ، يرجعون ذلك إلى ذكاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقعون في تخبط أشد غرابة من سابقه .

٢- ويتبع إنكارهم لنبوة الرسول وسماوية القرآن ، إنكارهم أن يكون الإسلام ديناً من عند الله وإنما هو ملفق – عندهم – من الديانتين اليهودية والمسيحية ، وليس لهم في ذلك مستند يؤيده البحث العلمي وإنما هي ادعاءات تستند على بغض نقاط الالتقاء بين الإسلام والدينين السابقين .

ويلاحظ أن المستشرقين اليهود – أمثال جولد تسهير وشاخت – هم أشد حرصاً على ادعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه ، أما المستشرقون المسيحيون فيجرون وراءهم في هذه الدعوى إذ ليس في المسيحية تشريع يستطيعون أن يزعموا تأثر الإسلام به وأخذه منه ، وإنما فيه مبادئ أخلاقية زعموا أنها أثرت في الإسلام ، ودخلت عليه منها ، كأن المفروض في الديانات الإلهية أن تتعارض مبادئها الأخلاقية ، وكأن الذي أوحى بدين هو غير الذي أوحى بدين آخر ، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

٣- التشكيك في صحة الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا المحققون ، ويتذرع هؤلاء المستشرقون بما دخل على الحديث النبوي من وضع ودس ، متجاهلين تلك الجهود التي بذلها علماؤنا لتنقية الحديث الصحيح من غيره ، مستندين إلى قواعد بالغة الدقة في التثبت والتحري ، مما لم يعهد عندهم في ديانتهم عشر معشاره في التأكد من صحة الكتب المقدسة عندهم ، وقد ناقشتهم في ذلك نقاشاً علمياً في كتابي : « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » الذي صدر حديثاً .

والذي حملهم على ركوب متن الشطط في دعواهم هـــذه ، مـــا رأوه في الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا من ثروة فكرية وتشريعية مدهشة وهـــم لا يعتقدون بنبوة الرسول ، فادعوا أن هذا لا يعقل أن يصدر كله عن محمد الأمـــي بل هو عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى ، فالعقدة النفسية عندهم هـــي عدم تصديقهم بنبوة الرسول ، ومنها ينبعث كل تخبطاتهم وأوهامهم .

٤- التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية ، ذلك التشريع الهائل الـــذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور ، لقد سقط في أيديهم حين اطلاعـــهم على عظمته وهم لا يؤمنون بنبوة الرسول ، فلم يجدوا بداً من الزعم بأن هـــذا الفقه العظيم مستمد من الفقه الروماني ، أي أنه مستمد منهم – الغربيين – وقـد بيَّن علماؤنا الباحثون تهافت هذه الدعوى ، وفيما قرره مؤتمر القانون المقـــارن المنعقد بلاهاي من أن الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته وليس مستمداً مـــن أي فقه آخر ، ما يفحم المتعنتين منهم ، ويقنع المنصفين الذين لا يبغون غير الحـــق سبيلاً .

٥- التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي ، لنظل عالة على مصطلحاتهم التي تشعرنا بفضلهم وسلطانهم الأدبي علينا ، وتشـــكيكهم في غنى الأدب العربي ، وإظهاره مجدباً فقيراً لنتجه إلى آدابهم ، وذلك هو الاســتعمار الأدبي الذي يبغونه مع الاستعمار العسكري الذي يرتكبونه .. تلك هي الاهداف العلمية التي يعمل لها أكثرهم أو جمهرتهم الساحقة .

ب- الأهداف الدينية والسياسية ،وتتلخص فيما يلي :

١- تشكيك المسلمين بنبيهم و قرآنهم وشريعتهم وفقههم ، ففي ذلك هدفان ديني واستعماري .

٢- تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري ، يدَّعون أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان ، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها ، لم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري ، وكان في حضارتهم كل النقائص ، وإذا تحدثوا بشيء عن حسناتها – وقليلاً ما يفعلون – يذكرونها على مضض مع انتقاص كبير .

٣- إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم ، وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا ، ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم ، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم ، فيكونوا عبيداً لها ، يجرهم حبها إلى حبهم أو إضعاف روح المقاومة في نفوسهم .

٤- إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام ، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم ، وكذلك يفعلون في البلاد العربية ، يجهدون لمنع اجتماع شملها ووحدة كلمتها بكل ما في أذهانهم من قدرة على تحريف الحقائق ، وتصيُّد الحوادث الفردية في التاريخ ليصنعوا منها تاريخاً جديداً يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربية والتفاهم على الحق والخير بين جماهيرها .

ج – أهداف علمية خالصة : لا يقصد منها إ لا البحث والتمحيص ،

ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم ، وهذا قليل عدده جداً ، وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق ، إما لجهلهم بالأجواء

الإسلامية التاريخية على حقيقتها ، فيحبون أن يتصوروها كما يتصورون مجتمعاتهم ، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفرق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها ، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها .

وهذه الفئة أسلم الفئات الثلاثة في أهدافها ، وأقلها خطراً ، إذ سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم ، ومنهم من يعيش بقلبه وفكره في جو البيئة التي يدرسها ، فيأتي بنتائج تنطبق مع الحق والصدق والواقع ، ولكنهم يلقون عنتاً من أصحاب الهدفين السابقين ، إذ سرعان ما يتهمونهم بالانحراف عن النهج العلمي ، أو الانسياق وراء العاطفة ، أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم[1] .

وحيث إن أهداف المستشرقين سيئة ، ودراساتهم خالية من الموضوعية والإنصاف ، لأنهم إما رجال دين يعنون بتحريف الإسلام وتشويهه ، أو من رجال الاستعمار الذين يعنون ببلبلة بلاد الإسلام في ثقافتها ، وتشويه حضارتها اتسمت بحوثهم بالظواهر التالية :

١- سوء الظن والفهم لكل ما يتصل بالإسلام في أهدافه ومقاصده .

٢- سوء الظن برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم .

٣- الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي على حقيقته ، والحكم عليه من خلال ما يعرفه المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم .

---

١ - الاستشراق والمستشرقون (١٩-٢٥) .

٤- تلاعبهم في النصوص ، إما بإخضاعها للفكرة التي يفرضونها وتطويعها حسب ما يشتهون ، وإما تحريفها تحريفاً مقصوداً وإما بإساءة فهمها حين لا يمكن تحريفها .

٥- تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها ، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه [1] .

أثر المستشرقين في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله :

مما سبق يتضح أن الاستشراق يسعى لخدمة الدين المسيحي والاستعمار الصليبي ، فهو آلة موجهة لهدم الإسلام ومحوه من الوجود ، لذا لم يترك المستشرقون ثغرة على الإسلام إلا ولجوها ، ولا فرصة للنيل منه إلا انتهزوها ، لتحقيق تلك الغاية ، حتى أن القرآن الكريم الذي تكفل المولى عز وجل بحفظه ، لم يتركوا الطعن فيه حقداً وحسداً من عند أنفسهم و رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا .

إلا أن لهم أسلوباً خاصًّا في محاولة إيقاف الجهاد ، وإخماد الروح الجهادية لدى المسلمين ، لأن الجهاد في سبيل الله يقلق مشاعرهم ، ويقوض أمنهم . ولذا فهم يسيرون لإنجاح هذا المقصد في خطين متوازيين ، لا يقل خطر أحدهما على الجهاد عن الآخر . إذ انقسموا إلى صنفين .

الصنف الأول : من يتظاهر بالموضوعية في البحث والإنصاف للإسلام [2] .

أخذ هؤلاء يصفون الإسلام بأنه يدعو إلى التسامح ، وحرية الحياة الدينية لجميع

١- السنة ومكانتها في التشريع (١٨٨) . العصرانيون (١٠٥) مع الاختصار والتصرف .

٢- أقول يتظاهر بالموضوعية والإنصاف للإسلام ، لأنهم ليسوا أهلاً للإنصاف للإسلام ، وإن حاول بعض المفكرين المسلمين الدفاع عن المستشرقين ووصفهم بهذا ، ولرد هذه المحاولة أذكر

الديانات الأخرى وأنه انتشر بالدعوة وحدها و لم ينتشر بالسيف ، فهو دين التسامح والسلم ، لا دين الإكراه والقوة . فقد ترك للمسيحيين كامل حرياتهم الدينية والسياسية في البلدان التي فتحها فعاشوا في ظله آمنين مطمئنين على حياتهم وممتلكاتهم .

وما حصل له من حروب ليست بدافع ديني ، لنشر الإسلام ، وإنما هي حروب اضطر إليها . قال المستشرق أرنولد : « من الخطأ أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام ، والمبلغ لتعاليمه ، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين . فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم ، من أعضاء القبائل العربية المختلفة يدعوهم إلى اعتناق الإسلام ... وهناك أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبليغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم ، تلك البعوث التي يدل

المثال التالي : فممن يوصف بالموضوعية والإنصاف المستشرق الفرنسي : جوستاف لوبون ذلك الملحد المادي ، يقال عنه أنه منصف للإسلام لأنه لا يدين بالمسيحية وإنما هو مادي فكانت كتاباته تتسم بالإنصاف للإسلام وهذا غير صحيح فهو يقول عن شريعة الإسلام : ((عرف محمد صلى الله عليه وسلم كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها ، فدعمها بنفوذه الديني)) . ويقول : ((وشريعة محمد في فصولها غير الدينية هي خلاصة عادات قديمة)) . ويقول : ((والعرب بعد أن جاءهم رجل عظيم جمع كلمتهم المتفرقة بشريعته ، لم يظهر منهم رجل عظيم آخر ليخرجهم من دائرة الشريعة)) . فأي إنصاف في هذا الذي يرى أن الإسلام اختيارات اختارها النبي صلى الله عليه وسلم من حثالة الجاهلية الأولى ويرى الشريعة فيها الديني وغير الديني وينادي برجل يخرج الناس منها . حضارة العرب لجوستاف (٣٨٤و٣٩٤) . الاستشراق والمستشرقون (٦١) . رؤية إسلامية للاستشراق (١٢٧-١٣٨) .

مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجهود التي بذلت كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة ، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة »[1] .

وقال : « ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق ، وإن السيف إذ كان يمتشق أحياناً لتأييد قضية الدين ، فإن الدعوة والإقناع ، وليس القوة والعنف كانا هما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه »[2] .

وقال أيضاً : « ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التي وضعت أساس الإمبراطورية العربية ، لم تكن ثمرة حرب دينية ، قامت في سبيل نشر الإسلام ، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية ، حتى لقد ظن دائماً أن هذا الارتداد كان الغرض الذي يهدف إليه العرب . ومن هنا أخذ المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية »[3] .

وقال جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي : « وسيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب ، وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب الفاتحون المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام ، واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين ، مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي يعرفونها من قبل ... والتاريخ أثبت أن الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن

١- آثار الحرب (٦٨) .

٢- المصدر السابق (٧١) .

٣- المصدر السابق (٦٨) .

آخرهم على ترك الإسلام . و لم ينتشر الإسلام بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول » (١) .

وقال جورج سيل الإنكليزي : « إنه لن يتحرى الأسباب التي من أجلها صادفت شريعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم - ترحيباً لا مثيل له في العالم ، لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده ، إنما ينخدعون انخداعاً » (٢) .

ويتبين من كلام هؤلاء ومن سار في خطهم من المستشرقين أنهم يريدون إبراز الأمور التالية :

أولاً : أن دين الإسلام ، دين مسالم ، يدعو إلى السلم والتسامح ، ويرفض العنف واستخدام القوة .

ثانياً : أنه يترك لأهل الأديان الأخرى الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية ، وإقامة معابدهم (٣) .

١- المصدر السابق (٧٦-٧٧) .

٢- المصدر السابق (٧٧) .

٣- قال الدكتور وهبة الرحيلي : ((وقد ضرب أرنولد أمثلة كثيرة على ظهور طابع التسامح الإسلامي الذي بدا واضحاً في معاملة القبائل العربية أثناء الفتوحات الأولى ، في المعاهدات التي عقدت مع سكان البلاد المفتوحة ، ولمس في اطمئنان المسيحيين على حياتهم وممتلكاتهم وحقوقهم السياسية ، أثناء عيشهم في ظل الحكم الإسلامي ، وتمتعهم بالحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية ، وإقامة كنائسهم في مصر والشام والعراق وغيرها . آثار الحرب (٧١) .

ثالثاً : أن دين الإسلام انتشر بالدعوة ، والبيان ، ولم ينتشر بالقوة والسلاح ، ولما يتمتع به من السهولة والسماحة فقد اعتنقه بعض النصارى بالاختيار .

رابعاً : أن المعارك التي خاضها المسلمون ، لم تكن ذات هدف ديني ، لنشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله . وإنما كانت حروب اضطر إليها المسلمون ، إما لصد العدوان عن بلادهم ، وإما يقصدون بها التوسع السياسي والجغرافي ، ومن يربطها بهدف نشر الإسلام فهو مخطيء .

وهنا يصلون إلى النتيجة التي يقصدونها ، وهي : تعطيل جهاد البعث والإرسال ، لأنه مخالف لتلك الحقائق . إذ لا حاجة فيه لدين الإسلام ، دين التسامح والسلام الذي يعتمد في انتشاره على الدعوة والبيان ، لا على العنف والسنان . ويعطي الناس حرياتهم في الملكية وممارسة الأديان .

إذاً فهذا الجهاد – في رأيهم – من الظلم الذي يأباه الإسلام لما فيه من الاعتداء على النفس بالقتل ، والأموال بالسلب ، الذي لا مبرر له . هكذا يريدون ، ولأجله يكيدون وما كيد الظالمين إلا في تباب .

الصنف الثاني : المتعصبون للمسيحية المغرضون للإسلام وأهله أخذ هؤلاء يلصقون بالإسلام التهم ، ويصفونه بالعنف والقسوة وسفك الدماء ، وأن المسلمين همج سفاكو دماء ، ولم ينتشر الإسلام إلا بالسيف وإكراه الناس عليه . وأن كلمة الجهاد تعني إبادة الكفار والحرب الضروس [1]. يقول المستشرق الفرنسي كليمون : « إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس ، وأخذ يفتك

١- الاستشراق والمستشرقون (١٦) . آثار الحرب (٧٦) . أجنحة المكر الثلاثة (٢٦٧) .

بهم فتكاً ذريعاً ، بل هي مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ، وما قبر محمد – صلى الله عليه وسلم – إلا عمود كهربائي ، يبعث على الجنون في رؤوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي »[1] . ويقول المستشرق كولي : « برز في الشرق عدو جديد هو الإسلام ، الذي أسس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب ، ولقد وضع محمد – صلى الله عليه وسلم – السيف في أيدي الذين يتبعونه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب »[2].

فالمجاهدون في نظر هؤلاء المستشرقين قوم بغاة متعصبون ، دائماً يحملون أسلحتهم تقطر بالدماء . مولعون بحب القتال ، بلا هدف سام ولا غاية نبيلة وإنما لقصد التسلط والفجور والسلب هكذا يصفون المسلمين في جهادهم . يريدون من وراء هذا الوصف المشين للإسلام وأهله أمرين :

الأمر الأول : تشويه الإسلام لدى شعوبهم وتنفيرهم منه ، وليرتكز في أذهانهم ظلم المسلمين وأنهم قوم خونة قتلة لا يؤمن لهم جانب . فيكرهون الإسلام وأهله ، وهذا كفيل بالحد من انتشار الإسلام في بلدانهم .

الأمر الثاني : إزعاج المسلمين بهذه الشبه والافتراءات الباطلة ، لاستغلال ردود الفعل عند بعض المسلمين الذين يتزلقون إلى بعض ما يريد الغزاة ، وهم يرون أنهم يدافعون عن الإسلام[3].

١- العصرانيون (١٠٤) .

٢ - المرجع السابق (١١١) .

٣- أجنحة المكر الثلاثة (٢٦٧) .

فكان الصنف الأول الذي يقول بتسامح الإسلام وأنه انتشر بـالدعوة وأن الحروب التي خاضها كانت ضرورة . كالمخرج من مآزق التهم والتشويه التي قال بها الصنف الثاني . مما جعل بعض العلماء والكتاب المسلمين يصفوهم بالإنصاف للإسلام ويقتفون أثرهم حتى قالوا بحصر الجهاد في الدفاع فقط [1].

وبهذين الصنفين استطاع المستشرقون أن يوجدوا من المسلمين من يقول إن الجهاد المشروع هو جهاد الدفاع فقط ، وهذا ما يريدون ، وهو أن يستدرجوا المسلمين إلى هذه المقالة ، ليلغوا بذلك جزءاً مهما من مفهوم الجهاد في سبيل الله ، الذي دلت عليه النصوص الإسلامية ، ومفاهيم المسلمين الأولين ، ودلت عليه وقائع الفتوحات الإسلامية العظمى التي طبقت هذه المفاهيم [2]

١ - سيأتي تفصيل هذا والرد عليه في الباب الخامس إن شاء الله .

٢ - أجنحة المكر الثلاثة (٢٦٧) .

ثانيا الدعوة إلى وحدة الأديان :

تظهر في عالم اليوم دعوة ماكرة ، يراد بها هدم الإسلام ومحو الهوية المسلمة الحقة تحت شعار وحدة الأديان أي : دين الإسلام الحق ، ودين اليهود ودين النصارى المحرفين أو المنسوخين ، لأنه لا يوجد على وجه الأرض بعد ظهور الإسلام دين حق سواه ، فهو خاتم الأديان وناسخها قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾(٣). وقال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(٤) . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم

١ــ سورة آل عمران (٨٥) .

٢- سورة آل عمران (٢٠) .

٣- سورة المائدة (٤٨).

٤- سورة البقرة (٧٩).

بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١). وغير هذا كثير من النصوص القرآنية الكريمة التي تثبت أن التوراة والإنجيل الكتابين الذين تعتمد عليهما اليهودية والنصرانية قد اعتراهما التحريف والتبديل ، وقد امتدت إليهما أيدي فريق من اليهود والنصارى بالتغيير حسب ماهوى أنفسهم (٢). مما يثبت تحريف الديانتين في أصليهما ، ومالم يحرف فقد جاء القرآن الكريم ناسخاً له ومهيمناً عليه ، وبهذا تثبت أن دين الإسلام الدين الحق الذي لا يقبل الله العبادة بغيره كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ (٣) . أي الدين المرضي الصحيح (٤).

وهذا أصل ثابت في عقيدة كل مسلم يؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبياً رسولاً كما أراد الله منه . بل إنه ثابت في أصول التوراة والإنجيل الصحيحة كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (٥). وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

١- سورة آل عمران (٧٨) .

٢- انظر: مختصر تفسير البغوي (١/٣٣و ١٢٨) .

٣- سورة آل عمران (١٩) .

٤- مختصر تفسير البغوي (١/١١٢) .

٥- سورة الأعراف (١٥٧) .

جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].

ومع هذا تروج هذه الدعوة الباطلة الآثمة ، دعوة وحدة الأديان بمسميات مختلفة « وحدة الأديان » « زمالة الأديان » « التقارب بين الأديان » تلك الشعارات الخبيثة في جوهرها الماكرة في هدفها ، إذ يكيد بها أعداء الإسلام لإيقاف الزحف الإسلامي ، وإخماد الروح الجهادية ، وقمع المجاهدين بتخدير مشاعر المسلمين تجاه اليهود والنصارى ، ونقض الثوابت تحت هذه الشعارات المضللة . وإلا فكيف يجمع بين ناسخ و منسوخه ؟ . وكيف يقرب بين حق واضح ناصع وبين باطل متهالك ؟ . ويزامل بين الضد وضده ليصبح الإسلام والكفر في قالب واحد لا فوارق بينهما ، ويشيد المسجد الذي يرفع منه الأذان فتنطلق من مآذنه أشهد أن إلا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله مع كل صلاة ،بجانب الكنيسة التي يعبد فيها غير الله ، ويعلن منها الشرك والتحريف بجامع أنها بيوت الله سبحانك هذا بهتان عظيم يقول ابن تيمية رحمه الله حينما سئل عن الكنائس والبيع هل يقال : أنها بيوت الله ؟ . : « ليست بيوت الله ، وإنما بيوت الله المساجد ، بل هي بيوت يكفر فيها بالله ، وإن كان قد يذكر فيها فالبيوت بمترلة أهلها ، وأهلها كفار ، فهي بيوت عبادة الكفار »[2] .

١- سورة آل عمران (٨١) .

٢- مجموع الفتاوى (١٢٦/٢٢) .

ولكن الكفار لا يكلون ولا يملون من المكر للإسلام وتدبير الحيل للوقيعة بالمسلمين ليصلوا بهم إلى الردة عن دينهم ويعودوا بهم إلى الكفر كما أخبرنا المولى جل وعلا بهدفهم هذا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ ﴾ (٢). وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ ﴾ (٣).

ولذا عقدوا لهذه الدعوة الندوات والمحاضرات ، وأقاموا لها المؤتمرات التي منها المؤتمر المنعقد في موسكو تحت عنوان « الإسلام والتفاهم بين الأديان والشعوب في العالم المتغير » في الفترة ٢٦-٢٨ / مايو / ١٩٩٥م . تحت رعاية منظمة اليونسكو ومشاركة العديد من الهيئات الدينية ، وأوصى المؤتمر بدعوة المسلمين في العالم عامة . وفي روسيا الاتحادية ، ودول الكومنولث على وجه الخصوص لمواصلة دورهم الحضاري الفاعل ، والتفاعل الإيجابي مع أصحاب الديانات الأخرى ، وتحقيق السلام الاجتماعي والتضامن الوطني في بلدانهم »(٤).

ومن قبل هذا نجح أصحاب هذه الدعوة حينما تبناها جمع من علماء المسلمين وكتابهم ينادون بها ويقرون مضامينها يتقدمهم في هذا جمال الدين

١- سورة البقرة (٢١٧) .

٢- سورة النساء (٨٩).

٣- سورة البقرة (١٠٩) .

٤- العصرانيون (٣٠٧) .

الأفغاني الذي يقول في خاطراته بعنوان (نظرية الوحدة) : « وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية ، وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني ... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها وأنه بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة ، وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً وأحبر رسائل للدعوة كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت في أسباب اختلاف أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف»[1].

وتبعه في هذا تلميذه محمد عبده الذي اتصل برجالات الدين النصراني وتفاوض معهم بإيعاز من جمال الدين الأفغاني وألف جمعية سرية في بيروت إثر عودته إليها من أوربا بعد تعطيل مجلة العروة الوثقى وكان هدف هذه الجمعية التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة وإزالة الشقاق بين أهلها وإحلال التعاون بدل الفرقة والخصام [2]. وصرح بها الأستاذ مصطفى المراغي في رسالته التي بعث بها إلى مؤتمر الأديان العالمي حيث قال : « اقتلع الإسلام جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات السماوية الأخرى ، وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري ، ولم يمانع أن تعايش الأديان جنباً إلى جنب »[3] .

١- الولاء والبراء (٣٤٦) . وأهمية الجهاد (٤٥٠) .

٢ - أهمية الجهاد (٤٥١) العصرانيون (٣٠٦-٣٠٧) .

٣- آثار الحرب (٦٣) .

أثر هذه الدعوة في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله :

إن هذه الدعوة في حقيقتها اعتراف بصحة دين اليهود ودين النصارى ، وأن أصحابهما يعبدون الله على حق كالمسلمين في عبادتهم وصحة دينهم فكل هؤلاء الأديان الثلاثة أديان سماوية صحيحة بأيهم عُبِدَ اللهُ كان حقاً . يقول الدكتور عبدالعزيز كامل : « ونحن في منطقة الشرق الأوسط ، نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى ، وأقولها واضحة ، يستوي في هذا الإسلام والمسيحية واليهودية ، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة في الفكر المسيحي يختم بإله واحد هذه منطقة توحيد ، والصور تختلف ، وتفسيرها الفلسفي يختلف »[1]. وفي هذا الاعتراف قتل للروح الجهادية واستئصال لأثرها من النفوس ، لأنه لم يعد هناك فوارق بين الإسلام والكفر ، والحق والباطل ، والمعروف والمنكر ، فعلام يكون الجهاد إذن عند من يتأثر بهذه الدعوة الزائفة .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : « إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء ، واتخاذهم أولياء شيء آخر ، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين ، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته ، وينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة ، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة .

١- العصرانيون (٣٠٨) .

ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب ، بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة وأن هذا شأن ثابت لهم ،وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه ، و أنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم ،وأنهم مصرون على الحرب للإسلام والجماعة المسلمة . وسذاجة أي سذاجة وغفلة أي غفلة أن تظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين ! فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين ! ويغفل السذج منا عن هذه الحقائق ، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب للوقوف في وجه المادية والإلحاد – بوصفنا جميعاً أهل دين – ناسين تعليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله . فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [1]. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة ، وكانوا لهم ردءاً . وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام ، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم ، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان ... ثم يظهر بيننا من يظن – في بعد عن تقريرات القرآن الجازم – أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر . ندفع به المادية الإلحادية عن الدين .

إن هؤلاء لا يقرأون القرآن ، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن . إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ، ولا

١- سورة النساء (٥١) .

بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع في الأرض في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم وغداً وبعد غدٍ كما وقفت له بالأمس . الموقف الذي لا يمكن تبديله لأنه الموقف الطبيعي الوحيد .

إن بعض من لا يقرأون القرآن ، ولا يعرفون حقيقة الإسلام وبعض المخدوعين أيضا يتصورون أن الدين كله دين كما أن الإلحاد كله إلحاد ... ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ، ولا في حس المسلم الذي يتذوق الإسلام . ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة وحركة بهذه العقيدة لإقامة النظام الإسلامي .

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد الدين هو الإسلام ، وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [1] . ويقول : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [2] . وبعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من أحد إلا هذا الإسلام [3] .

١- سورة آل عمران (١٩) .

٢- سورة آل عمران (٨٥) .

٣- في ظلال القرآن (٢/٩٠٩-٩١٥) بتصرف .

الفصل الثاني

قوانينهم الوضعية ومعاهداتهم المعاصرة

قوانين الأعداء الوضعية ومعاهداقم المعاصرة

جاءت الشريعة الإسلامية رسالة عامة لجميع الأمم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم و أوطانهم من لدن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما قال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]. فنادى بها صلى الله عليه وسلم صريحةً واضحةً عادلةً سمحةً ، وجاهد لأجلها ، وكذلك أصحابه من بعده حتى سادوا العالم وتغلبوا على أعظم إمبراطوريتين الفارسية والرومانية اللتين كانتا تهيمنان على العالم وقتئذٍ .

وأقام المسلمون حضارة إسلامية عظيمة عاش العالم في ظلها الوارف ، وتنعم بخيراتها العميمة وتمتع بعدالتها العامة ، وحريتها الصادقة ، لأنها مبنية على أسس متينة ، مبنية على أساس التقوى والعبودية لله عز وجل [2] . وعاشت البشرية أزهى العصور ، ولكن هذا لا يرضي أعداء الإسلام الذين تغلل الحقد في نفوسهم فكان من الطبيعي أن يواجه الإسلام تحديات عاتية ظالمة ، كالتحديات الوثنية واليهودية والنصرانية والمجوسية .

---

[1]- سورة سبأ (٢٨) .

[2]- انظر : النظام الدولي الجديد (١٦) .

مع ما يحصل من تحديات داخلية [1] تعرضت لها الأمــة الإســلامية إلا أن الإسلام أثبت قدرته على البقاء والاستمرار والتمدد وظل محتفظاً بذاتيته الخاصــة الواضحة عن غيره من الأديان [2] .

وظل شامخاً يسود العالم بنظامه العادل ، ولكن عندما بدأت عقيدة المسلمين تضعف وبدأ الزيغ يدخل في نفوسهم بسبب الدواخل عليهم والمكائد التي تـزرع في صفوفهم ، وصاحبها فتور من المسلمين وتخل عن المقومات الروحية والماديــة اللازمة لقيادة المسيرة ، استدارت الرحى وحدث التغير للأمة الإسلامية الــذي قادها إلى الضعف مصادقاً لقوله تبارك وتعــالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [3] . فضعفت الأمة الإسلامية وفقدت زمــام القيادة ، وانتقلت إلى الحضارة الغربية [4] .

وعندما ضعفت الأمة الإسلامية ، وفقدت قيادتها ، وجد الغربيون الفرصــة سانحة لهم ، فأخذت دول أوربا تتنافس في استعمار العالم الإسلامي عن طريــق الاحتلال العسكري ، والاستعمار الاقتصادي عن طريق الشــركات ، وربــط العملات المحلية بعملات الدولة المستعمرة ، والقــروض والمســاعدات وإقامــة المشاريع والمعاهدات غير المتكافئة بين الدولة المُستَعمِرة القويــة وبــين الدولــة

1- كتحدي وثنية قريش في مكة ، وتحدي أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكــذا المنــافقين في المدينة .

2- انظر : حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة د.جميل المصري (٤١) .

3- سورة الرعد (١١) .

4- النظام الدولي الجديد (١٦) .

المُستعمَرة الضعيفة والحماية والانتداب والوصاية . ولا شك أن المعاهدات تكون في صالح الدولة القوية إذ هي تفرض ما تريد [1] .

وحيث إن دول أوربا قد لاقت الهزائم في الحروب الصليبية على أيدي المسلمين ، وتعلم أن دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا تقيده حدود جغرافية ولا يرتبط بطائفة عنصرية ، وإنما يخاطب البشرية جمعاء على اختلاف بلدانها ، ولغاتها ، وتباعد أقطارها ويطالبها بالإدانة له والخضوع لأحكامه والإذعان لأوامره .

كان هذا يقلقها ويقوض أمنها ، مع ما تحسه من تمييز عنصري وتفاوت فيما بينها من القوة والعتاد ، فاتجهت إلى أسلوب استعماري جديد ماكر يمكنها من تمددها الاستعماري للبلاد الإسلامية ، ويضمن لها السلامة من شوكة الجهاد يقول الدكتور جميل عبدالله المصري : " وظهر الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) بأساليب جديدة بالابتعاد عن العنف ، والقوة السافرة ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولجأ إلى التلون حسب الملابسات الزمنية ، والأوضاع الاجتماعية ، للبلاد التي يزحف إليها ، معتمداً على الخديعة ، والدس ، والتآمر ، لتحقيق مآربه ، وتسلم زعامة الاستعمار في هذه الفترة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي متبعاً وسائل العمل غير المباشرة وذلك :

- عن طريق غزو الشعوب والسيطرة عليها من الداخل . فاستخدم الانقلابات العسكرية والدعوة إلى الاشتراكية . بل إن أمريكا عملت على إيجاد أنظمة حكم تعارضها معارضة معتدلة .

---

[1]- حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة (٨٩) بتصرف .

- وعن طريق التكتلات الاقتصادية الاحتكارية .

- وعن طريق الحرب الباردة .

فلجأ إلى :

١- إقامة القواعد العسكرية في البلاد ، تحت ستار المعاهدات غير المتكافئة ، بحجة الدفاع عن السلام العالمي ، أو للحماية . ولا تلبث البلاد أن تجد نفسها مكبلة بتلك القواعد التي ينطلق منها العدوان في أي وقت .

٢- عقد الأحلاف وجر البلاد إليها ، وعن طريقها تحرك البلاد الضعيفة الداخلة في نطاق هذه الأحلاف حسب هواها .

٣- فرض السيطرة الاقتصادية عن طريق إدخال البلاد في نطاق عملة البلد المستعمر ، وما يستلزمه ذلك من خلق جهاز مصرفي يحقق التبعية للبلد المستعمر .

٤- تقديم المعونات المشروطة للبلاد لتبقى مكبلة بمحض إرادها لما يريده الاستعمار الجديد من ضغط وإزهاق .

٥- عرض المساعدات الفنية غير البريئة ، عن طريق استغلال الاستعمار الجديد لحاجة البلاد النامية إلى المساعدات . فيبدأ بمديد المساعدات الفنية ، حتى إذا ما اطمأنت البلاد المحتاجة إلى تلك المساعدات ورتبت حياها على ذلك يفاجئها الاستعمار بطلباته ، أو يوقف تلك المساعدات ، أو يعرقلها ، وعندئذٍ لا تجد الضحية من سبيل غير الاستسلام لهذا الاستعمار الجديد .

٦- إقامة الدولة اليهودية الصهيونية في فلسطين ، وإمدادها بالرجال من روسيا وبالأموال والأسلحة من أمريكا ، لتبقى الذراع الطويلة التي تهدد العالم الإسلامي ، فلا تجد الأقطار الإسلامية مناصاً من أن تلجأ إلى أحد المعسكرين ، وهما وجهان لعملة واحدة [1] .

ولإرساء دعائم هذا الاستعمار ، وقمع الجهاد والمجاهدين أصدروا القوانين الوضعية التي تحقق لهم أهدافهم ، ويتحركون من منطلقها تحت مظلة شرعية كما يزعمون ، بمسمى حفظ الأمن والسلام الدوليين .

أولاً : جاء في ميثاق هيئة الأمم المتحدة ما يلي :

المادة ١- مقاصد الأمم المتحدة هي :

١- حفظ السلم والأمن الدولي ، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم ولإزالتها ، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم ، وتتذرع بالوسائل السلمية ، وفقا لمباديء العدل والقانون الدولي لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو بالتسوية .

---

[1]- المرجع السابق (٩٢-٩٣) باختصار . وانظر : الصهيونية والقضية الفلسطينية (٥٤-٥٧) و (١٦٧-١٦٩) . النظام الدولي الجديد (٧٠٨-٧٠٩) .

٢- إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب،وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام[١].

المادة ١١ - ١- للجمعية العامة أن تنظر في المباديء العامة للتعاون في حفظ السلم والأمن الدولي ، ويدخل في ذلك المباديء المتعلقة بترع السلاح وتنظيم التسلح ...

المادة ٤٢ - إذا رأى مجلس الأمن أن التدابير المنصوص عليها في المادة ٤١ لا تفي بالغرض أو ثبت أنها لم تف به . جاز له أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي أو لإعادته إلى نصابه . ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر . والعمليات الأخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء هيئة الأمم [٢] .

ثانياً : جاء في الإعلان العام لحقوق الإنسان ما يلي :

المادة ٢- لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون أي تمييز، مثلاً من حيث الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو رأي آخر أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر ، ودون التفرقة بين الرجال والنساء .

المادة ١٣- لكل فرد حرية التنقل واختيار محل الإقامة داخل كل دولة .

١- وثائق المنظمات الدولية والإسلامية والعربية (٣٦) . المنظمات الدولية (٣٠) . المنظمات الدولية الإسلامية والتنظيم الدولي (١٣٩) . هيئة الأمم المتحدة (٤٣-٤٤) .

٢- وثائق المنظمات الدولية (٣٩) و (٤٧) . وانظر : المنظمات الدولية (٥١) .

المادة ١٦- ١- للرجل والمرأة متى بلغ سن الزواج حق التزويج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الجنسية أو الدين ، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله .

المادة ١٨- لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين ، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ، ومراعاتها سواء كان سراً أو مع الجماعة .

المادة ٢٦ — ٢- يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماءً كاملاً ، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية ... [1] .

إن هذه القوانين الوضعية التي قننها أعداء الإسلام تضع العراقيل أمام الجهاد في سبيل الله عز وجل كما يأتي :

١- أنها تعمل على إذابة الهوية المسلمة بجعل الإنسان في مستوى واحد . ولا ينظر إلى التفرقة الدينية كما في المادتين الثانية والسادسة عشر لحقوق الإنسان . التي تجيز لبني الإنسان التزاوج بينهم والتمتع بكامل الحريات ولا يفرق بين جنس وجنس ولا ديانة وأخرى . مما يبيح للمسلم الزواج بالكافرة والعكس فتكون بين المسلمين والكفار المصاهرة وتنشأ علاقات المودة والإخاء .

---

[1]- هيئة الأمم المتحدة (١٣٨-١٤٢) . وثائق المنظمات الدولية (٨٨-٩١) . وانظر : المنظمات الدولية (٦٣) .

٢- أنها تبيح للإنسان الحرية في الدين فيختار ما يشاء ويدعو إلى عقيدته بكل حرية مما يفتح الباب أمام الكفار للتبشير والدعوة إلى معتقداتهم في بلاد الإسلام دون استنكار من المسلمين ، لأنهم أحرار .

بل للإنسان الحرية في تغيير ديانته فلو ارتد مسلم إلى الكفر فلا يلام على ذلك من منطلق هذه الحرية .

٣- توجيه التربية بما يخدم هدفهم في تنمية روح التفاهم والتسامح بين الأديان ، وخلق الصداقة بين الشعوب لكي لا يصبح للإسلام والمسلمين تميزهم الخاص ، بل إن المسلم يعيش بجانب الكافر وكأنهم على ملة واحدة من المحبة والصداقة .

وتلك أمور كفيلة بهدم روح الجهاد ومحوها من النفوس .

٤- أن هذه القوانين تكوّن اتحاد دولي هم فيه أصحاب الرأي المعتبر والقرار النافذ ، وأن لهم الحق في نزع السلاح ممن شاءوا وقمع من شاءوا بالقوة والسلاح ، وتأييد من شاءوا بحجة حفظ الأمن والسلم الدولي ، تلك الحجة التي يلعبون بها حسبما تمليه أهواؤهم .

ومما يصدق هذا المؤتمر الذي عقد في سويسرا باسم « المؤتمر الدولي للقيادات المسيحية الصهيونية المؤيدة لإسرائيل » في الفترة ٢٧-٢٩ أغسطس آب ١٩٨٥م وكان عدد أعضائه (٥٨٩) قدموا من سبع وعشرين دولة من العالم وأصدروا بيان من مقدمة ومباديء وقرارات جاء فيها :

أولاً المقدمة :

نحن الوفود المجتمعين هنا من دول مختلفة ونمثل كنائس متنوعة — جئنا معاً للصلاة ، ولإرضاء الرب ، ولكي نعبر عن ديننا الكبير وشغفنا العظيم بإسرائيل الشعب والأرض والعقيدة ، ولكي نعبر عن التضامن معها ، وإننا ندرك اليوم ، وبعد المعاناة المريرة التي تعرض لها اليهود ، أنهم لا يزالون يواجهون قوى حاقدة ومدمرة مثل التي تعرضوا لها في الماضي . وإننا بصفتنا مسيحيين ندرك أن الكنيسة أيضا لم تنصف اليهود طوال تاريخ معاناتهم واضطهادهم ، إننا نتواجد في أوربا بعد مرور أربعين عاما على الاضطهاد لليهود لكي نعبر عن تأييدنا لإسرائيل ، ونتحدث عن الدولة التي تم إعداد ميلادها في مدينة بال . ونقول : أبداً ... لا رجعة للقوى التي يمكن أن تتسبب في استرجاع أو تكرار اضطهاد جديد ضد الشعب اليهودي .

ثانياً المباديء :

١- نهنيء دولة إسرائيل ومواطنيها على الإنجازات العديدة التي تحققت في فترة وجيزة تقل عن أربعة عقود .

- نحضكم على أن تكونوا أقوياء ، وأن تستلهموا قدرة الله في مواجهة ما يعترضكم من عقبات .

- نناشدكم بحب أن تحاولوا تحقيق العديد مما تصبون إليه .

- عليكم أن تدركوا أن يد الله وحدها هي التي ساعدتكم على استعادة الأرض وجمعتكم من منفاكم طبقاً للنبوءات المقدسة .

- أخيراً ندعو كافة اليهود في جميع أنحاء العالم للهجرة إلى إسرائيل كما ندعو كل مسيحي أن يشجع ويدعم أصدقاءه اليهود في خطواتهم الحرة التي يستلهمونها من الله .

٢- نخاطب إخواننا المسيحيين :

- علينا أن نخلص أنفسنا من أي شكل من أشكال معاداة السامية مستتراً كان أو معلناً .

- وأن نؤيد الشعب اليهودي بالحب القلبي والإخلاص والعمل في ضوء الكتاب المقدس ، وفي ضوء العهد الذي قطعه الرب مع شعبه .

٣- نناشد الدول صديقة إسرائيل التي تتراوح سياساتها ما بين التأييد الحقيقي واعتبارات الملائمة السياسية أن تنقل سفاراتها إلى القدس ، وذلك للتأكيد على الرابطة التاريخية بين الشعب اليهودي والمدينة التي وهبها الله له .

وأن تعترف هذه الدول بيهودا والسامرة « الضفة الغربية » جزءاً من إسرائيل .

٤- نحذر الدول المعادية لإسرائيل بما فيها الدول العربية ، أن تتوقف عن عرقلة السلام في الشرق الأوسط .

ونحث الاتحاد السوفيتي أن يسمح دون تأخير لكل اليهود السوفيت بالهجرة إلى إسرائيل .

٥- نطلب من الدول التي لم تعترف بإسرائيل بعد أن تسارع إلى الاعتراف بها دبلوماسياً ، وتأييدها دولياً ، وأن تمتنع عن مقاطعة إسرائيل .

٦- أن نصلي من أجل أن يجيء ذلك اليوم الذي يعيش فيه شعب إسرائيل وشعوب المنطقة في سلام كما وعد الله .

ثالثاً القرارات :

١- يجب أن تمتد إسرائيل ويتم قبولها دولياً .

٢- يجب على الدول كافة الاعتراف بإسرائيل .

٣- يجب على الدول كلها أن تعترف بأن ((يهودا والسامرة)) تتبعان إسرائيل .

٤- يجب على الدول كلها أن تنقل سفاراتها إلى القدس .

٥- ينبغي على الحكومات كلها أن تمتنع عن إيواء الإرهابيين .

٦- نعلن شجبنا معاداة السامية في صورها كافة .

٧- إننا ونحن نتذكر جميع صور الوحشية التي تعرض لها اليهود في الماضي نقرر ألا رجعة لهذه الأمور مطلقاً .

٨- نشجع توطين المهاجرين في إسرائيل ، ونؤكد ضرورة توفير العدالة للاجئين اليهود .

٩- نلتزم بدعم إسرائيل اقتصادياً ، وننشيء صندوق استثمار دولي لمساعدتها .

١٠- يجب على الدول كافة أن تتوقف عن الخضوع لمقاطعة إسرائيل .

١١- نناشد المجلس المسيحي العالمي أن يبحث في الرابطة المقدسة بين الأرض والشعب .

١٢- نصلي من أجل مملكة الرب القادمة [١] .

إنها المؤامرة الحاقدة ضد الإسلام وأهله ، ولأجل إيقاف الجهاد في سبيل الله عز وجل وجعله من الظلم والعدوان الذي يهدد الأمن والسلم الدولي وهذا قليل من كثير ولكن ليس القصد من هذا الفصل تقصي تلك القوانين والمعاهدات الوضعية ، التي تعوق المجاهدين عن القيام بالجهاد وإنما الهدف إبراز بعض النماذج ويقاس عليها ما يماثلها فأعداء الإسلام في كل يوم يعدون المكائد العدوانية للإسلام وأهله ولكن الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد ولن يفلح أعداء الله .

---

[١]- قبل الكارثة نذير ونفير (٢٤٧-٢٥٠) . بتصرف .

الفصل الثالث

قوتهم وتفوقهم في العدد والعدة

قوة الأعداء وتفوقهم في العدد والعدة

تكمن قوة الأمة أو الدولة في قوة طاقتها البشرية ، وقوتها الاقتصادية ، وعدتها الحربية :

فالطاقة البشرية : منها العلماء والمفكرون والساسة والقادة ، والمقاتلون ، والمخططون الحربيون ، والتجار والمزارعون ، ولكل طائفة من هؤلاء اختصاصها الذي لا غنى لأمة من الأمم عنه ، إذ نقصه يسبب فجوة كبيرة ، وثغرة ضعف في الأمة ، وباجتماعهم في المجتمع يشكلون قوة متماسكة كاملة ، فالطاقة البشرية مصدر قوة عظيمة ، ولا سيما حينما يكون عدد الجنود كثير فإنه يرعب الأعداء وإلى هذا جاءت الإشارة في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ ﴾ [1] . فقد خاف هؤلاء عدوهم لكثرته عليهم وقلتهم أمامه [2] .

وأما الاقتصاد : فهو المدد للقوة البشرية منه الغذاء والكساء والمساكن والمراكب وسائر أمور العيش . ومنه تشترى العدة العسكرية بكامل أنواعها من برية وبحرية وجوية وفضائية وغير ذلك .

ولذا فقد أصبح الاقتصاد في العصر الحديث سلاحاً بحد ذاته توجه إليه الضربات العسكرية إما عن طريق الحصار لمنع العدو من الحصول على حاجاته من السلع الضرورية والمواد الأولية ، بواسطة إحكام الحصار البحري بالسفن

---

[1]- سورة البقرة (٢٤٩) .

[2]- انظر : المحرر الوجيز (١/٣٣٦) . تفسير ابن كثير (١/٣١٠) .

والغواصات الحربية . وإما عن طريق الهجوم وضرب المنشآت الاقتصادية والتخريب المنظم لإمدادات العدو وطاقته الإنتاجية [1] .

فالاقتصاد مصدر من مصادر القوة وكثير ما يأتي الجهاد في سبيل الله بالمال مقروناً بالجهاد بالنفس في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [2] .

وأما العدة الحربية : فهي القوة العسكرية التي عليها الاعتماد في خوض المعارك الحربية سواء الجنود المقاتلين أو السلاح المستخدم ، إلا أن المقصود هنا هو السلاح الذي يحسم الموقف أثناء القتال ، ولذا فقد أخذت الدول الكبرى في التسابق بالتسلح – في وقت تدعو فيه إلى نزع السلاح عن طريق مؤتمر نزع السلاح المكون من ثماني عشرة دولة ، تحت مصادقة الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، وكانت بداية أعماله في ١٥ مارس ١٩٦٢م [3] . – فسخروا الدراسات والابتكار لإنتاج الأسلحة حتى نتج عن هذا صنوفٌ من الأسلحة الباهرة كالطائرات والقاذفات والصواريخ والمدافع المضادة للطيران والراجمات والأساطيل الحربية ، والدبابات والمدرعات ، والأسلحة الرشاشة ، والسفن

---

[1]- بحوث ودراسات عسكرية للعميد ركن يوسف السلوم (٦٤-٦٥) بتصرف .

[2]- سورة الحجرات (١٥) .

[3]- انظر : المنظمات الدولية (٥١) . معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية (٢٤-٢٦) . وثائق المنظمات الدولية (٣٩) . والدول الثماني عشرة هي : بلغاريا وكندا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا وإيطاليا وبولندا ورومانيا والاتحاد السوفيتي والمملكة المتحدة ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والبرازيل وبورما والهند والمكسيك ونيجيريا والسويد والجمهورية العربية المتحدة .

البحرية الحربية أنواعٌ من الأسلحة لكافة الاستخدامات البحرية والجوية والبرية . بل تطور الأمر حتى ظهرت الأسلحة النووية والفضائية والحيوية ، التي تدمر الأخضر واليابس ، ولا تفرق بين إنسان ولا حيوان ، ولا نبات بل تذيب الصخور وتحرق التراب وتخلف وراءها الآثار الضارة على مر العصور ، ومن أمثلته ما حصل لمدينتيْ « هيروشيما » و « ناجازاكي » اليابانيتين اللتين ألقت عليهما الولايات المتحدة الأمريكية القنبلتين الذريتين في عام ١٩٤٥م [1] .

ومما لا شك فيه أن هذه الأسلحة يملكها الكفار ويتنافسون بها في الميادين العسكرية والمناورات التجريبية .

وأما المسلمون فلا يملكون منها إلا ما يشترونه من الكفار ، ومعظمه من الأسلحة التقليدية لحاجة الدفاع ، وأما الأسلحة المطورة فلا يملكون منها إلا العدد المعدود لحظر بيعه عليهم .

بل إن الكفار يفوقون المسلمين في كل مقومات القوة المذكورة سواء الطاقة البشرية أو الاقتصادية أو العدة الحربية ، وحتى المواقع الجغرافية التي لها تأثير في القوة العسكرية .

ولا ريب أن هذا مما يعوق المسلمين عن القيام بالجهاد في سبيل الله عز وجل ولا سيما في هذا العصر الذي تقاربت فيه المسافات ، و اتصلت المجتمعات ببعضها وتشابكت المصالح ، وتوافرت فيه وسائل الإعلام من صحافة ومذياع وتلفاز واتصالات سلكية ولا سلكية وأقمار صناعية مما يكشف الحقائق ، ويجلي

---

[1]- انظر : أسلحة الحرب النووية (٥٣-٧٦) . و (١١١-١٢٦) . أسلحة الحرب الحيوية (١٩-٢٩) . الحرب في الفضاء الفصل الخامس (٢١٣-٢٦٣) . وفي هذه الكتب لمحات تاريخية لتلك الأسلحة المعنون بها وكيفية استخدامها وتطورها بما يفوق الخيال .

السرائر حتى أصبح كل قطر يعلم ما عند الثاني من القوة والعتاد ولا يخفى عليه إلا النزر اليسير مما ضخم قوة الأعداء وجعل لها هيبة عند المسلمين .

الفصل الرابع

علاج هذا العائق في ضوء القرآن الكريم

الفصل الرابع

علاج هذا العائق

كيد الأعداء داء عظيم وشر مستطير ، وخطر محدق ينبغي لأمة الإسلام أن تحذره، وتقدر خطورته ، وتعد له العدة ، لكي تقف أمامه راسخة قوية ، فلا يثني عزمها ، ولا يفرق جمعها ولا يردها عن الجهاد في سبيل ربها ولذا فلا بد لها من الأمور التالية :

١- مصدر التعليم الكتاب والسنة :

إن القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدرا التشريع الإسلامي ، فلابد للمسلم من تعلمهما والنهل من ينبوعهما ، وقد قيض الله عز وجل لهما علماء جهابذة حفظوا القرآن ودونوا السنة النبوية وفسروا غريبهما وشرحوا معانيهما ، وبينوا أحكامهما حتى أثروا المكتبة الإسلامية بكتب التفسير و الغريب للقرآن وكتب السنة وشروحها ، والفقه المستمد منهما ، بل تجاوز التأليف ذلك إلى علم الرجال الذي يصون السنة من الضعف وينفي عنها انتحال المبطلين . وإلى علم اللغة العربية التي بها نزل القرآن ، من صدر الإسلام الأول وإلى عصرنا الحاضر ، والأمة الإسلامية لم تعدم من العلماء المخلصين الصادقين ذوي الفهم السليم والمذهب القويم المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ » (١) .

١- صحيح البخاري (١٨٧/٤) كتاب المناقب . باب (٢٨) حديث (٣) .

قيل : هم أهل العلم القائمين بدين الله [1].

فيجب على دعاة المسلمين وعلمائهم وكتابهم الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والاستعانة على فهمهما بكتب أولئك الصالحين ، وهاهي المكتبة الإسلامية تزخر بكتبهم . وليحذروا الرجوع إلى كتب المستشرقين التي تدور حولها الشبهات ، وتنقصها النزاهة .

فما أصاب الإنحراف الفكري والتغير في المفاهيم أمة الإسلام إلا بعد أن حادت عن تعلم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتخلت عن تراثها العلمي الرصين قال أبو الحسن الندوي : " وقد تنازل العالم الإسلامي – بما فيه العالم العربي – منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية والتوجيه ، والاستقلال الفكري ، وأصبح عيالاً على الغرب متطفلا على مائدته حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها ، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه ، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق ، والدراسة والتأليف ، وهم المنتهى والمرجع والحجة في الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الأسوة في النقض والإبراهم ، وعدد كبير منهم قساوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصبون ، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته صلى الله عليه وسلم العداء والبغضاء وللحضارة الإسلامية السخرية والإستهزاء ، ويخونون في النصوص والنقول ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ، ولم يبرع فيها ، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة .

---

[1]- فتح الباري (١٣/٢٩٣) .

وقد تغلغلت أفكارهم ودعاياهم في الأوساط العلمية الحديثة في العالم الإسلامي ، وتجلت بصورة واضحة في الدعوة إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها .. »[1] .

فإلى متى ستظل الأمة الإسلامية على هذه التبعية ؟. إنها لن ترجع عنها ولن تفيق من سباتها حتى تلتزم بكتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولن تتمكن من ذلك إلا على أيدي علمائها ومفكريها ودعاتها الذين ينهلون العلم من ينبوعه الصافي الكتاب والسنة ، ويمتثلونه في أقوالهم وأعمالهم قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ »[2] . فاستقامة الأمة مربوطة بفهم دينها ، وفهم دينها لا يتم إلا بتعلم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، حفظاً ، وفهماً ، وعملاً .

٢- غرس الثقة بنصر الله في النفس :

من أسباب القوة وعوامل النصر ، الثقة بوعد الله عز وجل لعباده المؤمنين ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[3] لأنها تبعث الأمل وتقوي الصبر ، مما يدفع المؤمن للجهاد في سبيل الله وتحمل المشاق من أجل ذلك ، ولقد علمنا المصطفى صلى الله عليه وسلم مواقف الثبات والصبر في تحمل الشدائد بزرع الثقة في النفوس كما في قوله

١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢٧٩-٢٨٠) بتصرف .

٢- صحيح البخاري (١٤٩/٨) . كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة . باب (١٠) قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي ظاهري الحق » حديث (٢) .

٣- سورة محمد (٧) .

تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] . تصور الآية الكريمة موقف النبي صلى الله عليه وسلم حينما كان مختفيا في غار ثور [2] ومعه صدِّيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقريش في طلبهما ، فلما لحق بهما الطلب ووصلوا إلى قرب الغار حزن أبو بكر أن يصاب المصطفى صلى الله عليه وسلم بأذى وأشفق لذلك وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : « لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا » فأجابه المصطفى صلى الله عليه وسلم إجابة العارف بالله الواثق بوعده المطمئن لنصره ، أجابه بما يثبته ويسكنه ، أجابه بما يطمئن القلب ويطرد الحزن ، فقال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ

---

[1]- سورة التوبة (٤٠) .

[2]- الغار : النقب في الجبل وهو قريب من معنى الكهف وجمعه غيران وتصغيره غوير ، والمغار والمغارة بمعنى الغار . شرح مسلم (١٩٨/٢) لسان العرب (٣٥/٥) التوضيح شرح الجامع الصحيح (٥٢٤/٢) . عمدة القاري (٥٤/١) .

وثَوْر : هو ثور أطحل – بالطاء والحاء المهملتين – جبل بمكة فيه الغار الذي اختفى النبي صلى الله عليه وسلم . معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٣٤٨/١) . معجم البلدان (٨٦/٢) .

ﱡﭐاللَّهَ مَعَنَاﱠ فأي ثقة أقوى من هذه الثقة ، وأي أمل أعظم من هذا الأمـــل في هذا الموقف العصيب ؟ . ومن الذي سيصل لمن كان الله معه وحافظه ؟ [1] .

أخرج البخاري بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّـــى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَأَنَا فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا . فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا » [2] . وأخرج عنه أيضا قَالَ : كُنْتُ مَـعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا . قَالَ : « اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ اثْنَانِ اللَّـــهُ ثَالِثُهُمَا » [3] .

ووقفة أخرى : وهي أن الآية الكريمة تبين عظيم عناية الله بنبيه صلـــى الله عليه وسلم وصاحبه ، وكيف حفظهما في الغار ، وأعمى عنهما الأبصار وهيـــأ لهم من الأسباب ما صرف عنهما الأعداء ، وأنزل عليه السكينة ، وأيده بـالجنود من الملائكة ، وقد اختلف أهل العلم في الهاء في ﱡﭐعَلَيْهِﱠ فقيل : راجعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : راجعة إلى أبي بكر لأن النبي صلى الله عليه وسـلم لم تزل معه سكينة . قال ابن كثير : وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصـــة بتلـك الحال . وقيل : أنها في معنى التثنية والتقدير عليهما ، فاكتفى بإعادة الذكر علـى

---

[1]- انظر : جامع البيان (١٠/١٣٥-١٣٦) . مختصر تفسير البغوي (١/٣٦٤) . الروض الأنـــف (٢/٢٣٢) . تفسير ابن كثير (٢/٣٧٢-٣٧٣) .

[2]- صحيح البخاري (٤/١٩٠) كتاب فضائل الصحابة ، باب (٢) مناقب المهاجرين .. حديـــث (٢) .

[3]- المصدر السابق (٤/٢٦٣) كتاب مناقب الأنصار . باب (٤٥) هجرة النبي صلى الله عليه وسـلم وأصحابه إلى المدينة . حديث (٢٢) .

أحدهما من إعادته عليهما ، والمهم أن الله عز وجل سكنهما وأمنهما فأمنا واطمئنا في هذا الموقف المخيف في الغار وتحت نسج العنكبوت وبيض الحمام[1] .
فأين المسلمون اليوم عن إدراك هذه المعاني العظيمة التي تزرع الثقة في النفس وتقوي العزيمة على الجهاد في سبيل الله ؟ .

إن الذي حفظ نبيه في الغار ، وتحت نسج العنكبوت لقادر على أن يحفظهم اليوم بما يشاء ، وبما يهيء من أسباب الحفظ والسلامة ، ولن يتخلى عن عباده الصادقين المخلصين في سبيله وهو الذي يقول : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [2] . ويقول : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

وموقف آخر من مواقف المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يغرس الثقة في النفوس ، ويربي أصحابه على الثبات والصبر عن عدي بن حاتم قال : بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة [4] ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال : " يا عدي هل رأيت الحيرة [5] " ؟. قلت : لم

1- الروض الأنف (٢/٢٣٢) . زاد المسير (٣/٤٣٩-٤٤١) . الجامع لأحكام القرآن (٨/٩٥) . تفسير ابن كثير (٢/٣٧٣) .

2- سورة غافر (٥١) .

3- سورة الروم (٤٧) .

4- الفاقة : الحاجة ، وافتاق افتياقا إذا احتاج وهو ذو فاقة . المصباح المنير (١٨٤) .

5- الحيرة : بالكسر ثم السكون وراء : مدينة كانت على الكوفة بالعراق على موضع يقال له النجف وبخراسان حيرة أيضا وليست المراد في الحديث . معجم ما استعجم . (٢/٤٧٨) . مشارق الأنوار (١/٢٢١) . معجم البلدان (٢/٣٢٨) .

أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا . قَالَ : « فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ[1] تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ » – قُلْتُ : فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ[2] الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلاَدَ[3] ؟ – « وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى » . قُلْتُ : كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ؟. قَالَ : « كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ فَلَيَقُولَنَّ لَهُ أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ ؟. فَيَقُولُ : بَلَى فَيَقُولُ : أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ ؟. فَيَقُولُ : بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ جَهَنَّمَ » قَالَ : عَدِيٌّ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » قَالَ عَدِيٌّ : فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ[4] . هكذا يغرس المصطفى صلى الله عليه وسلم الثقة في نفوس أصحابه

---

[1]– الظَّعِينة : المرأة ، والظُّعُن : النساء ، وأصل الظَّعينة : كل جمل يركب ويعتمل عليه ، وإنما سميت المرأة ظعنية لأنها تركبه ؛ فيقال : ذهبت الظعينة . غريب الحديث لأبي عبيد (٤٢٦/٢) . غريب الحديث لأبي إسحاق الحربي (٢٣٧/١) .

[2]– دُعَّار طيء ، بضم الدال وتشديد العين : أي فساقها وسراقها وشرارها ، يريد قطاع الطريق . والداعر الدني الفاسق . مشارق الأنوار (٢٥٩/١) . النهاية (١١٩/٢) .

[3]– سعروا البلاد : أوقدوا نار الفتنة في البلاد ، فألهبوها شرًّا وضرًّا كثيراً كالتهاب النار وهو مستعار من سعرت النار ، إذا أوقدها . مشارق الأنوار (٢٢٥/٢) . عمدة القارئ (١٩٨/١٣) .

[4]– صحيح البخاري (١٧٥/٤-١٧٦) كتاب المناقب . باب (٢٥) علامات النبوة في الإسلام . حديث (٢٤) .

ويعدهم بالنصر والتمكين ، والأمن ورغد العيش ، وهم يشتكون إليه الفقر وقطاع الطرق الذين يعدون على المسلمين في أسفارهم . ثم يربطهم بلقيا الله عز وجل ووقوفهم بين يديه ، ويحثهم على الصدقة [1] . مما يذهب ما في النفوس من الخوف ويقوي الصلة بالله .

فعلى المربين والموجهين والعلماء والمفكرين المسلمين أخذ الدروس من هذه المواقف النبوية الشريفة في زرع الثقة في نفوس الناشئة ، وتعليم المسلمين مواقف الصبر والثبات والله ولي التوفيق .

[1]- انظر : عمدة القارئ (١٣/١٩٨) .

٣- بغض أعداء الله وعدم موالاتهم :

قال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [١].

تنفي الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شعبه على الكمال يواد كافراً أو منافقاً من الأقربين [٢]. فكل الروابط تنقطع ، وكل الصلات تنفصم دون رابطة الإيمان وأخوة الدين ، فلا مودة ولا ولاء لأعداء الله وأعداء دينه وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم . كما تثبت الإيمان والتأييد والفوز والفلاح لمن عاداهم وقاطعهم قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله : « إنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والإنحياز النهائي للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد ، فما جعل لرجل من قلبين في جوفه ، ومايجمع إنسان في قلب واحد ودين . وداً لله ورسوله ووداً لأعداء الله ورسوله . فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معاً فلا يجتمعان . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ،

---

١ - سورة المجادلة (٢٢) .

٢ - المحرر الوجيز (٥/٢٨٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٥٢) .

وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان . لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية ، وإنما هي العقيدة والعقيدة وحدها .

فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم ، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله ، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل ، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لا من أرض ، ولا من جنس ولا من وطن ، ولا من لون ، ولا من عشيرة ، ولا من نسب ، ولا من صهر . لقد انبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فانبتت هذه الوشائج جميعاً » [1].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ

---

[1] – في ظلال القرآن (٦/٣٥١٤-٣٥١٥) باختصار .

وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [1].

فقد أمر سبحانه وتعالى بمباينة الكفار ، وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن اختاروا الكفر على الإيمان وتوعد على ذلك [2] . فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ﴾ أي : المتولون ﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها ، وفي ذلك من الزجر عن موالاة الكفار مافيه [3].

وكما نهى الله تعالى عن موالاة الكفار عامة ، نهى عن موالاة الكفار من أهل الكتاب على وجه الخصوص كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [4]. فقد نهى سبحانه المؤمنين بهذه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة ، وحكم هذه الآية باق ، وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظه من هذا المقت الذي تضمنه ، قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ [5] .

---

[1] – سورة التوبة (٢٣-٢٤) .

[2] – تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦) .

[3] – روح المعاني (١٠/٧٠-٧١) بتصرف .

[4] – سورة المائدة (٥١) .

[5] – الجواهر الحسان (٢/٣٩٢-٣٩٣) .

وحينما نهى سبحانه وتعالى عن موالاة الكفار ، من اليهود والنصارى وغيرهم وحذر منها ، وأمر بمقاطعتهم ، بين لمن تكون موالاة المؤمن ومودته فقال جل وعلا : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [1]

فدلت الآية الكريمة على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبري من ولاية غيرهم[2]. فهذه الولاية الحقة التي تكون لله ولرسوله وللمؤمنين المتصفين بهذه الصفات [3]. كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [4] .

إن هذه النصوص وغيرها تفصل الموقف في المودة والمحبة بين المسلمين وغيرهم ، فلا ودّ ولا ولاء لأعداء الله سواء من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو غيرهم من الكفار بل يجب على المسلم مقاطعتهم وبغضهم ولو كانوا من الأقربين إليه . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى

[1] – سورة المائدة (٥٥-٥٦) .

[2] – تيسير الكريم الرحمن (٥٣٨/١) .

[3] – تفسير ابن كثير (٧٣/٢) .

[4] – سورة التوبة (٧١) .

وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم
مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ
وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ
بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [1] .

ولا يعارض هـــذا بقولـــه تعـــالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [2] .

---

[1] – سورة الممتحنة (١-٤).

[2] – سورة الممتحنة (٨) .

فهذه الآية في معاملة الكفار بالحسنى لافي مودهم وموالاهم ، فالمودة والموالاة شيء و المعاملة بالحسنى شيء آخر [1] .

قال ابن جرير في تفسير الآية بعد ذكره لاختلاف المفسرين فيها : « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عني بذلك : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله عز وجل عم بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ﴾ . جميع من كان ذلك صفته ، فلم يخصص به بعضا دون بعض ، ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم ، ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح » [2] .

ولقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا الفرق بين وجوب المعاداة للكفار وبين الأذن في الإحسان إليهم فعادوهم لله ولرسوله ودينه حتى قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر ، وهم الصديق يومئذٍ بقتل ابنه ، وقتل مصعب بن عمير آخاه عبيد يومئذٍ [3] . وهاهي أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما تستفتي النبي صلى الله عليه وسلم في بر أمها المشركة لما عرفت وجوب بغض الكفار ومقاطعتهم ، وخشيت أن يكون البر من قبيل المودة ، فعنها رضي الله عنها قالت : قَدِمَتْ

[1] - الولاء والبراء (٣٥٠) .

[2] - جامع البيان (٢٨/٦٦) .

[3] - انظر : تفسير ابن كثير (٤/٣٥٢) .

عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1] فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ[2] أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ : « نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ »[3] .

قال ابن حجر رحمه الله : « البر والصلة والإحسان لايستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل والله أعلم »[4].

نعم البر و الإحسان والصلة لا يستلزم التحابب والتوادد لأن البر و الصلة والإحسان من المعاملة بالحسنى التي هي سمة من سمات الإسلام ، وأدب من آدابه الكريمة التي يحث أتباعه على التأدب بها حتى مع غير المسلمين إذ لم يكن منهم أذى للإسلام وأهله .

وفرق بين هذا وبين موالاة الكافرين التي نهى الله عز وجل المؤمنين عنها بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم

---

[1] – أي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما عاهد قريشاً ، أرادت مابين الحديبية والفتح . انظر فتح الباري (٢٣٤/٥) .

[2] – أي : راغبة في بر ابنتها لها خائفة من ردها إياها خائبة . وقيل : معناه : راغبة عن ديني ، أوراغبة في القرب مني ومجاورتي والتودد إلي . النهاية (٢٣٧/٢) فتح الباري (٢٣٤/٥) .

[3] – صحيح البخاري (١٤٢/٣) . كتاب الهبة . باب (٢٩) الهدية للمشركين . حديث (٢) . وصحيح مسلم (٦٩٦/٢) كتاب الزكاة . باب (١٤) فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولوكانوا مشركين . حديث (٤٩و٥٠) واللفظ للبخاري .

[4] – فتح الباري (٢٣٣/٥) .

مِّن دِيَـٰرِكُمۡ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡـرَاجِكُمۡ أَن تَـوَلَّوۡهُـمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُـمۡ فَأُوْلَـٰٓئِـكَ هُـمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [1]. وذلك الظلم يكون بحسب التولي ، فإن كان توليا تاما ، كان ذلك كفرا مخرجا عن دائرة الإسلام ، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ ، وما هو دونه [2].

٤- إعداد القوة للجهاد :

قال تعالى : ﴿ وَأَعِـدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [3]

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بإعداد القوة للأعداء ، والاستعداد للجهاد في سبيله في كل وقت فقال : ﴿ وَأَعِـدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم ﴾ فالاعداد : اتخاذ الشيء لوقت الحاجة ، وإعداد الشيء واعتداده واستعداده وتعداده : إحضاره . والعدة : ما أعددته لحوادث الدهر من المال والسلاح . والاستعداد

---

[1] - سورة الممتحنة (٩).

[2] - تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٢٤) .

[3] - سورة الأنفال (٦٠) .

للأمر التهيؤ له . وكلما تعد لصديقك من خير ، أو لعدوك من شر فهو داخل في عدتك [1].

والأمر بالإعداد في هذه الآية الكريمة يشمل عدة أمور هي :

الأمر الأول : اتخاذ السلاح كما في قوله : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ فالمراد بالقوة هاهنا السلاح [2] ، قال صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : « ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ » [3].

قال النووي في شرحه : « فيه فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى ، وكذلك المشاجعة وسائر أنواع استعمال السلاح .. والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدرب والتحذق فيه » [4] .

وليس في الحديث ما يدل على أن الرمي هو كل العدة ، ولكنه لما كان أنفعها وأشدها نكاية بالعدو خصه بالذكر والتأكيد ثلاث مرات دون غيره من معاني القوة [5] . تنويها على أنه يجب على المسلمين اتخاذ السلاح الأنفع لهم ،

---

[1] – مختصر تفسير البغوي (٣٤٨/١) . الجامع لأحكام القرآن (٢٤/٨) . لسان العرب (٢٨٤/٣) .

[2] – جامع البيان (٢٩/١٠) . مختصر تفسير البغوي (٣٤٨/١) الجامع لأحكام القرآن (٢٤/٨) المفهم (٧٥٩/٥) . تيسير الكريم الرحمن (٢٢٢/٢) .

[3] – صحيح مسلم (١٥٢٢/٣) كتاب الإمارة . باب (٥٢) فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه . حديث (١٦٧) .

[4] – شرح صحيح مسلم (٦٤/١٣) .

[5] – انظر : جامع البيان (٣٢/١٠) المفهم (٧٥٩/٥) .

وأشد نكاية بأعدائهم ، ولا يقتصرون على الأدنى من القوة ، وإلا فالسيف والرمح والسكين ونحوها كانت من السلاح المستخدم ، ولكنها لا تساوي شيئا بالنسبة للرمي . ولذا حث المصطفى صلى الله عليه وسلم صاحب السهم أن ينشغل بسهمه في وقت فراغه في قوله : « سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ وَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ فَلاَ يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ »[1] . ندب المؤمن إلى جعل الرمي بدلاً من اللهو ليتمرن عليه وينشغل به حتى لا ينساه ولا يغفل عنه فيأثم[2] قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى »[3] . فيجب على المسلمين اقتناء السلاح وتعلمه ، والتدرب على استخدامه والاستعداد به للجهاد في سبيل الله عز وجل بكافة أنواعه من بنادق ورشاشات ومدافع وراجمات وصواريخ وقنابل ومدرعات ودبابات وطائرات ، بل يجب عليهم أن يقتنوا الأسلحة الحديثة التي يطلق عليها أسلحة الدمار الشامل « من نووية وحيوية » . وقد أشار إلى ذلك علماء الإسلام في القديم حيث أجازوا رمي الأعداء بالمنجنيق[4] والنيران والعقارب والحيات ، وأن يبثقوا[5] عليهم الماء ليغرقوهم به أو يحولوهم فيه . كما أجازوا قطع الأشجار وحرقها وتخريب الأبنية

[1] – صحيح مسلم (١٥٢٢/٣) كتاب الأمارة . باب (٥٢) الرمي والحث عليه ... حديث (١٦٨) .

[2] – المفهم (٧٦٠/٥) .

[3] – صحيح مسلم (١٥٢٢/٣ –١٥٢٣) كتاب الأمارة . باب (٥٢) الرمي والحث عليه ...حديث (١٦٩) .

[4] – آلة ترمى به الحجارة معربة وأصلها بالفارسية . وجمعها : منجنيقات ومجانيق . الصحاح (١٤٥٥/٤) مختار الصحاح (١٠٦) .

[5] – بَثَق النهر بَثْقا وبثْقاً وتَبثاقا : كسر شطه لينبثق الماء ، واسم ذلك الموضع البَثْق . وثبقت العينَ : أسرع دمعها . القاموس (١١١٨) .

وقطع الماء وغير ذلك من وسائل الحرب ضد الأعداء [1] . واستدلوا لذلك بحصار النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف [2] . وبحرقه صلى الله عليه وسلم وقطعه لنخل بني قريظة [3].

وهذه الأسلحة وإن كان تأثيرها في نطاق ضيق لا يساوي شيئا مع تأثير أسلحة الدمار الشامل الحديثة ، إلا أنها تعني النتيجة التي تعنيها الأسلحة الحديثة ، وهي التدمير الشامل في حدود مفعولها . وقد أجازها علماء الإسلام وهم يعلمون هذه النتيجة لإقامة فرض الجهاد ، ولكي لا يمتلك العدو من السلاح ما يفوق به المسلمين فيستذلهم [4] .

الأمر الثاني : إعداد المراكب والوسائل الحربية :

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ أي : ربطها واقتناؤها للغزو — ربط يربط ربطا . وارتبط يرتبط ارتباطا وقيل : الرباط من

---

[1] – انظر : الأم (٤/٢٤٣-٢٤٤) . المغني (١٠/٤٩٣-٤٩٧) . بدائع الصنائع (٧/١٠٠) فتح القدير (٥/٤٤٧) . حاشية ابن عابدين (٣/٣٤٤) . سبل السلام (٤/٥٤) .

[2] – روى البخاري (٥/١٠٢) كتاب المغازي . باب (٥٦) غزوة الطائف . حديث (٢/٣) ومسلم (٣/١٤٠٢-١٤٠٣) . كتاب الجهاد والسير . باب (٢٩) غزوة الطائف . حديث (٨٢) . واللفظ لمسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : « حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف » .

[3] – روى البخاري (٣/٦٧) كتاب . باب (٦) قطع الشجر والنخل ، حديث الباب . عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة ولها يقول حسان : وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير » .

[4] – الأم (٤/٢٤٤) . مغني المحتاج (٤/٢٢٥-٢٢٦) . تكملة المجموع (١٩/٢٩٧) والشرح الكبير لابن قدامة (١٠/٣٨٣-٣٨٤و٣٨٨-٣٨٩) .فتح القدير (٥/٤٤٧) .

حاشية ابن عابدين (٣/٣٤٤) بدائع الصنائع (٧/١٠٠) . أحكام القرآن للجصاص (٥/٢٧٣-٢٧٦) .

الخيل الخمس فما فوقها ، وجماعته رُبُط . وهي التي تربط بإزاء العدو[1] والمراد ربط الخيل وإعدادها للغزو في سبيل الله عز وجل ، لأنها هي أقوى وسيلة لنقل الجنود وقتئذٍ وبها يصال ويجال في ميدان القتال فكانت من أعظم القوة الحربية ولذا قال تعالى ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾[2] وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[3] . وقال صلى الله عليه وسلم : « الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ »[4] .

ولما كانت الخيل من أسباب القوة في الجهاد في سبيل الله عز وجل بين صلى الله عليه وسلم فضلها على أصحابها بحسب نياتهم في اقتنائها وإعدادها للجهاد ، كما بين وزرها على من تقوى بها ضد الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم : « الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ

---

1 - المفردات (١٩٢) . الجامع لأحكام القرآن (٢٥/٨) .

2 - سورة العاديات (١-٥) .

3 - صحيح البخاري (٢١٦/٣) كتاب الجهاد والسير . باب (٤٥) من احتبس فرساً ... حديث الباب .

4 - المصدر السابق (٢١٥/٣-٢١٦) كتاب الجهاد والسير . باب (٤٤) الجهاد ماضي مع البر و الفاجر حديث الباب .

فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ[1] أَوْ رَوْضَةٍ فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا[2] ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ[3] كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا[4] وَتَعَفُّفًا ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلاَ ظُهُورِهَا فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً[5] لأَهْلِ الإِسْلاَمِ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ »[6].

فيجب على المسلمين إعداد المراكب التي تنقل المجاهدين والعتاد وكافة الوسائل الحربية من طائرات جوية ، وسيارات وعربات ودبابات ومدرعات برية ، وسفن وأساطيل وغواصات بحرية . كما يجب عليهم إنشاء المطارات والمراسي البحرية ، وكذلك إنشاء المصانع التي تنتج الأسلحة والآلات التي تمكنهم من

---

[1] – مَرْج : المَرْج الأرض الواسعة ذات نبات كثير تمرج فيه الدواب ، أي: تسرح فيه . المجموع المغيث (١٦٧/٣) . النهاية (٣١٥/٤) .

[2] – طِيَلُها : طِوَل الفَرس : حبل يشد أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ، يقال : أطال لها وأطال بها بمعنى : طول لها الرباط . غريب الحديث لأبي عبيد (٣٥٩/١) . المجموع المغيث (٣٧٣/٢) .

[3] – استَنَّ الفَرس يَسْتن استناناً أي : عدا لمرحه ونشاطه شوطاً أو شوطين ولا راكب عليه . المجموع المغيث (١٨٧/٢) . النهاية (٤١٠/٢) .

[4] – تَغنيًّا : أي : إستغناءً بها عن الطلب من الناس يقال : تغنى الرجل بمعنى : استغنى . المجموع المغيث (٥٨٢/٢) . النهاية (٣٩١/٣) .

[5] – نِوَاء : معاداة للإسلام ، يقال : ناوأته مناوأتاً ونواءً من باب قاتل ، إذا عاديته . النهاية (١٢٣/٥) . المصباح المنير (٢٤١) .

[6] – صحيح البخاري (٧٩/٣) . كتاب المساقاة . باب (١٢) شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار . حديث (1) . الموطأ (٤٤٤/٢) كتاب الجهاد . باب (١) الترغيب في الجهاد حديث (٣) .

إقامة الجهاد والتفوق على أعدائهم . قال الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسير الآية : « فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم »[1] .

الأمر الثالث : بذل المال في الجهاد في سبيل الله :

كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ . فيه الإشارة إلى الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، وأن من تصدق بشيء من ماله في الجهاد كثيراً كان أو قليلاً يوف إليه أجره أضعافاً مضاعفةً غير منقوص كما قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

فإعداد القوة للجهاد لابد له من المال لشراء الأسلحة والمراكب وإنشاء المصانع ، وإعاشة المجاهدين وغير ذلك . وبذل المال في هذا جهاد في سبيل الله يجب على المسلمين كما يجب عليهم الجهاد بأنفسهم قال تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ

---

[1]- تيسير الكريم الرحمن (٢/٢٢٢-٢٢٣) .

[2]- سورة البقرة (٢٦١) وانظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٦/٨) . تفسير ابن كثير (٣٣٥/٢)

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . وفي الحديث «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » [2] .

الأمر الرابع : التدريب العسكري :

لم يكن هذا الأمر صريحاً في الآية ولكنه يأتي فيها ضمناً لأنه لازم من لوازم القوة ويكون هذا التدريب على شقين هما :

الشق الأول : التربية الروحية بغرس الإيمان في القلوب ، وربط نتائج الجهاد بالآخرة وما أعده الله للمجاهدين في سبيله من النعيم المقيم ، والمنازل العالية كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [3] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [4] . وقد وصف الله الجنة

---

[1]- سورة التوبة (٤١) .

[2]- سبق ص (٣٤) .

[3]- سورة آل عمران (١٥٧) .

[4]- سورة آل عمران (١٦٩-١٧٠) .

التي أعدها للمتقين ومنهم المجاهدون فقال : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

إن هذه الآيات العظيمة وأمثالها كثيرة في كتاب الله عز وجل تبين النعيم الذي أعده الله عز وجل للمجاهدين الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله عز وجل فباعوا الدنيا واشتروا الآخرة ولذا قال تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾ [2] . ومتى وقف المسلم معها وقفة صادقة ونظر إليها نظرة مخلصة تاقت نفسه إلى الشهادة التي بها تنال تلك المكارم ، فأرخص نفسه للجهاد في سبيل الله وأصدق شاهد على هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ » قَالَ يَقُولُ : عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ؟ . قَالَ : نَعَمْ قَالَ بَخٍ بَخٍ[3] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ »

1- سورة آل عمران (١٣٣) .

2- سورة النساء (٩٥-٩٦) .

3- بخ بخ : تقال : بإسكان الخاء فيها وبكسرها دون التنوين . وبكسرها مع التنوين . وهي كلمة تقال : عند المدح والرضا بالشيء . وقيل : معناها : تعظيم الأمر وتفخيمه . مشارق الأنوار (٧٩/٢) . النهاية (١٠١/١) .

قَالَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ [1] أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا . قَالَ : « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا » فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ [2] . وروى أيضا عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه قال سمعت أبي وَهُوَ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ يَقُول قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوف » فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ فَقَالَ يَا أَبَا مُوسَى آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا ؟ . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ [3] فَأَلْقَاهُ ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ [4] .

فما الذي دفع هذان الرجلان لخوض المعركة حتى استشهدا إلا التربية الروحية التي تبني النفوس لتقبل القتال في سبيل الله عز وجل . والقرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم كفيلان بإعزاز التربية الروحية عند المسلم متى قرأ نصوصهما وتدبر معانيهما فيجب على العلماء والدعاة والمربين بيان ذلك للعامة بنشر الكتب والمقالات ، ومدارسة كتب السيرة ، وأخبار الصحابة وكتب

[1]- الإرجاءة : قال النووي : ((هكذا هو في أكثر النسخ المعتمدة رجاءة بالمد والنصب التاء . وفي بعضها بالتنوين . وكله صحيح معروف في اللغة . ومعناه : والله ما فعلته لشيء إلا لرجاء أن أكون من أهلها)) . شرح صحيح مسلم (١٣/٤٥-٤٦) .

[2]- صحيح مسلم (٣/١٥١٠-١٥١١) . كتاب الإمارة . باب (٤١) ثبوت الجنة للشهيد . حديث (١٤٥) .

[3]- جَفْن السيف : غمده . مشارق الأنوار (١/١٥٩) . النهاية (١/٢٨٠) .

[4]- صحيح مسلم (٣/١٥١١) . كتاب الإمارة . باب (٤١) ثبوت الجنة للشهيد . حديث (١٤٦) .

المغازي والفتوح الإسلامية وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه ومذاكـــرة أبـــواب الجهاد وفضائل الشهداء وتستخدم لذلك وسائل الإعلام [1] .

وثمة أمر آخر يرفع الهمة ويقوي العزيمة وهو أن أعداء الإسلام أمرهم حقـير ويتألمون كما يتألم المسلم بل إن المسلم يؤمل في الآخرة إن مات وفي العز إن بقي ، وهم لا نظر عندهم إلا للدنيا فلا يثبتون في اللقاء قال تعـــالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [2] .

والشق الثاني :

تعلم الرماية ومعرفة الأسلحة وتعلم المهارات العسكرية كما جاء في قولـــه صلى الله عليه وسلم : « سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ وَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ فَلاَ يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ » [3] . وقد سابق صلى الله عليه وسلم بين الخيـــل [4] . وقـــال النووي في شرحه : « فيه جواز المسابقة بين الخيل للمصلحة ورياضتها وتمرنها على الجري وإعدادها لذلك لينتفع بها كراً وفراً » [5] .

---

[1] - انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢٧٨) .

[2] - سورة النساء (١٠٤) . وانظر : مختصر تفسير (١/١٩٣-١٩٤) . المحرر الوجيز (٢/١٠٨) .

[3] سبق ص (٦٢٢) .

[4] - انظر : صحيح مسلم (٣/١٥٩١) كتاب الإمارة باب(٢٥) المسابقة بين الخيل المضمرة .

[5] - شرح صحيح مسلم (١٣/١٤) .

فالتدرب على السلاح وأساليب القتال لابد منه لحاجة المجاهد إليه وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وقد بين سبحانه وتعالى الهدف من إعداد القوة بقوله : ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ . أي : تخيفونه [1] . وكيف يخاف العدو إذا لم تكن قوة المسلمين قوة متكاملة لا عيب فيها ولا نقص . يقول الفخر الرازي في تفسير الآية : « وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ، ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة أولها : أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام . ثانيها : أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية . وثالثها : أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان . ورابعها : أنهم لا يعينون سائر الكفار . خامسها : أن ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام » [2] . ويقول مصطفى زيد في تفسيرها أيضاً: « إن واجباً أن يعد المسلمون كل ما يستطيعون من قوة ... وبمنطوق هذا النص يجب على المسلمين في هذا إعداد المدافع ، والبوراج ، والطائرات ، والغواصات ، والمصفحات ، والقنابل الذرية ، وغيرها ما دام هذا الإعداد مستطاعاً لهم ، كذلك يجب على المسلمين أن يتعلموا الفنون التي يتوقف عليها صنع هذه المعدات ، لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب ، أما ما قيل من أن الإسلام يحرم التعذيب بالنار ، وأن على المسلمين خضوعاً لهذا الحكم أن يقاوموا قذائف المدافع بالسيوف أو العصي أو السهام ، فعبث نربأ بأنفسنا عن التترل لمناقشته أو الكلام فيه » [3] .

---

[1] - جامع الأحكام (٢٦/٨) .

[2] - تفسير الرازي (١٩٦/١٥) .

[3] - تفسير سورة الأنفال (١٤٦) .

الفصل الأول

في الإرجاء ، وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

وعلاجه في القرآن الكريم وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الإرجاء ، وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

المطلب الأول : تعريف الإرجاء ، ظهوره ، أصول المرجئة وأصنافهم .

المطلب الثاني : أثر الإرجاء في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

المبحث الثاني : علاج هذا العائق .

المبحث الأول

الإرجاء ، وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

المطلب الأول : تعريف الإرجاء ، ظهوره ، أصول المرجئة وأصنافهم .

الإرجاء في اللغة : له عدة معان منها :

١- التأخير والإمهال ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾[1] . أي : أمهله وأخره[2] .

٢- الأمل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ ﴾[4] . أي : لكم أمل في الله لا يوجد عندهم[5] .

٣- إعطاء الرجاء[6] .

٤- الخوف ومنه قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴾[7] . أي : مالكم لا تخافون من عذاب الله ، وقالوا : إنما يستعمل الرجاء في موضع الخوف ، إذا كان معه حرف نفي ، ومنه قوله

---

١ - سورة الأعراف (١١١) . وسورة الشعراء (٣٦) .

٢ - القاموس المحيط (٥١) مختار الصحاح (٢٣٦) .

٣ - سورة البقرة (٢١٨) .

٤ - سورة النساء (١٠٤) .

٥ - مختصر البغوي (١/١٩٥) .

٦ - الملل والنحل (١٣٩) .

٧ - سورة نوح (١٣) .

تعالى : ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ والمعنى ما لكم لا تخافون عظمة الله[1].

والإرجاء : يهمز ويلين فيقال : أرجأت الأمر ، و أرجيته إذا أخرته قال تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [2] .

وقريء ﴿ **مرجؤن** ﴾ لأمر الله بالهمزة ومنه سميت المرجئة ، ويقال : هذا رجل مرج ومرجيء[3] .

وأما في الاصطلاح : فهو مأخوذ من معناه اللغوي قال الشهرستاني : الإرجاء على معنيين :

أحدهما : بمعنى التأخير .

والثاني : إعطاء الرجاء . إما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد .

وأما بالمعنى الثاني فظاهر ، فإنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة[4] .

وسئل سفيان بن عيينة الإمام الثقة عن الإرجاء فقال : ((الإرجاء : على وجهين : قوم أرجوا أمر علي وعثمان ، فقد مضى أولئك . فأما المرجئة اليوم فهم يقولون : الإيمان قول بلا عمل)) [5] .

---

[1] – تهذيب اللغة (١١/١٨١) . مختار الصحاح (٢٣٦-٢٣٧) .

[2] – سورة التوبة (١٠٦) .

[3] – تهذيب اللغة (١١/١٨١) ، تهذيب الآثار للطبري (٢/٦٥٨-٦٥٩) ، الفرق بين الفرق (٢٠٢) ، القاموس المحيط (٥١-٥٢) ، مختار الصحاح (٢٣٣ و ٢٣٦) .

[4] – الملل والنحل (١٣٩) .

[5] – تهذيب الآثار للطبري (٢/٦٥٩) .

كما سئل سفيان بن سعيد الثوري عن المرجئة والقدرية فقال : ((هم الذين يقولون الإيمان قول ولا عمل ، ويزعمون أن لا قدر))[1] .

ومن هذا يظهر أن الإرجاء في الاصطلاح يطلق على طائفتين هما :

١- قوم أرجأوا أمر علي وعثمان .

٢- قوم قالوا : الإيمان هو التصديق ، أو التصديق والقول أو قول بلا عمل . وأخروا العمل عن درجة الإيمان أي : أن الأعمال ليست من الإيمان . وهذا ما استقر عليه المعنى الاصطلاحي للمرجئة عند السلف ، ولذا قال الطبري بعد إيراده لأقوال السلف في الإرجاء : ((والصواب من القول في المعنى الذي من أجله سميت المرجئة : مرجئة أن يقال : إن الإرجاء معناه : ما بينا من قبل ، من تأخير الشيء ، فمؤخر أمر علي وعثمان رضي الله عنهما إلى ربهما ، وتارك ولايتهما والبراءة منهما : مرجئاً أمرهما ، فهو مرجيء . ومؤخر العمل والطاعة عن الإيمان مرجئهما عنه فهو مرجيء .

غير أن الأغلب من استعمال أهل المعرفة بمذاهب المختلفين في الديانات في دهرنا هذا ، هذا الاسم ، فيمن كان من قوله : ((الإيمان قول بلا عمل)) وفيمن كان من مذهبه أن الشرائع ليست من الإيمان ، وأن الإيمان إنما هو التصديق بالقول من دون العمل المصدق بوجوبه))[2] .

---

[1] - المصدر السابق . وفي شرح اللالكائي (١٠١٧/٥) نحوه .

[2] - تهذيب الآثار (٦٦١/٢) .

ظهور الإرجاء

سبق في التعريف أن الإرجاء يطلق على طائفتين ، ولذا اختلف القـــول في ظهور الإرجاء ، وأول من قال به :

فقيل : أول من قال بالإرجاء : الحسن بن محمد بن الحنفية المتوفى ســـنة ٩٩ هـــ [(١)] . قال ابن سعد في ترجمته :((وهو أول من تكلم في الإرجــاء))[(٢)]. وعن زاذان وميسرة قالا : أتينا الحسن بن محمد ، قلنا : ما هذا الكتاب الـــذي وضعت ؟. وكان هو الذي أخرج كتاب المرجئة ، قال زاذان : فقال لي : يا أبا عمر لوددت أني مت قبل أن أخرج هذا الكتاب ، أو قال : قبل أن أضع هـــذا الكتاب [(٣)] .

وقال أيوب : ((أنا أتبرأ من الإرجاء إن من تكلم فيه رجل مـــن أهـــل المدينة ، يقال له : الحسن بن محمد))[(٤)] . وقال أيضاً : ((أنا أكـــبر مـــن المرجئة أول من تكلم في الرجاء ، رجل يقال له الحسن بن محمد))[(٥)] .

وقيل : أول من قال بالإرجاء ذر بن عبدالله[(٦)] قال النيسابوري : ((قلت لأبي عبدالله أول من تكلم في الإيمان من هو ؟ قال : يقولون : أول من تكلم فيه ذر))[(٧)].

---

١ - هو الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو محمد ، وأبوه يعرف بابن الحنفية نسبة إلى أمه من بني حنيفة كان من علماء الناس بالاختلاف ومن أوثق الناس . طبقـــات ابـــن ســـعد (٣٢٨/٥) . تهذيب التهذيب (٢٧٦/٢-٢٧٧) .

٢ - طبقات ابن سعد (٣٢٨/٥) .

٣ - طبقات ابن سعد (٣٢٨/٥) والسنة لعبد الله بن أحمد (٧٩) واللفظ له .

٤ - تهذيب التهذيب (٢٧٧/٢) .

٥ - شرح اللالكائي (١٠٧٥/٥) .

٦ - ذر بن عبدالله بن زرارة المرهبي الهمداني أبو عمر الكوفي روى عنه ابن عمر وسلمة بن كـــهيل وغيرهما كان من عباد أهل الكوفة روى له الستة مات ... ، تهذيب التهذيب (١٨٩/٢) .

٧ - مسائل الإمام أحمد النيسابوري (١٦٢/٢) . والسنة الخلال (٥٦٣/٣) .

وقال سلمة بن كهيل : وصف ذر الإرجاء وهو أول من تكلم فيـــه))[1].
وقال الأعمش : سمعت ذراً يقول : لقد شرعت خفت أن يتخذ دينا)) [2] .

وقيل : إن أول من تكلم بالإرجاء : حماد بن أبي سليمان[3] . كما ذكـــره ابن تيمية رحمه الله[4] .

ويجمع بين هذه الأقوال : بأن الإرجاء الذي قال به الحسن بن محمد ليـــس هو الذي قال به ذر وحماد ، المذموم ، وإنما في إرجاء أمر المشتركين في الفتنـــــة التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر إلى الله عز وجل ، فلم يحكم بصـــواب أو خطأ أحد من أولئك . وهو الذي كتب فيه الكتاب ، وندم عليه فيمابعد عندما ظهر له أن الحق مع علي رضي الله عنه . لا الإرجاء المتعلق بالإيمان ، ويؤيـــــد ذلك ما قاله ابن حجر رحمه الله عنه حيث قال : ((المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعيبه أهل السنة المتعلق بالإيمان وذلك أني وقفت على كتاب الحسن بن محمد المذكور أخرجه ابن أبي عمــــر في كتـــاب الإيمان له في آخره ، قال : حدثنا إبراهيم بن عيينة عن عبدالواحد بن أيمن قال : كان الحسن بن محمد يأمرني أن أقرأ هذا الكتاب على الناس ، أما بعد :

فإنا نوصيكم بتقوى الله فذكر كلاماً كثيراً في الموعظة والوصية لكتاب الله واتباع ما فيه ، وذكر اعتقاده ، ثم قال : و نوالي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، ونجاهد فيهما لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة ، ولم تشك في أمرهما ونرجيء مـــن

---

1 – السنة لعبدالله بن أحمد (٨١) .

2 – المصدر السابق (٨٣) .

3 – هو : حماد بن أبي سليمان مسلم الأشعري أبو إسماعيل الكوفي روى عنه الثوري وأبـــو حنيفـــة وغيرهما وثقه ابن معين وابن حبان روى له مسلم وأصحاب السنن مات ســـــنة ١٢٠ هـــــ . تهذيب التهذيب (١٤/٢) .

4 – الفتاوى (٢٩٧/٧و٣١١) .

بعدهما ممن دخل في الفتنة فنكل أمرهم إلى الله – إلى آخر الكلام – فمعنى الذي تكلم فيه الحسن – أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئاً أو مصيباً ، وكان يرى أنه يرجيء الأمر فيهما .

وأما الإرجاء الذي يتعلق بالإيمان فلم يعرج عليه فلا يلحقه بذلك عتاب والله أعلم » [١] .

وأما ما قيل عن ذر وحماد فهو في الإرجاء المتعلق بالإيمان ، المخرج للعمل عن مسمى الإيمان . وهما متعاصران وقولهما واحد إلا أن حماداً تأخر عن ذر في الوفاة ولعله أخذ منه وزاد ونسب الأولية لكل منهما بحسب ما قال ، أو أن من قال ذلك قاله حسب علمه والله أعلم .

يظهر من تواريخ وفاة أولئك الذين نسب إليهم القول بالإرجاء أن الإرجاء ظهر في القرن الأول وهذا ما تؤيده رواية البخاري عن زبيد قال : سألت أبا وائل عن المرجئة فقال : حدثني عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » [٢] . وذكر ابن حجر في شرحه أن وفاة أبي وائل سنة تسع وتسعين وقيل : اثنتين وثمانين . وقال : « وفي ذلك دليل على أن بدعة الإرجاء قديمة » [٣] .

---

١ – تهذيب التهذيب (٢٧٧/٢) . ومقدمة الدكتور أحمد بن سعيد بن حمدان الغامدي على شرح اللالكائي (٣٨-٣٩) . وذكر أنه اطلع على كتاب الإيمان لابن أبي عمر العدني ووجد ما قاله ابن حجر رحمه الله .

٢ – سبق ص (٢٨٩) .

٣ – فتح الباري (١١٢/١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « في أواخر عصر الصحابة حدثت بدعة القدرية والمرجئة فأنكر ذلك الصحابة والتابعون ، كعبدالله بن عمر وابن عباس وجابر ووائلة بن الأسقع »[1] .

لكن لم يكثر معتنقوه إلا بعد أن سقط فيه أحد العباد الصالحين وهو عمرو بن مرة المرادي[2] حيث افتتن به الناس لصلاحه وعبادته . أخرج اللالكائي بسنده عن مغيرة قال : « لم يزل في الناس بقية حتى دخل عمرو بن مرة في الإرجاء فتهافت الناس فيه »[3] . وأخرج بن جرير بسنده عن الأعمش عن عمرو بن مرة قال : « نظرت في أمر هؤلاء الخوارج ، فإذا شر قوم ، ونظرت في هؤلاء الخشبية فإذا شر قوم ، ونظرت في أمر هؤلاء المرجئة فإذا هم أمثل وأخير ، فأنا مرجيء . قلت يا أبا عبدالله و لم تسمى باسم غير الإسلام ؟ . قال : أنا كذلك »[4] .

وبزلة هذا العالم زل الكثير في الإرجاء نعوذ بالله من زلة العلماء وعفا الله عنا و عنه إنه جواد كريم .

---

[1] - منهاج السنة (١/٣٠٩) .

[2] - هو : عمرو بن مرة بن عبدالله أبو عبدالله المرادي الكوفي الأعمى ، كان عابداً صالحاً وثقة العلماء وأثنوا عليه قال شعبة : « ما رأيت عمرو بن مرة في صلاة قط إلا ظننت أنه لا ينفتل حتى يستجاب له » . روى له الستة مات سنة ١١٦ هـ ، تهذيب التهذيب (٨/٨٩-٩٠) .

[3] - شرح اللالكائي (٥/١٠٧٤-١٠٧٥) .

[4] - تهذيب الآثار للطبري (٢/٦٦٣) .

أصول المرجئة

أصول المرجئة التي ترتكز عليها في معتقداتها هي :

١- أن الإيمان قول بلا عمل أي : أن الإيمان هو التصديق أو التصديق والقول كما سلف في قول السفيانين عنهم . وقال الإمام أحمد : « المرجيء الذي يقول الإيمان قول »[1] .

٢- إن الأعمال ليست من الإيمان . أخرج اللالكائي بسنده عن سفيان الثوري قال : اتقوا هذه الأهواء . قيل له : بين لنا رحمك الله . فقال سفيان : أما المرجئة فيقولون : « الإيمان كلام بلا عمل ، من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فهو مؤمن مستكمل الإيمان ، إيمانه على إيمان جبريل والملائكة ، وإن قتل كذا وكذا ، مؤمن وإن ترك الغسل من الجناية ، وإن ترك الصلاة ، وهم يرون السيف على أهل القبلة »[2] . وعن شعبة قال لشريك : « كيف لا تجيز شهادة المرجئة ؟ . قال : كيف أجيز شهادة قوم يزعمون أن الصلاة ليست من الإيمان »[3] . وعليه فأصحاب المعاصي عندهم مؤمنون كاملو الإيمان بتصديقهم .

٣- أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص[4] . لأن الإيمان عندهم التصديق والقول وقولهم في الإيمان هذا أوقعهم أمام الواقع الحق إذ التصديق بالشيء أي شيء

---

[1] – السنة للخلال (٣/٥٦٥) .

[2] – شرح أصول الاعتقاد (٥/١٠٧١) .

[3] – السنة لعبدالله بن أحمد (٨٣) .

[4] – الملل والنحل (١٤١) .

كان لا يمكن البتة أن يقع فيه زيادة ولا نقص وكذلك التصديق بـــالتوحيد والنبوة[1] .

٤- فما وجدوا لهم مخرجاً إلا نفي الزيادة والنقصان عن الإيمان قـــال شـــيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وأصل الشبهة في الإيمان أن القائلين : أنه لا يتبعض قالوا : إن الحقيقة المركبة من أمور متى ذهب بعض أجزائها انتفـــت تلك الحقيقة ، كالعشرة المركبة من آحاد ، فلو قلنا : إنه يتبعض لـــزم زوال بعض الحقيقة مع بقاء بعضها ، فيقال لهم : إذا زال بعض أجـــزاء المركـــب تزول الهيئة الاجتماعية الحاصلة بالتركيب ، لكن لا يلزم أن يـــزول ســـائر الأجزاء ، والإيمان المؤلف من الأقوال الواجبة والأعمال الواجبـــة الباطنـــة والظاهرة هو المجموع الواجب الكامل ، وهذه الهيئة الاجتماعية تزول بـزوال بعض الأجزاء »[2] .

٥- أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان وهذا فرع عن الذي قبله لأنهم حينما نفـوا الزيادة والنقصان عن الإيمان أثبتوا أنه شيء واحد لا يجوز الشك فيه . قـــال مسعر بن كدام الهلالي[3] : « أشك في كل شيء إلا إيماني »[4] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « الاستثناء في الإيمان سنة عند أصحابنا وأكثر أهل السنة ، وقالت المرجئة والمعتزلة لا يجوز الاستثناء بل هو شك »[5] .

---

[1] - الفصل في الملل والأهواء (٢٣٢/٣) .

[2] - الفتاوى (٢٧٦/١٨) .

[3] - هو مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي أبو سلمة الكوفي روى عنه السفيانان وغيرهمـــا نســـب إلى الإرجاء و وثقه العلماء روى له الستة مات سنة (١٥٣) . تهذيـــب التـــهذيب (١٠٢/١٠-١٠٤) .

[4] - السنة للخلال (٥٧٢/٣ و ٥٧٣) .

[5] - مجموع الفتاوى (٦٦٦/٧) .

أصناف المرجئة

يصنف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله المرجئة إلى ثلاثة أصناف فيقول :

((والمرجئة ثلاثة أصناف : الذين يقولون : الإيمان مجرد ما في القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب ، وهم أكثر فرق المرجئة ... ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي .

والقول الثاني : من يقول : هو مجرد قول اللسان ، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية .

والقول الثالث : تصديق القلب وقول اللسان ، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم))[1] .

فهؤلاء أخروا العمل عن حقيقة الإيمان ، وقالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، و لا يجوز الاستثناء فيه وهذا الصنف هو المراد عند إطلاق المرجئة .

---

[1] – مجموع الفتاوى (١٩٥/٧) بتصرف . وانظر : الفرق بين الفرق (٢٠٢) . والملل والنحل (١٣٩-١٤٦) .

المطلب الثاني

أثر الإرجاء في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

المرجئة فرقة ذات أصول محددة ، ومع ذلك هي متفرقة بين المذاهب والفرق الأخرى ، كالأشاعرة والصوفية والمتكلمين ، وبعض الفقهاء وأهل الحديث فهي ظاهرة بدعية خطيرة ، لتوسعها هذا ، وسبق من أصولها :

١- أن الإيمان : قول بلا عمل ، أي : هو التصديق أو التصديق والقول .

٢- أن الأعمال ليست من الإيمان ، وهذان الأصلان هما اللذان يبنى عليهما ما بعدهما من الأصول ، ومن هنا يكون أثر الإرجاء في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله من وجهين :

أحدهما : أن طوائف المرجئة الغالية قالت : إن الإيمان مجرد المعرفة أو هو المعرفة و القول باللسان ، أو هو القول باللسان فقط ، فمن عرف الله بقلبه ، أو أقر به بلسانه أو جمع بين المعرفة بالقلب والإقرار باللسان ، فهو مؤمن كامل الإيمان ، إذ الإيمان لا يتبعض و لا يتفاضل أهله فيه . لا تضره مع إيمانه معصية كما لا تنفع الكافر مع كفره طاعة[1] .

ومن لازم هذا القول أنه لا يوجد من يُجَاهَدُ في سبيل الله عز وجل فغالب الأمة على هذا المفهوم مؤمنون كاملو الإيمان والجهاد لا يكون إلا ضد الكفار ،

١- مقالات الإسلاميين (١/٢١٣-٢٢٣) الفرق بين الفرق (٢٠٢) الفصل في الملل و الأهواء والنحل (٣/٢٢٧) . الملل والنحل (١٣٩-١٤٥) بتصرف .

ومن الصعب تمييزهم على رأي المرجئة فمنهم « من يزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له ، وترك الاستكبار عليه ، والمحبة بالقلب . فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن وما سوى ذلك من الطاعة فليس من الإيمان و لا يضر تركها حقيقة الإيمان ، ولا يعذب على ذلك إذا كان الإيمان خالصاً واليقين صادقاً .

وزعم إن إبليس كان عارفاً بالله وحده غير أنه كفر باستكباره عليه ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1] . قال : « ومن تمكن في قلبه الخضوع لله ، والمحبة له على خلوص ويقين لم يخالفه في معصية ، وإن صدرت منه معصية فلا تضره بيقينه وإخلاصه ، والمؤمن إنما يدخل الجنة بإخلاصه ومحبته ، لا بعمله وطاعته »[2] .

فمن الذي يطلع على القلوب ويعلم ما فيها من محبة الله والإقرار به إلا الله سبحانه وتعالى ، بل إن من المرجئة من يزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل به فقط ، فلا إيمان بالله إلا المعرفة به ، ولا كفر بالله إلا الجهل به ، وأن قول القائل : « ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ »[3] . ليس بكفر ، ولكنه لا يظهر إلا من كافر »[4] .

ويماثل ذلك في الخطورة والإيهام ما ذكره الأشعري[5] . عن فرقة منهم حيث قال : « والفرقة الثانية عشرة من المرجئة الكرامية أصحاب محمد بن

---

١ - سورة البقرة (٣٤) .

٢ - الملل والنحل (١٤٠) .

٣ - سورة المائدة (٧٣) .

٤ - مقالات الإسلاميين (١/٢١٤) .

٥ - هو : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشير إسحاق الأشعري من نسل الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ، كان من الأئمة المتكلمين والمجتهدين ، تنسب إليه الطائفة الأشعرية . ولكنه رجع والتزم مذهب أهل السنة له مؤلفات كثيرة منها : « مقالات الإسلاميين » و « الإبانة

كرام ، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً ، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين على الحقيقة ، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود باللسان » (١) .

فمن هم الكفار الذين يقاتلون في سبيل الله عزوجل عند هؤلاء الذين خلطوا في الإيمان حتى سموا به المنافقين والمشركين وقصروه على تصديق القلب وإقرار اللسان ؟ .

قال الأشعري : « اختلفت المرجئة في الكفر ما هو ؟ .

فمنهم من يزعم أن الكفر خصلة واحدة ، وبالقلب يكون ، وهو الجهل بالله ، ومنهم من يزعم أن الكفر خصال كثيرة ، ويكون بالقلب وبغير القلب ، والجهل بالله كفر ، وبالقلب يكون ، وكذلك البغض لله والاستكبار عليه كفر ، وكذلك التكذيب بالله وبرسله ، بالقلب وباللسان ، وكذلك الجحود لهم ، والإنكار لهم ونعيهم ، وكذلك الاستخفاف بالله وبرسله كفر ، وكذلك ترك التوحيد إلى اعتقاد التثنية والتثليث ، أو ما هو أكثر من ذلك كفر ، وزعم قائل هذا القول أن الكفر يكون بالقلب وباللسان دون غيرهما من الجوارح وكذلك الإيمان .

وزعم قائل هذا القول أن قاتل النبي و لاطمه لم يكفر من القتل واللطمة ، ولكن من أجل الاستخفاف ، وكذلك تارك الصلاة مستحلاً لتركها إنما كفر بالاستحلال لتركها لا بتركها » (٢) .

عن أصول الديانة ». مات سنة ٣٢٤هـ . الإعلام (٢٦٣/٤) . معجم المؤلفين (٣٥/٧)

١ - مقالات الإسلاميين (٢٢٣/١) .

٢ - المصدر السابق (٢٢٣/١-٢٢٤) .

وحكى ابن حزم قولهم : « إن الكفار إذا كانوا مصدقين بالله تعالى وبنبيهم صلى الله عليه وسلم بقلوبهم ، والتصديق في اللغة التي نزل بها القرآن هو الإيمان ، ففيهم بلا شك إيمان ، فالواجب أن يكونوا بإيمانهم ذلك مؤمنين ، أو أن يكون فيهم إيمانٌ ليسوا بكونه فيهم مؤمنين ، و لابد من أحد الأمرين »[1] .

إن من يعتنق الإرجاء ، ويعتقد هذا المعتقد لا يمكن أن يجاهد في سبيل الله عز وجل ، لأن الإيمان والكفر عنده في القلب ولا يمكنه معرفة ذلك .

بل إنه يؤثر على غيره ممن لم يكن على علم ودراية بمذهب أهل السنة والجماعة ، ويوهن عزمه على الجهاد في سبيل الله عز وجل .

الوجه الثاني في إعاقة الإرجاء عن الجهاد :

أن المرجئة حينما أخروا العمل عن الإيمان ، و قالوا : إن الأعمال ليست من حقيقة الإيمان ، ولا داخلة في مسماه فتحوا الباب على مصراعيه للكسل في العبادة ، والزهد في الطاعة ، فعندما يعلم العبد أنه بإيمانه — أي : بإقرار قلبه أو نطق لسانه ، أو بهما معاً على مذهب المرجئة — يفوز برضى الله عز وجل ويدخل الجنة ، وأن الطاعة لا تزيد في إيمانه ، والمعصية لا تضره يتقاعس عن العمل ، ويزهد في الطاعة .

فلماذا يكلف نفسه ، ويجهدها بالأعمال الشاقة ، وفي مقدمتها الجهاد في سبيل الله عز وجل الذي فيه إزهاق النفس وإتلاف المال ؟. فبإيمانه نال رضا الرب ، وطمع في دار كرامته ، و لم يعد للعمل كبير أهمية ، ما دام الإيمان كاملاً والثواب حاصلاً .

وهم يستندون في مذهبهم هذا إلى نصوص شرعية من الكتاب والسنة زعموا أنها تؤيد مذهبهم وأولها على مرادهم فمن القرآن :

---

[1] - الفصل في الملل (٣/٢٤٥) .

أولا : الآيات التي فيها عطف العمل على الإيمان كقول الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [1] . وقوله : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [3]. وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [4] . وقوله : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ [5] . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [6] . وقوله : ﴿ وَعَدَ

---

١ - سورة البقرة (٢٥) .

٢ - سورة آل عمران (٥٧) .

٣ - سورة النساء (٥٧) .

٤ - سورة المائدة (٩٣) .

٥ - سورة يونس (٤) .

٦ - سورة الكهف (١٠٧) .

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [1] . وقوله : ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [2] .

فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثير في القرآن العزيز جاء فيها عطف الأعمال الصالحة على الإيمان ، وزعموا أن العطف في هذا يقتضي المغايرة فلا تدخل الأعمال الصالحة في مسمى الإيمان .

ثانياً : الآيات التي تجعل القلب محل الإيمان والكفر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ [3] . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [4] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن

---

[1] - سورة النور (٥٥) .

[2] - سورة الطلاق (١١) .

[3] - سورة البقرة (٢٦٠) .

[4] - سورة النحل (١٠٦) .

قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [1] . وقوله : ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [2]. وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [3] . وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[4] . وقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [5] . وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [6] . وأمثال هذه الآيات الكريمة كثير في القرآن الكريم تدل على أن القلب محل للإيمان والكفر ومن هنا تمسك بها المرجئة محتجين بدلالتها — كما زعموا — على خروج العمل عن الإيمان وأن الإيمان مجرد تصديق القلب وإقرار اللسان على اختلاف آرائهم .

قال ابن أبي العز الحنفي[7] : « فمن أدلة الأصحاب لأبي حنيفة رحمه الله : أن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق ، قال تعالى مخبراً عن يوسف : ﴿ وَمَآ

---

1 - سورة الأعراف (١٠١) .

2 - سورة الشورى (٢٤) .

3 - سورة محمد (٢٤) .

4 -سورة الحجرات (٧

5 - سورة الحديد (١٦) .

6 - سورة المجادلة (٢٢) .

7 - هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي فقيه ولي قضاء دمشق له مصنفات كثيرة منها : « التنبيه على مشكلات الهداية في فروع الفقه . وشرح الطحاوية » مات سنة ٧٩٢هـ . الأعلام (٣١٣/٤) . معجم المؤلفين (١٥٦/٧) .

أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [1] . أي : بمصدق لنا ، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك .

ثم هذا المعنى اللغوي ، وهو التصديق بالقلب ، هو الواجب على العبد حقاً لله ، وهو أن يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله ، فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى ، والإقرار شرط إجراء أحكام الإسلام في الدنيا .

هذا على أحد القولين – كما تقدم – ولأنه ضد الكفر ، وهو التكذيب والجحود ، وهما يكونان بالقلب ، فكذا ما يضادهما . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾[2]. يدل على أن القلب هو موضع الإيمان لا اللسان ، ولأنه لو كان مركباً من قول وعمل ، لزال كله بزوال جزئه ، ولأن العمل قد عطف على الإيمان والعطف يقتضي المغايرة ، قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [3] . وغيرها في مواضع من القرآن)) [4] .

ومن السنة النبوية الشريفة استدلوا بالأحاديث التي ظاهرها يدل على أن الإيمان مجرد الإيمان والبعد عن الشرك يدخل الجنة وأن الإيمان في القلب ، مثل :

١- سورة يوسف (١٧) .

٢- سورة النحل (١٠٦) .

٣- سورة البقرة (٢٥) .

٤- شرح العقيدة الطحاوية (٣١٩-٣٢٠) .

١- قوله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل : « وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً »[١] .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » [٢] .

٣- حديث الجارية[٣] . الذي أخرجه الإمام أحمد ومسلم عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أنه قال : « كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُعْتِقُهَا قَالَ ائْتِنِي بِهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا أَيْنَ اللَّهُ قَالَتْ فِي السَّمَاءِ قَالَ مَنْ أَنَا قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ » [٤] . فقد أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بعتقها وقال « فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ » حينما أقرت بأن الله في

---

١ - صحيح مسلم (٢٠٦٨/٤) . كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب (٦) فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى . حديث (٢٢) .

٢ - المسند (١١٢/٣)عن أبي معاوية محمد ين خازم و(٢٥٧/٣) عن عفان بن مسلم عن عبد الواحد بن زياد كلاهما عن الأعمش عن أبي سفيان طلحة بن نافع عن أنس به و(٩١/٦) عن يونس بن محمد بن مسلم عن حماد بن زيد عن المعلى بن زياد وهشام بن حسان ويونس بن عبيد بن دينار عن الحسن البصري عن عائشة به . و(٢٩٤/٦) عن وكيع بن الجراح عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة به وأخرجه أيضاً من طريق شهر به (٣١٥/٦) . والترمذي (٥٣٨/٥) كتاب الدعوات . باب(٩٠) .حديث(٣٥٢٢) . فالحديث صحيح لكثرة طرقه .

٣ - السنة للخلال (٥٧٤/٣) .

٤ - صحيح مسلم (٣٨٢/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة . باب (٧) تحريم الكلام في الصلاة .. حديث (٥٧٣) والمسند (٤٤٧/٥) وهو حديث طويل هذا جزء منه .

السماء وأنه رسول الله ولم يكن رأى لها عمل ، ولم يسألها عن العمل؛ فدل أن الإيمان هو التصديق والإقرار .

٤- حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه يقول صلى الله عليه وسلم : « حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا ، وكان أبو سعيد الخدري يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [1] فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها

---

[1] - سورة النساء (٤٠) .

تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدا ››[1] .

والشاهد في هذا الحديث عند المرجئة هو قوله : ‹‹ ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ›› وقوله : ‹‹ فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ›› . وقوله : ‹‹ هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ›› فزعموا أنه لما لم يكونوا لهم عمل خير قط ، لم يبقى لهم إلا التصديق الذي نفعهم بدخول الجنة بلا عمل وهو ما أشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم : ‹‹ في قلبه مثقال دينار من خير ›› وليس في القلب إلا التصديق .

ومن هذه الأدلة من الكتاب العزيز والسنة الشريفة وأمثالها استنتجت المرجئة أن العمل ليس من الإيمان وأن الإيمان مجرد التصديق أو التصديق والقول . والإيمان ضد الكفر فإذا ثبت أحدهما انتفى الآخر . وأن العمل لو كان يسمى إيمانا لكان من ضيع منه شيئا فقد أضاع الإيمان ووجب أن لا يكون مؤمنا [2] .

وهذا عائق عن الجهاد في سبيل الله عز وجل أيما عائق فما الغاية من الجهاد لدى من يرى أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان . وبما يعرف غير المؤمن إذا حصر الإيمان على مجرد التصديق والقول .

---

[1] - صحيح مسلم (١/١٦٩-١٧١) كتاب الإيمان . باب (٨١) معرفة طريق الرؤية

[2] - الفصل في الملل والأهواء (٣/٢٢٩) .

المبحث الثاني

علاج هذا العائق

يكون علاج هذا العائق بأمرين هما :

الأول : مناقشة أدلة المرجئة ، ورد شبههم ، وبيان وجه الحق في النصوص الشرعية ، فلا يسلم للمرجئة ما فهموه منها . في إخراج الأعمال الظاهرة عن الإيمان ، وجعْل الإيمان في القلب .

مما لا شك فيه أن إيمان القلب هو الأساس وعليه الاعتماد ، ولكن لا يعني هذا أن الإيمان هو تصديق القلب ولا تدخل الأعمال الظاهرة فيه ، والنصوص الشرعية – التي استدل بها أهل الإرجاء – لا يفهم منها هذا ، فالآيات التي ورد فيها عطف العمل على الإيمان وقالوا : إن العطف يقتضي المغايرة ، فلا يكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان ، فلا يسلم لهم ، لأن الإيمان تارة يذكر مطلقاً عن العمل ، وتارة يقرن بالعمل الصالح ، فالمطلق مستلزم للأعمال الصالحة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [1] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [2] . وقوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ

١- سورة الأنفال (٢) .

٢- سورة الحجرات (١٥) .

يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا » (١) . وقوله : « لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ » (٢) .

أما إذا عطف عليه العمل الصالح ، فإن العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراكهما في الحكم الذي ذكر لهما .

والمغايرة على مراتب :

أعلاها : أن يكون متباينين ، ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءاً منه ولا بينهما تلازم كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (٣) . وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (٤) . ونحو ذلك وهذا هو الغالب .

الثاني : أن يكون بينهما تلازم كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (٥) . فإن من يكفر بالله فقد كفر بهذا كله ، فالمعطوف لازم للمعطوف عليه . وكقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ

---

١ - متفق عليه وسبق ص (٣١١) .

٢ - صحيح مسلم (١/٧٤) كتاب الإيمان . باب (٢٢) بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وأن محبة المؤمنين من الإيمان ... حديث (٩٣) .

٣ - سورة السجدة (٤) .

٤ - سورة آل عمران (٣) .

٥ - سورة النساء (١٣٦) .

بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . هما متلازمان ، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل . فصار ملبوساً به ، ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلاً فيلبس الحق بالباطل .

الثالث : عطف بعض الشيء عليه ، كقوله تعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [2] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [3] . فالنبي محمد ، ونوح و إبراهيم ، و موسى وعيسى صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين من جملة النبيين وعطفهم عليهم .

الرابع : عطف الشيء على الشيء ، لاختلاف الصفتين ، كقوله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ [4] . وقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾ [5] [1] .

---

١ - سورة البقرة (٤٢) .

٢ - سورة البقرة (٢٣٨) .

٣ - سورة الأحزاب (٧) .

٤ - سورة غافر (٣) .

٥ - سورة الأعلى (١-٤) .

وإذا تبين أن العطف في القرآن الكريم وفي سائر الكلام يكون بهذه المراتب ، فكيف يحصر على وجه واحد منها دون غيره بلا مسوغ لا من النصوص الشرعية ، ولا من اللغة العربية . بل إن الإيمان يطلق في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة ، ويراد به ما يراد بلفظ « البر » و « التقوى » و « الدين » فإن هذه الأسماء تتنوع مسمياتها بالاطلاق والتقيد فالتقوى مثلاً : إذا أفردت دخل فيها فعل كل مأمور به وترك كل محذور كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[2] .

وقد يقرن بها اسم آخر كقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[3] . فقوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ . مثل قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[4] . فعطف قوله على الإيمان ، كما عطف القول السديد على

---

[1] - مجموع الفتاوى (٧/١٧٢-١٧٧) . شرح الطحاوية (٣٢٧-٣٢٨) بتصرف .

[2] - سورة القمر (٥٤-٥٥) .

[3] - سورة الأحزاب (٧٠) .

[4] - سورة البقرة (٢٨٥) .

التقوى ، ومعلوم أن التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد ، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول[1].

وقد جاء إطلاق اسم الإيمان على الأعمال الظاهرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾[2] . فالإيمان هنا يراد به الصلاة إلى بيت المقدس[3] .

وفيما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس : « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع الإيمان بالله ثم فسرها لهم : شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا إلي خمس ما غنمتم وأنهى عن الدباء[4] والحنتم[5] والمقير[6] والنقير[7] »[8] . وعند الحاكم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله رجل ، فقال : يا رسول الله ما الإيمان ؟ .

1 - مجموع الفتاوى (٧/١٦٣-١٦٤) باختصار .

2 - سورة البقرة (١٤٣) .

3 - مختصر تفسير البغوي (١/٤٩) . وانظر : صحيح البخاري (١/١٥) كتاب الإيمان . باب (٣٠) الصلاة من الإيمان . حديث الباب .

4 - الدباء : القرع واحدها دباءة كانوا ينتبذون فيها فتسرع الشدة في الشراب . النهاية (٢/٩٦) .

5 - الحنتم : جرار مدهونة خضر كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة . النهاية (١/٤٤٨) .

6 - المقير : الإناء المطلي بالقار ينتبذ فيه . النهاية (٢/٣٠٤) .

7 - النقير : أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء ليصير نبيذا مسكرا . النهاية (٥/١٠٤) .

8 - صحيح البخاري (١/١٣٣) كتاب مواقيت الصلاة . باب(٢) قول الله تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه ..﴾ الآية حديث الباب . ومسلم (١/٤٦) كتاب الإيمان . باب(٦) الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ...حديث(٢٣) . واللفظ للبخاري .

قال : « إذا سرتك حسنتك ، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن » قال : يا رسول الله ، ما الإثم ؟ . قال : « إذا حاك في صدرك شيء فدعه » [1] .فدل ذلك على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان ، وأنها من شعبه كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » [2] .

وأما استدلال المرجئة بقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [3] . وغيرها من الآيات الكريمة التي توحي بأن القلب محلاً للإيمان ، على إخراج الأعمال من مسمى الإيمان فليس بصواب ، لأن الآيات الكريمة وإن دلت على أن القلب محل للإيمان ، فهي لا تنفي دخول العمل في حقيقة الإيمان ، و لا تعارض تلازم الأعمال الظاهرة بأعمال القلوب ، لأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح ، فإن هذه من لوازم الإيمان التام [4] .

والنصوص الشرعية ناطقة بذلك ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » . وقوله صلى الله عليه

---

1 - المستدرك (١/١٤) . وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي قال الألباني : (إنما هو على شرط مسلم وحده ، فإن زيد بن سلام وجده ممطوراً لم يخرج لهما البخاري في صحيحه) . سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٥٠) .

2 - صحيح البخاري (١/٨) كتاب الإيمان . باب (٣) أمور الإيمان . حديث الباب .

3 - سورة البقرة (٢٦٠) .

4 - انظر : شرح العقيدة الطحاوية (٣٢١) .

وسلم : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » [2] .

فبينت هذه الأحاديث الشريفة أن الإيمان له شعب متعددة ، وكل شعبة منها تسمى إيماناً ، وأعلى هذه الشعب قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأن حسن الخلق من أكمل صفات المؤمنين . كما أن تغيير المنكر

١- صحيح لغيره سنن الترمذي (٤٦٦/٣) كتاب الرضاع . باب(١١) ما جاء في حق المرأة على زوجها حديث(١١٦٢) قال : حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ به وقال : « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ » .وأحمد (٤٧٢/٢) عن يحيى بن سعيد القطان عن محمد بن عمرو به . ومن طريق أحمد رواه أبو داود (٢١٩/٤) كتاب السنة . باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه حديث (٤٦٨٢) . وأحمد (٢٥٠/٢) وابن حبان في صحيحه (٢٢٧/٢) عن عبد الله بن محمد الأزدي كلاهما عن عبدالله بن إدريس عن محمد بن عمرو به . وأخرجه الحاكم (٣/١) من طريق محمد بن عمرو أيضاً . ومحمد بن عمرو هو : ابن علقمة بن وقاص الليثي المدني ، صدوق له أوهام سبق ص(٢٠٨) . وبقية رجاله ثقات. فهو حسن . وأخرجه أحمد (٥٢٧/٢) والدارمي (٣٢٣/٢) كتاب الرقاق عن عَبْدِ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ المقريء حَدَّثَنَا سَعِيدُ بن أبي أيوب حَدَّثَنِي ابْنُ عَجْلَانَ عَنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ به. وابن عجلان : صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة سبق ص (١١٢) . وبقية رجاله ثقات . ومن طريق عبد الله المقريء به الحاكم وقال بعد الحديثين : « هذا حديث صحيح ، لم يخرج في الصحيحين وهو على شرط مسلم فقد استشهد بأحاديث للقعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة ومحمد بن عمرو ، وقد احتج بمحمد بن عجلان . فالحديث إذن حسن لذاته صحيح لغيره بمجموع طرقه .

٢- صحيح مسلم (٦٩/١) كتاب الإيمان باب(٢٠) بَاب بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الإِيمَانِ وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَأَنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ . حديث(٧٨) .

باليد واللسان من الإيمان . إلى غير ذلك من النصوص التي تدل على تلازم الأعمال الظاهرة بأعمال القلوب ، وأن قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل .

فلعل الآيات الكريمة إنما ركزت على إيمان القلب ، لأن القلب هو المدير المحرك للجوارح ، وبصلاحه صلاح الجسد كله ، كما أن بفساده فساد الجسد كله ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ »[1] .

ولهذا يقال : القلب ملك الأعضاء ، وبقية الأعضاء جنوده ، وهم مع هذا جنود طائعون له ، منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره ، لا يخالفونه في شيء من ذلك ، فإن كان الملك صالحاً ، كانت هذه الجنود صالحة ، وإن كان فاسداً ، كانت جنوده بهذه المشابهة فاسدة [2] . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلاَ يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » [3] .

---

١ - صحيح البخاري (١/١٩) كتاب الإيمان . باب (٢٩) فضل من استبرأ لدينه حديث الباب . صحيح مسلم (٣/١٢٢٠) كتاب المساقاة . باب (٢٠) أخذ الحلال وترك الشبهات حديث (١٠٧) واللفظ لمسلم وأوله « إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ » .

٢ - جامع العلوم والحكم (١٠٥) .

٣ - حسن المسند (٣/١٩٨). قال: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ قَالَ أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ مَسْعَدَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ به ، وهذا إسناد حسن .فزَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ بن الريان العُكلي أبو

فدل هذا على تلازم صلاح القلب وصلاح الجوارح ، وأن صلاح الجوارح مرهون بصلاح القلب وكذا العكس ، عن معاذ بن أنس الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ وَأَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَنْكَحَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ » [1] .

ومعنى هذا : أن كل حركات القلب والجوارح إذا كانت كلها لله فقد كَمُلَ إيمان العبد بذلك باطناً وظاهراً ، ويلزم من صلاح حركات القلب ،

الحسين ، وثقه ابن المديني وابن أبي شيبة قال أبو حاتم صدوق صالح ، قال الحافظ : صدوق يخطيء في حديث الثوري مات سنة ٢٣٠هـ روي له مسلم والأربعة والبخاري في القراءة . التقريب (٢٢٢) . وعَلِيُّ بْنُ مَسْعَدَةَ الْبَاهِلِيُّ أبو حبيب وثقه أبو داود الطيالسي ، وقال ابن معين وأبو حاتم لابأس به ، وقال البخاري فيه نظر ، واختلف فيه أبو داود السجستاني فقال ثقة ، وقال أخرى ضعيف . قال الحافظ : صدوق له أوهام روى له البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه . التقريب (٤٠٥) .

١- صحيح لغيره أخرجه الإمام (٤٤٠/٣) والترمذي (٦٧٠/٤) كتاب صفة القيامة . باب (٦٠) حديث (٢٥٢١) . عن عبَّاسِ بن محمد الدُّورِيُّ كلاهما عن عَبْدِ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ المقريء حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ أَبِي مَرْحُومٍ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ مَيْمُونٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : الحديث وقال الترمذي : حديث حسن . والحاكم (١٦٤/٢) من طريق عبدالله بن يزيد به . وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه (١٦٤/٢) . قلت : في سنده عبدالرحيم بن ميمون ، أبو مرحوم المدني لم يخرج له الشيخان قال عنه الحافظ : صدوق زاهد روى له الأربعة مات ١٤٣هـ التقريب (٣٥٤) . وسهل بن معاذ بن أنس الجهني لم يخرجا له في الصحيح وإنما أخرج له البخاري في الأدب المفرد كما ذكر هذا الحافظ في التقريب (٢٥٨) وقال : « لا بأس به » . وبقية رجاله ثقات . وعليه فالحديث ليس على شرط الشيخين ، و لكن إسناده حسن كما قال الترمذي وقد أخرجه أبو داود (٢١٩/٤) كتاب السنة . باب في رد الإرجاء حديث (٤٦٨١) . من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه . بسند حسن إلا أنه ليس فيه « وأنكح لله » .

صلاح حركات الجوارح ، فإذا كان القلب ليس فيه إلا إرادة الله ، وإرادة ما يريده ، لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده الله ، فسارعت إلى ما فيه رضاه ، وكفت عن ما يكرهه ، وعن ما يخشى أن يكون مما يكرهه ، وإن لم يكن يتيقن ذلك [1] .

ولذا ركزت الآيات الكريمة على إيمان القلب ، لا لتخرج العمل عن الإيمان كما تزعم المرجئة .

وأما استدلالهم من السنة النبوية الشريفة على خروج العمل عن مسمى الإيمان ، فمردود عليهم . لأن قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه عز وجل : « وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً » . وما في معناه من الآيات والأحاديث لا يدل على أن مجرد الإيمان والبعد عن الشرك يدخل الجنة ، وأن الإيمان في القلب ولا يدخل فيه العمل كما تدعي المرجئة .

بل إن هذا الحديث وأمثاله من النصوص الشرعية تدل على أن المسلم إذا مات طائعاً لله ممتثلاً لأوامره ، مجتنباً لنواهيه ومات على التوحيد سالماً من الشرك ، وقد وقع في بعض المعاصي ، فهو تحت مشيئة الله عز وجل ، إن شاء عفا عنه وغفر له بمنه وفضله وهو ذو الفضل والجود ، وإن شاء عذبه عليها بحكمه وعدله و لا يظلم ربك أحداً ، ثم يدخله بعد ذلك الجنة كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [2] . وهذا هو

---

[1] - جامع العلوم والحكم (١٠٧) .

[2] - سورة النساء (١١٦) .

المذهب الحق الذي عليه السلف الصالح ، وتؤيده النصوص من الكتاب والسنة . لا ما فهمته المرجئة من تأخير العمل عن الإيمان ، وأن مجرد الإيمان يدخل الجنة .

وإذا وقفنا مع الحديث نفسه وجدنا أن أوله يرد عليهم ما فهموه منه حيث يقول تعالى فيه : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »[1] . فبين فيه تقوب العباد إليه بالطاعة وأنه يجازيهم بمضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها ، أو أزيد ، وأما السيئة فيجازي بمثلها أو يغفرها كرماً منه وفضلاً ثم يحثهم على التوبة والطمع في رحمته سبحانه ، ويقطع عنهم اليأس والقنوط فيقول لهم : « وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً ».

وأما الحديث الثاني الذي قال فيه صلى الله عليه : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » فالجواب عنه داخل في الجواب عن الآيات الكريمة التي ركزت على إيمان القلب ، وغاية ما في هذا الحديث الشريف أن المصطفى صلى الله عليه وسلم دعا ربه سبحانه وتعالى أن يثبت قلبه على دينه ، لأن القلب المدير للجوارح كما سلف ، وليس فيه ما ينفي دخول الأعمال الظاهرة في الإيمان . بل إن قوله صلى الله عليه وسلم : « على دينك » يشمل طلب الثبات على دين الإسلام الشامل لأعمال القلوب والجوارح ، من قول أو فعل أو اعتقاد وإنما اختص القلب بالذكر لما سبق بيانه والله أعلم .

---

[1] - سبق تخريجه ص (٦٥٩) .

وأما حديث الجارية : فليس فيه حجة لهم ، بل هو حجة عليهم كما قال بذلك الإمام أحمد [1] . فأحكام الإسلام تبنى على الظاهر ، والذي يظهر من كلام هذه الجارية حينما أجابت النبي صلى الله عليه وسلم قالت : في السماء ، وقالت للنبي أنت رسول الله أنها مؤمنة الإيمان المميز لها عن الكفر ، وتجري عليها بموجبه الأحكام الدنيوية ، وهذا هو المراد بقوله : « فإنها مؤمنة » ، فهي حين تقر بذلك فحكمها ، حكم المؤمنة [2] . لا الإيمان الكامل في الباطن والظاهر الذي يترتب عليه الثواب والعقاب في الآخرة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رد حجة المرجئة بهذا الحديث : « وهذا لا حجة فيه ، لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يحكم لصاحبه من أهل السعادة في الآخرة » [3] . وقال أيضاً : « والمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم : إنما أخبر عن تلك الأمة بالإيمان الظاهر الذي علقت به الأحكام الظاهرة ، وإلا فقد ثبت عنه أن سعداً لما شهد لرجل أنه مؤمن قال : « أو مسلم » [4] . وكان يظهر من الإيمان ما تظهر الأمة وزيادة فيجب أن يفرق

---

١ - السنة للخلال (٣/٥٧٥) .

٢ - المصدر السابق .

٣ - مجموع الفتاوى (٧/٢٠٩-٢١٠) .

٤ - أخرج البخاري بسنده عَنْ سَعْدٍ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فَتَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا ؟ . فَقَالَ : « أَوْ مُسْلِمًا » ؟ . فَسَكَتُّ قَلِيلاً ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ : مَا لَكَ عَنْ فُلاَنٍ فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا ؟ . فَقَالَ : « أَوْ مُسْلِمًا » ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي ، وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : « يَا سَعْدُ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ » صحيح البخاري (١/١٢) كتاب الإيمان . باب(١٩) إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو

بين أحكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا ، وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب » (١) .

وبهذا يعلم بطلان دعوى المرجئة في خروج العمل عن الإيمان واحتجاجهم بهذا الحديث . وأن هذا الحديث من باب قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » (٢) .

فاكتفى صلى الله عليه وسلم بظهور هذه الأمور في حرمة الدم والمال ومعاملة من يظهرها كغيره من المسلمين وتفويض باطنه إلى الله عز وجل الذي يطلع على السرائر ، وما تكن الضمائر .

قال ابن حجر رحمه الله في شرحه : « وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة و الحكم بما يقتضيه الظاهر » (٣) .

الخوف من القتل حديث الباب وأخرجه مسلم (١/١٣٢) كتاب الإيمان . باب(٦٨) تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي على القطع بالإيمان من غير دليل قاطع حديث (٢٣٧) .

١ - مجموع الفتاوى (٧/٢١٥) .

٢ - صحيح البخاري (١/١١-١٢) كتاب الإيمان . باب (١٧) . ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ . حديث الباب . وصحيح مسلم (٣) كتاب الإيمان . باب(٨) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث (٣٦) .

٣ - فتح الباري (١/٧٧) .

وأما استدلال المرجئة بحديث الشفاعة على خروج العمل من الإيمان ، فهو استدلال خاطئ ، والجواب عنه بما يلي :

الأول : بتأمل الحديث الشريف وما في معناه من الأحاديث نجد ما يرد عليهم هذا الاستدلال الخاطئ كقوله صلى الله عليه وسلم في هذا عن المؤمنين الذي يشفعون : « يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ فَيُقَالُ لَهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ » . وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة في آخر من يدخل الجنة : « حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُود تَأْكُلُ النَّارُ مِن ابْنِ آدَمَ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُود حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُود فَيُخْرَجُونَ مِنَ النَّارِ وَقَدِ امْتَحَشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاة فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ »[1] .

فبين ذلك أن هؤلاء الشفعاء يشفعون في أقوام دخلوا النار ، وكانت لهم أعمال صالحة في الدنيا ، يعرفونهم بها ، وعليهم علامات منها ، عرفوا بها وهم في النار كأثر السجود الذي لا تأكله النار ، وهو دليل الصلاة . وأن آخر من يدخل الجنة هؤلاء المشفوع لهم الذين أبطأت بهم أعمالهم ، قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه أبو هريرة وحذيفة عنه صلى الله عليه وسلم في الشفاعة

[1] - صحيح البخاري (١/١٩٥-١٩٧) كتاب الأذان . باب(١٢٩) فضل السجود حديث البلب . صحيح مسلم : (١/١٦٥) . كتاب الإيمان . باب (٨١) معرفة طريق الرؤية . حديث (٢٩٩) واللفظ له .

بدخول الجنة : « فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ » . قَالَ : قُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ ؟ . قَالَ : « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا ، قَالَ : وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ[1] نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ[2] فِي النَّارِ »[3] .

وهذا نص صريح في أن الثواب والعقاب مرتب على الأعمال التي يزيد بها الإيمان إن صلحت ، أو ينقص إن كانت فاسدة ، ولا يمكن تأخيرها عنه . كما أنها لا تنفع بدونه عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ ؟ . قَالَ : « لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ »[4] .

الثاني : قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : « فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ » . لا يفهم منه ما زعمته المرجئة من أن المراد

١- خدش الجلد : قشره بعود أو نحوه . وخدشه يخدشه خدشاً . والخدوش جمعه . النهاية : (١٤/٢) . مختار الصحاح (١٧٠) .

٢- مكدوس : أي مدفوع ، وتكدَّس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط . النهاية (١٥٥/٤) .

٣- صحيح مسلم (١٨٦/١-١٨٧) . كتاب الإيمان . باب (٨٤) . أدنى أهل الجنة منزلة فيها . حديث (٣٢٩) .

٤- صحيح مسلم (١٩٦/١) كتاب الإيمان . باب (٩٢) الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل . حديث (٣٦٥) .

بالخير إيمان القلب – بل يراد به الأعمال قال القاضي عياض رحمه الله : « قيل معنى الخير هنا : اليقين . قال : والصحيح أن معناه : شئ زائد على مجرد الإيمان ، لأن الإيمان الذي هو التصديق لا يتجزأ ، وإنما يكون هذا التجزؤ لشئ زائد عليه من عمل صالح ، أو ذكر خفي ، أو عمل من أعمال القلوب من شفقة على مسكين أو خوف من الله تعالى ، ونية صادقة ... وإنما الآثار على أنه أذن لمن عنده شئ زائد على مجرد الإيمان ، وجعل للشافعين من الملائكة والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم دليلا عليه »[1] .

ثم إن استدلالهم بهذا يناقض أصلهم في القول بأن الإيمان : هو تصديق القلب ، وهو لا يزيد ولا ينقص ، وأهله فيه سواء ، فكيف إذن يوزن بمثقال دينار ؟ إذن معنى ذلك أن التصديق متفاوت ، فقد يرتفع في القلب ، وينخفض . ولو قالوا بدخول الأعمال في الإيمان ، وأن زيادة الإيمان ونقصه بحسب صلاحها وعدمه لسلموا من هذا التناقض .

الثالث : قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : « لم يعملوا خيرا قط » . لا ينفي دخول العمل في الإيمان ، ولا يعني أن مجرد الإيمان كاف بدون عمل ، بل لعل الله عز وجل اطلع على صدق إيمان أولئك ، وقوة عزمهم على العمل ، وإخلاصه لله عز وجل ، ولكن حال بينهم وبينه ما يمنعهم ، من مرض مقعد ، أوموت مجهز فلم يعملوا للمانع . فأخرجهم الله سبحانه وتعالى من النار لعلمه بحالهم ، الخافي على غيره ، وهو الذي يعلم السر وأخفى ، كما غفر سبحانه لقاتل المائة ، عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل

---

[1] شرح صحيح مسلم (٣١/٣) .

الأرض ، فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ . فقال : لا . فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ . فقال : نعم . ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ . انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت : ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت : ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[1] .

فهذا لم يعمل خيرا قط ، ولكن لما صدق في إيمانه وأخلص في توبته ، وعزم على العمل تداركته رحمة الله عز وجل فغفر له . وشتان بين من كان عازما على العمل ، راغبا وبين من يتركه تكاسلا واتكالا على إيمانه كما تزعم المرجئة .

وبهذا يظهر خطأ المرجئة في استدلالهم بتلك الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ، على خروج العمل عن مسمى الإيمان ، وأن معتقدهم هذا غير صواب ، بل العمل الصالح من الإيمان وكلما زاد الصالحات زاد الإيمان .

وأما شبهتهم : أن الإيمان ضد الكفر إذا ثبت أحدهما انتفى الآخر . فجوابه : أن هذا الكلام ليس على إطلاقه لأن الإيمان اسم مشترك يقع على معان ، منها

---

[1] - صحيح البخاري (٤/١٤٩) كتاب الأنبياء . باب(٥٤) الحديث (٥) . وصحيح مسلم (٤/٢١١٨)كتاب التوبة . باب(٨) قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . حديث(٤٦) .واللفظ له .

: ما يكون الكفر ضدا له ، كالاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان . فمن اعتقد الكفر وعمل به فهذا كفر اعتقادي ضد الإيمان . ومنها : ما يكون الفسق ضدا له ، لا الكفر كالأعمال المفروضة ، فإن تركها من غير إنكار لوجوبها ، فسق لا كفر . ومنها : ما يكون الترك ضدا له لا الكفر ولا الفسق ، وهو ما كان من الأعمال تطوعا ، فإن تركه ضد العمل وليس فسقا ولا كفرا [1] .

وأما قولهم : « أن العمل لو كان يسمى إيمانا لكان من ضيع منه شيئا فقد أضاع الإيمان ووجب أن لا يكون مؤمنا » . فيقال لهم : الأسماء في الشريعة الإسلامية توقيفية ، فلا نسمي اسما إلا أن يأمرنا الله به ، أو يبيحه لنا ، فلا ندري مراد الله إلا بوحيه ، فليس لنا أن نسمي مؤمنا إلا من سماه الله ، و لا نسقط الإيمان بعد وجوبه إلا عمن أسقطه الله ، وبعض الأعمال سماها الله إيمانا ، ولم يسقط اسم الإيمان عن تاركها . فلا نتعدى ذلك . ولكن من ترك شيئا من الأعمال التي سماها الله إيمانا يكون مفرطا ، قد ضيع بعض إيمانه بضياع تلك الأعمال ، و لم يكن مضيعا للإيمان كله والله أعلم [2] .

---

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/٢٥٥) . بتصرف .

[2] انظر : المصدر السابق (٣/٢٢٩-٢٣٠) .

الأمر الثاني في علاج هذا العائق :

هو لزوم منهج أهل السنة والجماعة في باب الإيمان ومكانة الأعمال منه . فالإيمان عندهم :

في اللغة : التصديق . وفي الاصطلاح الشرعي : اعتقاد بالقلب ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح[1] . وشرح ذلك أن الإيمان يكون بثلاثة أمور :

أ – يكون بالقلب وهو : الاعتقاد ويشمل أعمال القلوب كالحب والرجاء والخوف والخشية واليقين والتقوى ونحو ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[3]. وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[4] . وقوله تعالى : ﴿ مَّنْ

---

١ – صحيح البخاري (٧/١) كتاب الإيمان . الباب الأول . شرح أصول اعتقاد أهل والسنة والجماعة للالكائي (٤/٩١١) .

٢ – سورة الحجرات (١٤).

٣ – سورة الحجرات (٧) .

٤ – سورة الحج (٣٢) .

خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (١) . وقول الله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ (٢) . أي : خائفة (٣) .

فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثير في كتاب الله عز وجل تدل على أن الإيمان يكون بالقلب ، وأن من أعمال القلوب الخوف والرجاء والحب والتقوى وغيرها .

ب – يكون الإيمان باللسان : وهو قوله ونطقه ، وأعظم ذلك قول : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّـهُ فَإِذَا قَالُوهَا وَصَلَّوْا صَلاَتَنَا وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا

---

١ - سورة ق (٣٣) .

٢ - سورة النازعات (٨) .

٣ - تفسيير ابن كثير (٤/٤٩٨) .

٤ - سورة الحجرات (١٤) .

٥ - سورة النور (٥١) .

دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » [1] . وقوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ » [2] .

ج – يكون بالجوارح : وهو ما تقوم به من أعمال صالحة ، يتقرب بها إلى الله عز وجل سواء كانت فرضاً أو تطوعاً ، كالصلاة والزكاة والصوم والحج والذبح والنذر والجهاد والصدقة وغير ذلك من أنواع الطاعات الكثيرة ، أو ما تجتنب من المعاصي كالسرقة والزنا وقتل النفس التي حرم الله والغش وغيرها من المعاصي التي يكون اجتنابها والبعد عنها إيمان . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [3].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

[1] صحيح البخاري (١/١٠٢-١٠٣) كتاب الصلاة .باب(٢٨) فضل استقبال القبلة حديث (٢) وسنن الترمذي (٥/٤) كتاب الإيمان . باب(٢) ما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم أمرت بقتالهم ... حديث (٢٦٠٨) واللفظ للبخاري .

[2] متفق عليه سبق تخريجه ص (٦٦٧) . واللفظ لمسلم .

[3] سورة الأنفال (٢-٤) .

ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ

١- سورة الحجرات (١٥) .

٢- سورة السجدة (١٥-١٦) .

مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [١] .

إن هذه الآيات الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الإيمان يكون بعمل الجوارح فعلا وتركا ، وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم كما في حديث وفد عبدالقيس السالف [٢] . وتلك هي أعمال الجوارح . كما سمي العمل إيمانا حينما سئل صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي العمل أفضل ؟ . فقال : « إيمان بالله ورسوله » . قيل : ثم ماذا ؟. قال : « الجهاد في سبيل الله قيل ثم ماذا قال حج مبرور »[٣].

وخلاصة ذلك ، أن الإيمان : اعتقاد وقول وعمل ، فالعمل جزء من الإيمان ، ويتناوله اسم الإيمان حقيقة قال ابن حزم رحمه الله : « أصل الإيمان كما قلنا في اللغة : التصديق بالقلب وباللسان معا . بأي شيء صدق المصدق ، لا شيء دون شيء البتة إلا أن الله عز وجل على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أوقع لفظة

---

١ - سورة الفرقان (٦٣-٧٤) .

٢ - ص (٦٦٦) .

٣ - صحيح البخاري (١٢/١) كتاب الإيمان . باب (١٨) من قال إن العمل من الإيمان حديث الباب . وصحيح مسلم (٨٨/١) كتاب الإيمان . باب (٣٦) بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال . حديث (١٣٥) . واللفظ للبخاري .

الإيمان على العقد بالقلب لأشياء محدودة مخصوصة معروفة ، لا على العقد لكل شيء . وأوقعها أيضاً تعالى على الإقرار باللسان بتلك الأشياء خاصة لا بما سواها.

وأوقعها أيضاً على أعمال الجوارح لكل ما هو طاعة له تعالى فقط ، فلا يحل لأحد خلاف الله تعالى فيما أنزله وحكم به ، وهو تعالى خالق اللغة و أهلها فهو أملك بتصريفها ، وإيقاع أسمائها على ما يشاء »[١] .

ويقول عمر بن عبدالعزيز رحمه الله[٢] : « إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان »[٣] .

وقال الأوزاعي[٤] : « لا يستقيم الإيمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة فكان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان ، والعمل من الإيمان ، والإيمان من العمل ، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها . وتصديقه العمل فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق ذلك بعمله ، فذلك العروة

---

١ - الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/٢٣٠-٢٣١) .

٢ - هو عمر بن عبد العزيزبن مروان بن الحكم الأموي أمير المؤمنين ، ولي إمرة المدينة للوليد ، وولي الخلافة فعد من الخلفاء الراشدين مات سنة ١٠١هـ . التقريب(٤١٥) .

٣ - صحيح البخاري (١/٨) كتاب الإيمان . باب (١) قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس . علقه بصيغة الجزم وانظر تغليق التعليق (١/١٩) .

٤ - هو : عبدالرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي الفقيه ، ثقة عابد جليل من السابعة مات سنة ١٥٧هـ ، روى له الجماعة . التقريب (٣٤٧) تهذيب التهذيب (٦/٢١٦) .

الوثقى التي لا انفصام لها ، ومن قال بلسانه و لم يعرف بقلبه و لم يصدقه بعمله لم يقبل منه ، وكان في الآخرة من الخاسرين ›› [1] .

وقال زيد بن أسلم[2] : ‹‹ لابد لهذا الدين من أربع : دخول في دعوة المسلمين ، ولابد من الإيمان وتصديق بالله وبالمرسلين أولهم و آخرهم ، والجنة والنار ، والبعث بعد الموت ، ولابد من أن تعمل عملاً صالحاً تصدق به إيمانك ›› [3] .

وقال البخاري : ‹‹ كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة ، و لم أكتب إلا عن من قال : الإيمان قول وعمل ، و لم أكتب عن من قال الإيمان قول ›› . وقال أيضاً ‹‹ الإيمان : قول وعمل بلا شك ›› [4] .

ونقل اللالكائي عن الشافعي قوله : ‹‹ كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم : أن الإيمان : قول وعمل ونية ولا يجزيء واحد من الثلاثة عن الآخر ›› [5] .

فمذهب أهل السنة والجماعة أن العمل من الإيمان وإن اختلفت ألفاظهم في تفسير الإيمان إلا أن معناها واحد ، فتارة يقولون : هو قول وعمل ، وتارة

---

١ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٥٦/٥) .

٢ - هو : زيد بن أسلم العدوي أبو أسامة ويقال : أبو عبدالله المدني الفقيه مولى عمر . قال يعقوب بن شيبة : ثقة من أهل العلم والفقه وكان عالماً بتفسير القرآن مات سنة ٣١٢هـ . تهذيب التهذيب (٣٤١/٣-٣٤٢) .

٣ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٢٩/٤) .

٤ - المصدر السابق (٩٥٩/٥) .

٥ - المصدر السابق (٩٥٧/٥) .

يقولون : قول وعمل ونية ، وتارة يقولون : قول وعمل ونية واتباع السنة . وتارة يقولون : قول باللسان واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح ، وكل هذا صحيح ويوجه ابن تيمية رحمه الله ذلك بقوله : « والمقصود هنا أن من قال من السلف : الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر ، أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال : قول وعمل ونية ، قال : القول : يتناول الاعتقاد ، وقول اللسان ، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك ، ومن زاد اتباع السنة ، فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة ، و أولئك لم يريدوا كل قول وعمل ، إنما أرادوا ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل . والذين جعلوه أربعة أقسام : فسروا مرادهم ، كما سئل سهل بن عبدالله التستري[1] عن الإيمان ما هو ؟. فقال : قول وعمل ونية وسنة ، لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر ، وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق ، وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة »[2] .

زيادة الإيمان ونقصانه :

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وقد أورد ابن تيمية رحمه الله كثيرا من أقوالهم في ذلك حيث يقول : « وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه (يعني في الإيمان) عن الصحابة ، و لم

---

[1] - هو : سهل بن عبدالله بن يونس أبو محمد التستري الصوفي الزاهد له كلمات نافعة ومواعظ حسنة . من مؤلفاته : كتاب دقائق المحبين وكتاب مواعظ العارفين مات سنة ٢٨٣هـ . الفهرست (٢٦٣) . سير أعلام النبلاء (١٣/٣٣٠-٣٣٣) .

[2] - مجموع الفتاوى (٧/١٧٠-١٧١) . وكتاب الإيمان (١٦٢-١٦٣) .

يعرف فيه مخالف من الصحابة ، فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد ابن سلمة ، عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الإيمان يزيد وينقص ، قيل له : وما زيادته وما نقصانه ؟. قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه[1] . وروى إسماعيل بن عياش ، عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال : الإيمان يزيد وينقص[2] .

و روى إسماعيل بن عياش ، عن صفوان بن عمرو بن عبدالله بن ربيعة الحضرمي ، عن أبي هريرة قال : الإيمان يزيد وينقص[3] .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن ذر قال كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه : هلموا نزداد إيمانا فيذكرون الله عزوجل[4] .

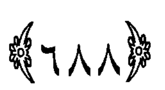
---

١ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/١١) والسنة لعبدالله بن أحمد (٣١٥/١ و ٣٣٠) والشريعة للآجري (١١١) . رووه من طرق عن حماد بن سلمة عن جعفر الخطمي عن أبيه عن جده عمير بن حبيب بن خماشة . وذكر ابن حجر أن البغوي أخرجه موقوفا . وقال ابن السكن تفرد به حماد بن سلمة . وأن ابن شاهين أخرجه من وجه آخر . الإصابة (٣١/٣) .

٢ - أخرجه ابن ماجة (٢٨/١) المقدمة باب (٩) في الإيمان . حديث (٧٥) . والسنة لعبدالله (٣١٤/١) .

٣ - أخرجه ابن ماجة (٢٨/١) المقدمة باب (٩) في الإيمان . حديث (٧٤) وفيه : " عن أبي هريرة وابن عباس قالا.. " . والسنة لعبدالله (٣١٤/١) . والشريعة للآجري (١١١) .

٤ - مصنف ابن أبي شيبة (٢٦/١١) .



وقال أبو عبيد : في حديث علي : إن الإيمان يبدأ لمظة في القلب ، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبدالله ، عن عمرو بن هند الجملي عن علي[1] قال الأصمعي : اللمظة مثل النكتة أو نحوها .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن هلال عن عبدالله عن عكيم قال : سمعت ابن مسعود يقول في دعائه : اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفقها [2] .

و روى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال : كان معاذ بن جبل يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى[3] .

وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم و نزول القرآن كله .

وصح عن عمار بن ياسر أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : الإنصاف من نفسه ، والإنفاق من الإقتار ، وبذل السلام للعالم ، ذكره البخاري في « صحيحه » [4] . وقال جندب بن عبدالله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا [5] .

---

١ - أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/١١-١٢) . وفيه « نقطة » بدل « لمظة » .

٢ - أورده الهيثمي في المجمع (١٨٥/١٠) وقال : رواه الطبراني وإسناده جيد .

٣ - و رواه ابن أبي شيبة عن وكيع حدثنا الأعمش عن جامع به المصنف (٢٥/١١) .

٤ - (١٢/١) كتاب الإيمان . باب(٢) السلام من الإسلام قال : وقال عمار ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان الإنصاف من نفسك وبذل السلام للعالم والإنفاق من الإقتار .

٥ - قول جندب أخرجه ابن ماجه (٢٣/١) المقدمة . باب (٩) في الإيمان . حديث (٦١) . قال في مصباح الزجاجة (١٢/١) : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات .

والآثار في هذا كثيرة ، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة [1] .

ويستمد السلف معتقدهم هذا من نصوص الكتاب والسنة التي أثبتت زيادة الإيمان كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ [2] . قال ابن تيمية رحمه الله : ((وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي : وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول ، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن و معرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن ، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن ، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذا زيادة الإيمان)) [3] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ

---

١ - كتاب الإيمان (٢١٢/٢١١) . بتصرف واختصار .

٢ - سورة الأنفال (٢) .

٣ - كتاب الإيمان (٢١٥) .

٤ - سورة آل عمران (١٧٣) .

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ ﴾ (٤) .

إن هذه الآيات الكريمة وأمثالها في الكتاب العزيز لتدل دلالة صريحة على زيادة الإيمان ، لأن المتأمل في الآيات الكريمة يجد أن الزيادة ليست مجرد التصديق بنزولها ، بل زادت المؤمنين إيمانا بحسب مقتضاها ، فإن كانت أمرا في شيء ما

١ - سورة التوبة (١٢٤-١٢٥) .

٢ - سورة محمد (١٧) .

٣ - سورة المدثر (٣١) .

٤ - سورة الفتح (٤) .

رغبوا فيه و أحبوه و إن كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه وكرهوه ، فامتثالهم لما تأمر به أو اجتنابهم لما تنهى عنه من زيادة الإيمان[1] .

و عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا أو الحياة شك مالك فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية قال وهيب : حدثنا عمرو الحياة وقال خردل من خير »[2] .

وعنه أيضا أنه سمع النبي صلى الله يقول : « بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما دون ذلك وعرض علي عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره » . قالوا فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ . « قال الدين »[3] .

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه

١- انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (٢١٥-٢١٦) .

٢- صحيح البخاري (١/١١) كتاب الإيمان باب (١٥) تفاضل أهل الإيمان في الأعمال . حديث (١) .

٣- المصدر السابق الكتاب والباب حديث (٢) .

وزن ذرة من خير » قال أبو عبد الله : قال أبان : حدثنا قتادة حدثنا أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم « من إيمان مكان من خير »[1].

وقال صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا »[2].

فلا يشك المؤمن في زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة ، ونقصانه بالمعاصي بعد هذه النصوص الشرعية التي تثبت ذلك ، بل إن الإنسان المسلم يلمس هذا من نفسه ، يجد إيمانه يقوى ويزيد كلما عمل طاعة ، أو جلس في مجلس ذكر لله ، ونحو ذلك ، ويضعف إذا غفل عن ذلك ، وهذا ما قاله حنظلة الأسيدي رضي الله عنه حيث يقول : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا فذكر النار ، قال : ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة . قال : فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له . فقال : وأنا قد فعلت مثل ما تذكر ، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت يا رسول الله نافق حنظلة ! . فقال « مه » ؟ . فحدثته بالحديث فقال أبو بكر : وأنا قد فعلت مثل ما فعل ! . فقال : « يا حنظلة ساعة وساعة ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق »[3].

---

١ - المصدر السابق (١/١٦) كتاب الإيمان . باب (٣٣) زيادة الإيمان ونقصانه . حديث (١) .

٢ - سبق تخريجه ص (٦٦٨) .

٣ - صحيح مسلم (٤/٢١٠٧) كتاب التوبة . باب (٣) فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة ... حديث (١٣) .

وأما ما روى من الأحاديث التي ورد فيها : « أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص » . فلا يعول عليها ولا يحتج بها ، لأنها أحاديث ضعيفة جداً وقد أوردها العلماء في كتب الموضوعات وبينوا عللها [1] ومن تلك الأحاديث مايلي :

١- ماروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: « من زعم أن الإيمان يزيد وينقص ، فزيادته نفاق ، ونقصانه كفر ، فإن تلبوا ، وإلا فاضربوا أعناقهم بالسيف ، وأولئك أعداء الرحمن فارقوا دين الله وانتحلوا الكفر ، وخاصموا في الله ، طهر الله الأرض منهم ، ألا فلا صلاة لهم ، ألا فلا صوم لهم ، ألا فلا زكاة لهم ، ألا ولا حج لهم ، ألا ولا دين لهم ، هم براء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله بريء منهم ».رواه ابن حبان في كتاب المجروحين [2] . من رواية محمد بن القاسم بن مجمع الطالكاني [3]. وقال : روى عن أهل خراسان أشياء لا يحل ذكرها .. لكني ذكرته لئلا يغتر به عوام أصحابنا بما يرويه . وخرجه ابن الجوزي في موضوعاته [4] من طريقه وقال هذا حديث موضوع وهو من موضوعات محمد بن القاسم الطايكاني ، وذكر قول ابن حبان فيه ثم روى

١- الموضوعات لابن الجوزي (١/١٣٠-١٣٣) . اللآلي المصنوعة (١/٣٨-٤٠) . تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة (١/١٤٩).

٢- (٢/٣١١-٣١٢) .

٣- هو : محمد بن القاسم بن مجمع الطايكاني نسبة إلى طايكان . بفتح الطاء وسكون الباء ثم كاف بعدها ألف ونون – بلدة من نواحي بلخ – ويقال طالقان – قال الحاكم : كان يضع الحديث ، وقال عبدالله بن أحمد بعد أن ذكر جملة من مروياته هذه من اختلاف الطالقاني وقال الجوزجاني : كان يضع الحديث ويكذب . مات سنة ٣١٠هـ . الميزان (٤/١١-١٢) . لسان الميزان (٥/٣٤٣-٣٤٥) . وانظر : طالقان في معجم البلدان (٤/٦-٨) .

٤- الموضوعات (١/١٣٣) .

بسنده عن الحاكم أنه قال عنه أنه " من رؤساء المرجئة ممن يضع الحديث على مذهبهم " .

وأورده السيوطي في اللآلي عن ابن حبان وقال : " موضوع آفته الطالقاني : كذاب خبيث يضع من المرجئة يضع الحديث لمذهبه "[1].

٢- ماروي عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن وفد ثقيف جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن الإيمان هل يزيد وينقص ؟ . فقال : " لا ، زيادته كفر و نقصانه شرك " رواه ابن الجوزي وقال : " هذا حديث موضوع بلا شك ، وهو من وضع أبي مطيع واسمه الحكم بن عبدالله[2] قال أحمد بن حنبل : لا ينبغي أن يروى عنه شيء ، وقال يحيى : ليس بشيء ، وقال أبو حاتم الرازي : كان أبو مطيع مرجئا كذابا . قال المصنف – أي ابن الجوزي – وقلت : في هذا الحديث أبو المهزم [3]وقد سبق أنه كذاب . وقد سرق هذا الحديث من أبي مطيع أبو

١- اللآلي المصنوعة (١/٤٠) وانظر تنزية الشريعة (١/١٤٩) .

٢- هو الحكم بن عبدالله ، أبو مطيع البلخي الفقيه ، صاحب أبي حنيفة روى عن ابن عون وهشام ابن حسان ، وعنه أحمد بن منيع وجماعة . ضعفه البخاري والنسائي وأحمد وابن معين قال ابن حبان : كان من رؤساء المرجئة ممن يبغض السنن ومنتحليها " مات سنة ١٩٩هـ . الضعفاء الكبير (١/٢٥٦) كتاب المجروحين (١/٢٥٠) الكامل في ضعفاء الرجال (٢/٢١٤) الميزان (١/٥٧٤) .

٣- أبو المهزم – بتشديد الزاي المكسورة – يزيد بن سفيان التميمي البصري ، وقيل : اسمه عبدالرحمن . روى عن أبي هريرة وعنه حماد بن سلمة ، قال شعبة : لويعطى درهما لوضع حديثا وقال النسائي : متروك الحديث أخرج له أبو داود والترمذي وابن ماجه متروك . التاريخ الكبير (٨/٣٣٩) الكنى للبخاري (٨٨) الكامل في ضعفاء الرجال (٧/٢٦٦) التقريب (٦٧٦) .

عمر عثمان بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان [1] وغير لفظه فرواه عن حماد عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال : « وفد ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا جئناك نسألك عن الإيمان أيزيد أو ينقص ؟ . فقال : عثمان هذا كذاب وقد تلصص [2]. وأورده السيوطي عن الحاكم ونقل قوله : « إسناده في مظلمات والحديث باطل ، والذي تولى كبره أبو مطيع [3].

الاستثناء في الإيمان :

وهو : أن يقول الرجل أنا مؤمن إن شاء الله ، ونحو ذلك ولايجزم لنفسه بالإيمان ، يعتقد أهل السنة والجماعة جوازه باعتبار ومنعه باعتبار آخر [4]. فإذا

---

١ - الأموي الشامي روى عن ابن لهيعة وحماد و مالك قال ابن حبان : كان يضع عليهم الحديث لا يحل كتاب حديثه إلا على سبيل الاعتبار » وقال الدار قطني : متروك الحديث وقال مره : يضع الأباطيل على الشيوخ الثقات » . كتاب المجروحين (٢/١٠٢-١٠٣) .

٢ - الموضوعات (١/١٣٠-١٣١) .

٣ - اللآليء المصنوعة (١/٣٨) .

٤ - مذهب أهل السنة والجماعة هذا وسط بين مذهب المرجئة والجهمية الذين يحرمون الإستثناء في الإيمان ، لأنهم جعلوا الإيمان شيئا واحدا ، يعلمه الإنسان من نفسه فيقول : أنا أعلم أني مؤمن ، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين فقولي : أنا مؤمن كقولي أنا مسلم ، فمن استثنى في إيمانه ،فهو شاك فيه . وسموا الذين يستثنون بالشكاك .

ومذهب الكلابيه الذين يوجبون الاستثناء ومن وافقهم في بعض مآخذهم كالقاضي أبي يعلى وغيره ولهم في ذلك مأخذان أحدهما : أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه ، والإنسان إنما يكون مؤمنا عند الله ، أو كافرا بعتبار الموافاه ، وما سبق في علم الله أن يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به ، قالوا : والإيمان الذي يعقبه الكفر أو يموت صاحبه كافرا ، ليس بإيمان ، كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال .

كان الاستثناء على وجه الشك في أصل الإيمان ، فلا يجوز ويمنع المستثنى منه . وأما إذا كان خوفا من التزكية للنفس ، لأن المؤمن حقا من فعل الواجبات وترك المنهيات كما في قوله عز وجل ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) . وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (٢) جاز الإستثناء (٣)، قال ابن تيمية رحمه الله : « وأما مذهب سلف أصحاب الحديث ، كابن مسعود وأصحابه ، والثوري وابن عيينة ، وأكثر علماء الكوفة ، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة ، وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، فكانوا يستثنون في الإيمان

المأخذ الثاني هو أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله وترك ما نهاه عنه كله ، فإذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بجميع ما أمروا به ، وترك كل ما نهوا عنه ، فيكون من أولياء الله المقربين ، وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال وقد نهى الله عن تزكية النفس بقوله ﴿ ولا تزكو أنفسكم ﴾ سورة النجم (٣٢) . كتاب الإيمان (٤١٠ و٤٢٦-٤٢٧) . شرح العقيدة الطحاوية (٣٣٥-٣٣٦) .

١- سورة الأنفال (٢-٤) .

٢- سورة الحجرات (١٥) .

٣- كتاب الإيمان (٤١٠) . مجموع الفتاوى (٤٢٩/٧) شرح العقيدة الطحاوية (٣٣٨) .

، وهذا متواتر عنهم ، لكن ليس في هؤلاء من قال : أنا أستثني لأجل الموافاة ، وأن الإيمان إنما هو اسم لما يوافي به العبد ربه ، بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل الواجبات ، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك ، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى ، فإن ذلك مما لا يعلمونه ، وهو تزكية لأنفسهم بلا علم »[1].

واستدلوا لذلك بما يلي :

١- بقوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[2] . فقد علم سبحانه وتعالى دخولهم للمسجد الحرام آمنين ، واستثنى مع اليقين فهذا لا يوجب شكا . فجاز الاستثناء الذين لا يوجب الشك في الإيمان .

٢- بقوله صلى الله عليه وسلم في السلام على أهل القبور : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »[3] .

٣- وبما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي

١- كتاب الإيمان (٤١٩) . الفتاوى (٧/٤٣٨-٤٣٩) .

٢- سورة الفتح (٢٧) .

٣- صحيح مسلم (٢/٦٦٩) كتاب الجنائز . باب (٣٥) ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها حديث (١٠٢) .

دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا » [1] .

٤- و بجوابه صلى الله عليه وسلم للرجل الذي تدركه صلاة الفجر وهو جنب ، عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستفتيه وهي تسمع من وراء الباب فقال : يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب أفأصوم ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم » . فقال : لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ . فقال : « والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي »[2] .

فقد استثنى صلى الله عليه وسلم في الحديثين الأولين ولا يشك في حصول ما ذكر ، كما قال في الحديث الثالث : « والله إني لأرجو » وهو أخشاهم بلا شك ، فهذا حجة في الاستثناء من غير أن يوجب شكا كما تزعم المرجئة والجهمية ومن وافقها قال الإمام أحمد رحمه الله حينما سئل عن الاستثناء في الإيمان : « نعم الاستثناء على غير معنى شك مخافة واحتياطا للعمل ، وقد استثنى ابن مسعود وغيره وهو مذهب الثوري » [3] .

١- صحيح مسلم (١٨٩/١) كتاب الإيمان . باب (٨٦) اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته حديث (٣٣٨) .

٢- صحيح مسلم (٧٨١/٢) كتاب الصيام . باب (١٣) صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب . حديث (٧٩) .

٣- السنة للخلال (٥٩٣/٣-٥٩٤) الفتاوى (٤٥٠/٧) . وجاء في السنة « مذهب الشوري » « بدل الثوري » وهو خطأ مطبعي .

قال ابن تيمية رحمه الله : « وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره : أمؤمن أنت ؟ . ويكرهون الجواب ، لأن هذه بدعة أحدثتها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم ، فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر ، بل يجد قلبه مصدقا بما جاء به الرسول ، فيقول : أنا مؤمن ، فيثبت أن الإيمان هو التصديق ، لأنك تجزم بأنك مؤمن ، ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أمرت به ، فلما علم السلف مقصدهم ، صاروا يكرهون الجواب ، أو يفصلون في الجواب ، وهذا لأن لفظ الإيمان فيه إطلاق وتقييد ، فكانوا يجيبون بإيمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال ، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال : أن مؤمن بلا استثناء إذا أراد ذلك . لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل ، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه » .

وقال أيضا : « قال المروذي : قيل لأبي عبدالله نقول : نحن المؤمنون ؟ . فقال : نقول : نحن المسلمون . وقال أيضا : قلت لأبي عبدالله : نقول : إنا مؤمنون ؟ . قال : ولكن نقول : إنا مسلمون . ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصده قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول ، بل تركه لما يعلم أن في قلبه إيمانا ، وإن كان لا يجزم بكمال إيمانه »[1] .

هذا هو ملخص منهج أهل السنة والجماعة في باب الإيمان ومكانة الأعمال منه الذي من تمسك به علم أن الإيمان يتضمن جميع الأعمال الصالحة وأن الجهاد من الإيمان بل أفضل أعمال الإيمان كما أجاب بذلك رسول الله صلى الله عليه

١- كتاب الإيمان (٤٢٩) . الفتاوى (٧/٤٤٨-٤٤٩) .

وسلم حينما سئل أي العمل أفضل ؟ . فقال : « إيمان بالله ورسوله قيل ثم مــاذا قال الجهاد في سبيل الله قيل ثم ماذا قال حج مبرور » [١] .

ونجا من خطأ المرجئة في فهم الإيمان الذي يعوق عن الجهاد في سبيل الله .

---

١ - سبق ص (٦٨٤) .

الفصل الثاني

الجبر وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله وعلاج ذلك في القرآن الكريم وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التعريف بالجـــــبر ظهوره – أصناف الجبرية وفرقهم وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التعريف بالجـــــبر ظهوره – أصناف الجبرية وفرقهم

المطلب الثاني : أثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

المبحث الثاني : علاج هذا العائق .

المبحث الأول

التعريف بالجـــــبر ظهوره – أصناف الجبرية وفرقهم وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

المطلب الأول

التعريف بالجبر ظهوره – أصناف الجبرية وفرقهم

الجبر في اللغة له معان :

الأول : بمعنى جبر الكسير ، وجبر الفقير ، يقال : جبر العظم والفقير واليتيم ، يَجْبُرُهُ جَبْراً ، وجُبُوراً وجبارة . ويقال : جَبَّرت الكسير أُجَبِّرُه تجبيراً ، وجبرته جبراً . ويقال : جبر العظم بنفسه جُبوراً أي : انجبر . ويقال : جبر الله فلانا فاجتبر أي : سد مفاقره .

والجبائر : العيدان التي تشد على العظم لتجبُرَهُ بها على استواء . واحدها جِبارة ، وجبيرة ، والُمجَبِّر الذي يجبر العظم المكسور [1] .

الثاني : بمعنى الإكراه والقهر ، يقال : جبر الرجل على الأمر ، يجبره جبراً . وأجبره عليه : أكرهه عليه ، كما يقال : جبرت وأجبرت بمعنى قهرت [2].

وجبره : لغة تميم وحدها ، وعامة العرب يقولون أجبره وهما لغتان جيدتان ، غير أن النحويين استحبوا أن يجعلوا جبرتُ : لجبر العظم بعد كسره . وجبر الفقير بعد فاقته . وأن يكون الإجبار مقصوراً على الإكراه [3] .

الثالث : بمعنى التكبر ، يقال : تَجبَّر الرجل : تكبر [4] .

---

١ - لسان العرب (٤/١١٤-١١٥) . الصحاح (٢/٦٠٧-٦٠٨) . وبدل العيدان اليوم ما يعمل من الجبس والحديد . وبدل المجبر الطبيب .

٢ - الصحاح (٢/٦٠٨) لسان العرب (٤/١١٣) .

٣ - لسان العرب (٤/١١٦) .

٤ - الصحاح (٢/٦٠٨) . القاموس المحيط (٥١٤) .

الرابع : الجَبْرُ: خلاف القدر . والجبرية بالتحريك : خلاف القدرية قال أبو عبيد : كلام مولد [١] .

وسميت الجبرية : بهذا الاسم ، نسبة إلى القول بالجبر [٢].

وفي الاصطلاح :

الجبر : هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى [٣].

لأن الجبرية يعتقدون أن العبد مجبور على أفعاله قسراً ، ولا فعل له أصلاً ، بل هو كالهاوي من أعلى إلى أسفل ، وكالسعفة تحركها الريح لم يعمل باختياره طاعة ولا معصية [٤]. أي : أن الله عزوجل يجبر العباد على أفعالهم ليس لهم فيها اختيار ، ولا قدرة مؤثرة في الفعل ، بل إنهم كالريشة في مهب الرياح تلعب بها ، العاصي منهم كالمطيع لأنه مكره على عصيانه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

---

١ - لسان العرب (١١٦/٤) الصحاح (٦٠٨/٢) .

٢ - لسان العرب (١١٦/٤) .

٣ - الملل والنحل (٨٥) .

٤ - معارج القبول (٢٧٥/١) . باختصار .

ظهور الجبر

ظهر الجبر عندما قال به الجعد بن درهم الخراساني ، فهو أول من قال : بخلق القرآن والجبر في باب القدر ، وقتله خالد بن عبدالله القسري[1] لبدعته وضلاله في يوم عيد الأضحى حيث خطب الناس ثم قال : « أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ،و لم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل من المنبر فذبحه في أصل المنبر سنة ١١٨هـ »[2]. إلا أن هذا الظهور لم يكن مشتهراً وإنما كان بدايات .

ثم برز الجبر في معناه الاصلاحي و أصبحت له فرقة تعرف بالجبرية بعد ماقال به الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي الترمذي [3] الذي استقى تعاليمه من أستاذه الجعد بن درهم وأظهرها في أوئل المائة الثانية للهجرة بمدينة ترمذ . وصار له مؤيدون ولعل السبب في هذا هو تزامنه مع ظهور المعتزلة التي تنفي

١- هو خالد بن عبدالله بن يزيد القسري – بفتح القاف وسكون السين المهملة – أبو الهيثم ولاه الوليد ابن عبد الملك مكة ، ثم ولاه هشام بن عبد الملك على العراقين – الكوفة والبصرة - كان من فصحاء العرب وخطبائهم قتل الجعد بن درهم لبدعته ، ثم عزله هشام وولى يوسف بن عمر الثقفي ، وحبسه يوسف ثم قتله سنة ١٢٦هـ . تاريخ الأمم والملوك (٢٥٤/٧) . الكامل في التاريخ (٣٣٢/٤) .وفيات الأعيان (٢٢٦/٢-٢٣١) .

٢- الكامل في التاريخ (٣٣٢/٤) . البداية والنهاية (٣٥٠/٩) . الأعلام (١١٤/٢) .

٣- قال الذهبي : « الضال المبتدع رأس الجهمية هلك زمن صغار التابعين ، وما علمته روي شيئاً لكنه زرع شراً عظيماً » . كان يقضي في عسكر الحارث بن سريج الخارج على أمراء خراسان فأسره سلم بن أحوز حين هزم الحارث وأمر عبد ربه بن سيسن فقتله سنة ١٢٨هـ . تاريخ الأمم والملوك(٣٣٥/٧) . الميزان(٣٩٩/١). لسان الميزان (١٤٢/٢) .

القدر وتقول إن الله لم يخلق أفعال العباد ولا يعلمها قبل وقوعها منهم . بل هم الفاعلون لها ابتداءاً [1].

فأخذت كل فرقة من هؤلاء تنافح عن معتقدها ، وتشرحه ، وترد على مخالفيها حتى اشتهرت الجبرية ، واستفحل أمرها في نفي أفعال العباد عن أصحابها ، وإنما تنسب لهم على سبيل المجاز ، كما يقال : تحركت الشجرة ، ودار الفلك ، وزالت الشمس ، وإنما يفعل بالشجرة والفلك والشمس الله [2] .

---

١ - انظر : مقالات الإسلاميين (١/٢٩٨) .

٢ - مقالات الإسلاميين (١/٣٣٨) .

أصناف الجبريـــة :

يصنف الشهر ستاني الجبرية إلى صنفين هما :

١- الجبرية الخالصة : وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قـــدرة على الفعل أصلاً .

٢- الجبرية المتوسط : هي التي تثبت للعبد قدرة غـــير مؤثـــرة أصلاً [1].

والفارق بينهما أن الجبرية الخالصة لا تثبت للعبد قدرة بينما تثبت الجبريـــة المتوسطة القدرة للعبد ، ولكنهما يتفقان في عدم تأثير قدرة العبد على الفعل .

فرق الجبرية :

ينسب أصحاب المقالات الفرق التالية إلى الجبر :

١- الجهمية أتباع الجهم بن صفوان ، وكان من الجبرية الخالصة ومن أقواله : « إن الانسان لا يقدر على شيء ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور على أفعاله ، لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في ســـائر الجمـــادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشـــمس وغربـــت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، واهتزت الأرض ، وأنبت إلى غير ذلـــك ، والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال كلها جبر .

١- الملل والنحل (٨٥) .

قال : وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً » [1] تعالى الله عما يقول علواً كبيراً .

٢- النَّجَّارية : أصحاب الحسين بن محمد النجار . وأكثر معتزلة الري وما حوليها على مذهبه [2] . ومن أقواله : « أن الباري مريد الخير والشر ، والنفع والضر ، وقال : معنى كونه مريداً : أنه غير مستكره ولا مغلوب ، وقال : هو خالق أعمال العباد ، خيرها وشرها حسنها وقبيحها ، والعبد مكتسب لها ، وأثبت تأثيراً للقدرة الحادثة [3] .

٣- الضَّرارية : أصحاب ضرار بن عمرو [4] وحفص الفرد [5] .

هكذا يعد مصنفو المقالات فرق الجبرية إلا أن الذي يقرأ قول الحسين بن محمد النجار ، وضرار بن عمرو في أفعال العباد ، عند الأشعري في مقالات الإسلاميين ، لا يرى أنهم جبرية ، مع فساد بعض أقوالهم . قال الأشعري : « والذي فارق ضرار به المعتزلة قوله : إن أعمال العباد مخلوقة ، وإن فعلاً واحداً

١- مقالات الإسلاميين(١/٣٣٨) . والفرق بين الفرق (٢١١) والملل والنحل (٨٦-٨٧) .

٢- الفهرست (٢٥٤) . الملل والنحل (٨٨) .

والنجار : هو الحسين بن محمد بن عبدالله النجار البغدادي من جلة المجبرة ومتكلميهم من مؤلفاته كتاب الاستطاعة . كتاب الإرادة الموجبة مات سنة ٢٢٠هـ . الفهرست (٢٥٤-٢٥٥) . معجم المؤلفين (٤/٥٣) .

٣- الملل والنحل (٨٩) .

٤- هو ضرار بن عمرو القاضي ، المعتزلي ، له مقالات خبيثة ، منها : شكه في جميع المسلمين وقال : لا أدري لعل سرائر العامة كلها شرك وكفر . الفرق بين الفرق (٢١٥) ميزان الاعتدال (٢/٣٢٨-٣٢٩) وقال : هذا المدبر لم يرو شيئاً.

٥- الملل والنحل (٩٠) وحفص الفرد يكنى أبا عمرو ،كان من أهل مصر ، وكان معتز ليا ثم قال بخلق الأفعال من أكابر الجبرية له كتاب هو الاستطاعة . الفهرست (٢٥٥) .

لفاعلين ، أحدهما خلقه ، وهو : الله . والآخر : اكتسبه ، وهو : العبد وإن الله عزوجل فاعل لأفعال العباد في الحقيقة ، وهم فاعلون لها في الحقيقة » [1].

وقال عن النجار : « زعم الحسين بن محمد النجار وأصحابه وهم الحسينية أن أعمال العباد مخلوقة لله ، وهم فاعلون لها ، ولا يكون في ملك الله سبحانه إلا ما يريده » [2].

وظاهر هذا الكلام ليس جبراً ، ولا يوصف صاحبه بالجبر ، ولعل السبب في عد هؤلاء من الجبرية هو غلو المعتزلة في تسمية كل من خالفهم وقال : إن الله خالق أفعال العباد وهم مكتسبون لها ، و لم يقل بأن العباد هم الخالقون لأفعالهم جبريًّاً . قال الشهر ستاني : « والمصنفون في المقالات عدوا النجارية ، والضرارية من الجبرية وكذلك الكلابية من الصفاتية ، والأشعرية سموهم تارة حشوية وتارة جبرية . ونحن سمعنا إقرارهم على أصحابهم من النجارية فعددناهم من الجبرية و لم نسمع إقرارهم على غيرهم فعددناهم من الصفاتية » [3] .

١- مقالات الإسلاميين (١/٣٣٩) .

٢- المصدر السابق (١/٣٤٠) .

٣- الملل ولنحل (٨٦) .

المطلب الثاني

تأثير الجبر في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

شبهة الجبرية هي : أنهم آمنوا بالقدر وأن الله خالق لكل شيء ، وهو خالق أفعال العباد ومقدرها لهم ، وليس للعباد قدرة على الفعل بل هم مجبورون على أفعالهم [١]، فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل ، وليس له اختيار لفعله ، وإنما ما يفعله من طاعة أو معصية هو عين فعل الله عزوجل جبر العبد عليه ، لأن الله خالق لكل شيء ، ومريد لجميع الكائنات ، قال ابن تيمية رحمه الله عنهم : « وقسم : يسلبون العبد اختياره وقدرته ويجعلونه مجبوراً على حركاته ، من جنس حركات الجمادات ، ويجعلون أفعاله الإختيارية و الإضطرارية من نمط واحد حتى يقول أحدهم : إن جميع ما أمر الله به رسوله ، فإنما هو أمر بما لايقدر عليه ، ولايطيقه ، فيسلبونه القدرة مطلقاً ، إذ لا يثبتون له إلا قدرة واحدة مقارنة للفعل . ولايجعلون للعاصي قدرة أصلاً .

فهذه المقالات وأمثالها من مقالات الجبرية القدرية ، الذين أنكر قولهم — كما أنكروا قول الأولين — أئمة الهدى ، مثل عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي ، وسفيان بن سعيد الثوري ، ومحمد بن الوليد الزبيدي وعبدالرحمن بن مهدي ، وأحمد بن محمد بن حنبل وغيرهم » [٢] .

وقال أيضاً عنهم : « وأما الطائفة الثانية — يعني من طوائف القدرية — فهم شر منهم — أي : من نفاة قدرة الله ومشيئته عن أفعال العباد — وهم من أهل السلوك والإرادة والتأله ، والتصوف والفقر ونحوهم ... رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها ، فهو خالق أفعال العباد ، ومريد جميع الكائنات ، ولم يميزوا

---

[١] انظر : معارج القبول (١/٢٧٥) .

[٢] مجموع الفتاوى (٨/٤٤٤-٤٤٥) . وانظر درء تعارض العقل والنقل (١/٧٠) .

بعد ذلك بين إيمان وكفر ،ولا عرفان ولا نكر ، ولاحق ولا باطل ، ولا مهتد ولا ضال ،ولا راشد ولا غوي ، ولا نبي ولا متنبيء ، ولا ولي لله ولا عدو ، ولا مرضي لله ولا مسخوط ، ولا محبوب لله ولا ممقوت ، ولابين العدل والظلم ، ولابين البر والعقوق ، ولابين أعمال أهل الجنة ، وأعمال أهل النار ، ولابين الأبرار والفجار ، حيث شهدوا ماتجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق ، والمشيئة النافذة ، والقدرة الشاملة ، والخلق العام ، فشهدوا المشترك بين المخلوقات ، وعموا عن الفارق بينهما ، وصاروا ممن يخاطب ، بقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[1] وبقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[2] وبقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3] [4] .

فلا يفرقون بين حق وباطل ، بل زعموا أن الله يريد ويشاء بل يحب الكفر والشرك ، والقتل والزنا ، وعقوق الوالدين ، والسرقة وغير ذلك من المعاصي لأن الكل خلقه الله وأوجده فهو يحبه ويرضاه ، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

---

١ - سورة القلم (٣٥-٣٦) .

٢ - سورة ص (٢٨) .

٣ - سورة الجاثية (٢١) .

٤ - مجموع الفتاوى (٨/٥٩-٦٠) .

قال ابن القيم عن هؤلاء : « ... ثم نبغت طائفة أخرى زعمت أن حركة الإنسان الاختيارية – ولا اختيار – كحركة الأشجار عند هبوب الرياح ، وكحركات الأمواج ، وأنه على الطاعة مجبور ، وأنه غير ميسر لما خلق له ، بل هو عليه مجبور ومقصور .

ثم تلاهم أتباعهم على آثارهم مقتدين ، ولمنهاجهم مقتفين ، فقرروا هذا المذهب –أي الجبر– أو انتموا إليه وحققوه ، وزادوا عليه أن تكاليف الرب تعالى لعباده كلها تكليف ما لا يطاق ، وأنها في الحقيقة كتكليف المقعد أن يرقى إلى السبع الطباق ، فالتكليف بالإيمان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد ، ولا هو بمقدور، وإنما هو تكليف بفعل من هو متفرد بالخلق ، وهو على كل شيء قدير ، فكلف عباده بأفعاله ، وليسوا عليها قادرين ، ثم عاقبهم عليها ، وليسوا في الحقيقة لها فاعلين .

ثم تلاهم على آثارهم محققوهم من العباد ، فقالوا ليس في الكون معصية البتة ، إذ الفاعل مطيع للإرادة موافق للمراد ، كما قيل :

أصبحت منفعلا لما يختاره　　　مني ففعلي كله طاعات

ولاموا بعض هؤلاء على فعله فقال : إن كنت عصيت أمره ، فقد أطعت إرادته ، ومطيع الإرادة غير ملوم ، وهو في الحقيقة غير مذموم ، وقرر محققوهم من المتكلمين هذا المذهب بأن الإرادة والمشيئة والمحبة في حق الرب سبحانه هي واحد ، فمحبته هي نفس مشيئته ، وكل مافي الكون فقد أراده وشاءه ، وكل ما شاءه فقد أحبه .

ولقد ظنت هذه الفرقة بالله أسوأ الظنون ، ونسبته إلى أقبح الظلم وقالوا : إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السماوات ، وكتكليف الميت إحياء الأموات ، والله يعذب عباده أشد التعذيب على فعل مالا يقدرون على تركه ، وعلى ترك مالايقدرون على فعله ، بل يعاقبهم على نفس فعله

الذي هو لهم غير مقدور ، وليس أحد ميسر له ، بل هو عليه مقهور ، وترى العارف منهم ينشد مترنماً . ومن ربه مشتكياً ومتظلما :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء [1] .

ويستدلون لهذا الفهم بأدلة شرعية من كتاب الله عزوجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تأولوها دليلاً لذلك ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [2] فقالوا : دلت الآية الكريمة أنه يفعل مايشاء من غير علة لفعله أو غاية أو غرض ، بل يفعل بلا سبب ، فإنما مصدر مفعولاته محض مشيئته ، وغايتها مطابقتها لعلمه وإرادته ، فكل مافعله أو يفعله حسن إذ هو على وفق إرادته وعلمه[3]وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [4]. فنفى الله عن نبيه الرمي ، وأثبته لنفسه ، فدل على أنه لاصنع للعبد [5].

وبما أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ

---

١ - شفاء العليل (١٥-١٦) . وانظر مختصر الصواعق (١/٣١٣) .

٢ - سورة الأنبياء (٢٣) . وانظر مختصر الصواعق (١/٢٩٧،٣٠٣،٣١٨) .

٣ - مختصر الصواعق (٢٩٧) بتصرف .

٤ - سورة الأنفال (١٧) .

٥ - شرح العقيدة الطحاوية (٤٣٤) .

مَكَانَهُ فَرَجًا » . قَالَ : فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا ؟ . فَقَالَ : « بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا » [1] . قالوا : فأخبر أن جميع أقضيته في عبده عدل منه ، وهذا يعم قضاء المصائب ، وقضاء المعائب ، وقضاء العقوبات على الجرائم ، فلو أن الله سبحانه عذب الطائعين ونعم العاصين لكان ذلك عدلاً محضاً . فهو المتصرف في ذلك كيف يشاء [2].

واستدلوا أيضاً بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى لآدَمَ آنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ قَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَوَجَدْتَهَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي قَالَ نَعَمْ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » [3].

زاعمين أن آدم احتج على موسى بالقدر على الذنب ، وأن ذلك جائز لخاصة الأولياء المشاهدين للقدر [4] .

ونتيجة لهذا الفهم الخاطيء ترك أولئك الأعمال الصالحة التي تقربهم إلى الجنة وتبعدهم عن النار ، بل ارتكبوا المعاصي بحجة أن ذلك هو فعل الله فالعاصي والمطيع سواء .

ومن هنا يظهر أثر الجبر ، في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله ، من وجهين هما :

---

١ - صحيح سبق تخريجه (١٤٢) .

٢ - مختصر الصواعق (١/٣١٣-٣١٤) بتصرف .

٣ - صحيح البخاري (٥/٢٣٩) كتاب التفسير . (٢٠) تفسير سورة طه . باب (١) قوله : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ حديث (١) وصحيح مسلم (٤/٢٠٤٢-٢٠٤٤) كتاب القدر . باب (٢) حجاج آدم وموسى عليهما السلام حديث (١٣،١٤، ١٥) . واللفظ للبخاري .

٤ - مجموع الفتاوى (٨/٤٥٣) . فتح الباري (١١/٥٠٩-٥١٠) .

الأول : أن التارك للجهاد في سبيل الله المتخلف عن صفوف المجاهدين إنما فعل ذلك بقضاء الله وقدره ، و لم يكن له فيه اختيار ، بل هو مجبور على قعوده وتخليه عن صفوف المجاهدين . فلا لوم عليه ولا تثريب مثله مثل من خرج مجاهداً في سبيل الله فالكل مجبور على فعله ، ولا مزية لأحد منهما على الآخر ، فذاك أطاع أمر الله ، وهذا أطاع إرادته موافق لمراده كما يقول شاعرهم :

أصبحت منفعلاً لما يختاره		مني ففعلي كله طاعات [1].

الثاني :

أن غير المسلم هو على ما قضاه الله له وأحبه منه وجبره عليه . فعلام يقاتل ويستحل دمه وماله . وهو لا يطيق غير هذا ؟.

فقد فعل ما في وسعه ، والله يقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [2] ، فقتاله على هذا المعتقد لا يجوز ، وماله لا يحل سلبه إذ هو مطيع لله ، منفذ لإرادته مسير لا مخير .

وبهذا الفهم المنحرف عن الصواب يتخلى الناس عن الجهاد في سبيل الله كغيره من أنواع العبادات الفاضلة التي تركتها الجبرية ، محتجة لتركها بالقدر ، إذ لا تفريق عندهم بين الهدى والضلال ، ولابين الإيمان والكفر فالكل عندهم خلق الله ومحبوبه ، ولذا تركوا الطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن ما يحصل من طاعة أو معصية مقدر لابد منه . ومع كثرتهم وانتشارهم بين الطوائف الأخرى . يقول ابن تيمية رحمه الله عنهم : « ... الذين اعترفوا بالقضاء والقدر وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي فهؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي ، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق ، وأنه

---

[1] - سبق ص (٧١٣) .

[2] - سورة البقرة (٢٨٦) .

ما من دابة إلا ربي أخذ بناصيتها ، وهو الذي يبتلي به كثير –إما اعتقــاداً ، وإما حالاً – طوائف من الصوفية والفقراء ، حتى يخرج من يخــرج منــهم إلى الإباحة للمحرمات ، وإسقاط الواجبات ، ورفع العقوبات » [1]. والله أعلم .

[1] - مجموع الفتاوي(٨/٢٥٦) .

المبحث الثاني

علاج هذا العائق

لعلاج هذا العائق الخطير الذي يفتك صفوف المسلمين ، ويشوب عقيدتهم ، ويمزق وحدتهم عدة خطوات :

الأولى : مناقشة أدلة الجبرية وبيان وجه الحق فيها ودحض الباطل الذي تأولته المجبرة عن النصوص الشرعية .

١- قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (١) لا يدل على أنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا لغاية مطلوبة ، ولا سبب بل لمجرد مشيئته كما تقول الجبرية تعالى الله عما يقولون ، ولكن الآية الكريمة دليل على كمال عظمته سبحانه وعزته ، وكمال عدله وحكمته ، فهو الحكيم العدل الذي يضع الأمور في مواضعها ، وهو الرب الأعلى ، وماعداه مربوب يعتريه النقص مسؤل عن فعله مأمور منهي ، وأما هو سبحانه فليس فوقه أحد يسأله ، لكمال عظمته وسلطانه فهو اللطيف الحكيم الخبير (٢) . يقول ابن القيم رحمه الله في رد استدلال الجبرية بهذه الآية : « دليل حق استدل به على باطل ، فإن الآية مسوقة لبيان توحيده سبحانه وبطلان إلهية ما سواه ، وأن كل من عداه مربوب مأمور منهي ، مسؤل عن فعله ، وهو سبحانه ليس فوقه من يسأل عما يفعله قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا

١- سورة الأنبياء (٢٣) .

٢- انظر : تيسير الرحمن (٣/٢٤٥) .

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1] . فلم تكن الآية مسوقة لبيان أنه لا يفعل بحكمه ، ولا لغاية محمودة مطلوبة بالفعل ، وأنه يفعل ما يفعله بلا حكمة ولا سبب ، ولا غاية ، بل الآية دلت على نقيض ذلك ، وأنه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وحمده ، وأن فعاله صادرة عن تمام الحكمة والرحمة والمصلحة . فكمال علمه وحكمته وربوبيته ينافي اعتراض المعترضين عليه وسؤال السائلين له . وهم حملوا الآية على أنه لا يسأل عما يفعله لقهره وسلطانه . ومعلوم أن هذا ليس يمدح من كل وجه ، وإن تضمن مدحاً من جهة القدرة والسلطان ، وإنما المدح التام أن يتضمن ذلك حكمته وحمده ، ووقوع أفعاله على أتم المصالح ، ومطابقته للحكمة والغايات المحمودة ، فلا يسأل عما يفعله لكمال ملكه وكمال حمده ، فله الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير »[2] .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[3]. لا يسلم للجبرية ما فهموه من هذه الآية الكريمة ، بأن الله نفى عن نبيه الرمي ، وأثبته لنفسه فدل على أنه لا صنع للعبد ، وليس له فعل . بل إن الآية ترد عليهم هذا الفهم بنصها حيث يقول جل وعلا فيها : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ فأثبت لرسوله الرمي ، ولكن فرق بين ابتداء الرمي الذي هو الحذف للحصباء ، وانتهاء الرمي الذي هو إصابة عيون المشركين ووجوههم ومناخرهم فأثبت لنبيه صلى الله عليه وسلم ابتداء

١- سورة الأنبياء (٢١-٢٣) .

٢- مختصر الصواعق (١/٣١٨-٣١٩) . وانظر : تفسير ابن كثير (٣/١٨٤) .

٣- سورة الأنفال (١٧) .

الرمي ، ونفى عنه الإصابة لأنها كانت بتوفيق الله وحوله ، فكان المعنى : وما أصبت حين رميت ولكن الله هو الذي صوب [1]. قال ابن العز في نقض استدلال الجبرية بهذه الآية الكريمة : « فهو دليل عليهم ، لأنه تعالى أثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رمياً بقوله : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ فعلم أن المثبت غير المنفي ، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء ، : فابتداؤه الحذف ، وانتهاؤه الإصابة ، وكل منهما يسمى رمياً ، فالمعنى حينئذٍ والله تعالى أعلم : وما أصبت إذ حذفت ، ولكن الله أصاب . وإلا فطرد قولهم : وما صليت ولكن الله صلى ! وما صمت إذ صمت . وما زنيت ، وما سرقت إذ سرقت !! وفساد هذا ظاهر » [2] .

٣- قوله صلى الله عليه وسلم : « ... مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ... » الحديث [3] . فدل قوله « ماض في حكمك عدل في قضاؤك » أن الجميع قضاء الله الذي قضاه وقدره ، وهو عدل منه في عبده ، لأن ما قضاه الله تعالى ، فقد وضعه سبحانه وتعالى في موضع الحق اللائق به بمقتضى حكمته سبحانه وتعالى وعلمه وعدله ، فلم يظلمه به . لا أنه فعل ذلك بمجرد القدرة والمشيئة ، بلا علم ولا حكمة كما تقول الجبرية ، وأن العدل هو فعله سبحانه بعبده ما شاء فلو عذب المطيع ونعم العاصي لمجرد مشيئته لكان هذا عدلاً محضاً ، فنفوا عن الله الظلم المحال لذاته ، الذي لا يتصور وجوده . وليس في هذا مدح لله . لأن ما لا يتصور وجوده لا يمدح به أحد .

١- انظر : تفسير ابن كثير (٢/٣٠٧) .

٢- شرح العقيدة الطحاوية (٤٣٤) .

٣- سبق ص (٧١٤) .

و أما المصائب . والعقوبات فالامر فيها ظاهر ، إذ هي عدل محض كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [1] . وقوله تعالى : ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [2]

٤- قوله صلى الله عليه وسلم : « الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى لآدَمَ آنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ قَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَوَجَدْتَهَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي قَالَ نَعَمْ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » [3] .

يقول ابن تيمية رحمه الله : « من هؤلاء – أي : المحتجون بالقدر – من يظن أن آدم احتج على موسى بالقدر على الذنب ، وأن ذلك جائز لخاصة الأولياء المشاهدين للقدر ، وهذا ضلال عظيم . فإن موسى إنما لام آدم على المعصية التي لحقت الذرية بسبب أكله من الشجرة ، فقال : « ولماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة » ؟. والعبد مأمور عند المصائب أن يرجع إلى القدر ، فإن سعادة العبد : أن يفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويسلم للمقدور ، قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [4] .... فالسعيد يستغفر من المعايب ، ويصبر على

١- سورة الشورى (٣٠) .

٢- سورة فصلت (٤٦) . وانظر : مختصر الصواعق (١/ ٣١٣-٣١٥ و ٣٢٠).

٣- سبق ص (٧١٥) .

٤- سورة التغابن (١١) .

المصائب كما قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [1] . والشقي من يجزع عند المصائب ، ويحتج بالقدر على المعايب ، وإلا فآدم صلى الله عليه وسلم ، قد تاب من الذنب ، واجتباه ربه وهداه . وموسى أجل قدراً من أن يلوم أحداً على ذنب قد تاب منه ، وغفر الله له ، فضلاً عن آدم ... وموسى وآدم أعلم بالله من أن يظن واحد منهما ، أن القدر عذر لمن عصى الله ، وقد علما ما حل بإبليس ، وغير إبليس .

وآدم نفسه قد أخرج من الجنة ، وطفق هو وامرأته يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وقد عاب الله قوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم ، وقد شرع الله عقوبة المعتدين ، وأعد جهنم للكافرين ، فكيف يكون القدر عذراً للذنب ؟ . ...فإن القدر لو كان عذراً للخلق ؛ للزم أن لا يلام أحد ، ولا يذم ولا يعاقب ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ولا يقتص من ظالم أصلاً . بل يمكن الناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقاً .

ومعلوم أن هذا لا يتصور أن يقوم عليه مصلحة أحد ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة » [2] .

وفي هذا الكلام جواب كاف شاف مما ظنه المجبرة في هذا الحديث ، فقد بين رحمه الله خطأهم في فهمهم ، وأن آدم عليه السلام لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب ، وإنما احتج به على المصيبة ، كما أن موسى عليه السلام لم يلم آدم على الذنب الذي تاب منه ، وإنما لامه من جهة المصيبة التي أصابته وذريته ،

---

١ - سورة غافر(٥٥) .

٢ - مجموع الفتاوى (٨/٤٥٣-٤٥٤) .

فرد بهذا حجة الجبرية ، وأبان وجه الحق في الحديث ، وقد أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله عدة أجوبة لشراح الحديث [1] .

ولعل ملخصها جواب ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل حيث يقول : « الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ، ويضر في موضع ، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه ، وترك معاودته ، كما فعل آدم ، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع ، لأنه لا يدفع بالقدر أمراً و لا نهيا ، ولا يبطل به شريعة ، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة .

يوضحه أن آدم قال لموسى : « أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي » [2] . فإذا أذنب الرجل ذنباً ثم تاب منه توبة ، وزال أمره حتى كأن لم يكن ، فأنبه مؤنب عليه ولامه ، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول : هذا أمر كان قد قدر علي قبل أن أخلق ، فإنه لم يدفع بالقدر حقاً ، ولا ذكره حجة له على باطل ، ولا محذور في الاحتجاج به .

وأما الموضع الذي يضر فيه الاحتجاج به ، ففي حال المستقبل بأن يرتكب فعلاً محرماً ، أو يترك واجباً ، فيلومه عليه لائم ، فيحتج بالقدر على إقامته عليه ، وإصراره ، فيبطل به حقاً ويرتكب به باطلاً ، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله » [3] .

---

[1] - فتح الباري (١/٩-٥٠٩-٥١١). وانظر : مجموع الفتاوى (٨/٣٠٣-٣٠٧).

[2] - في رواية لمسلم حديث (١٣) حسبما سبق في التخريج ص (٧١٥) .

[3] - شفاء العليل (٣٥) .

الخطوة الثانية :

تفنيد شبههم وردها :

١- زعمهم أن أفعال العباد لا اختيار فيها ، زعم باطل فقد سووا بهذا الزعم بين العباد وبين الجمادات التي لا تعقل ولا تميز ، ولا تصرُّف لها في حركاتها ، وسكناتها كالسعفة التي تحركها الريح والصخرة التي يدحرجها السيل ونحو ذلك .

بل لم يميزوا بين حركات الإنسان الإرادية التي لا يملك فيها شيئاً كحركة القلب وجريان الدم فليس للإنسان فيها اختيار ولا قدرة ، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي يجريها في جسده . وبين حركات الإنسان الاختيارية كالأكل والشرب والبيع والشراء والزواج والطلاق ونحو ذلك مما يفعله الإنسان باختياره وإرادته ، فخالفوا في ذلك النصوص القرآنية الكثيرة التي تسند الأفعال إلى أصحابها كقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [١] . وقوله : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [٢] . وقوله عن سحرة فرعون : ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ [٣] . وقوله : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [٤] .

فقد أسندت الأفعال في هذه الآيات الكريمة إلى أصحابها الذين فعلوها ، وقد جاء في القرآن الكريم أن العباد يؤمنون ويكفرون ويفعلون ويعملون

١- سورة يس (٢٠).

٢- سورة يوسف (١٨) .

٣- سورة الشعراء (٤٤) .

٤- سورة الشعراء (٤٥) .

ويكسبون ، ويطيعون ويعصون ، ويقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة ، ويحجون ويعتمرون ويقتلون ، ويزنون ويسرقون ويصدقون ويكذبون ، ويأكلون ويشربون ، ويقاتلون ويحاربون ، فلم يكن من السلف والأئمة من يقول : إن العبد ليس بفاعل و لا مختار ولا مريد ولا قادر[1] .

٢- زعمهم أن ما خلقه وقدره فقد أحبه ورضيه ، ليس كذلك فإن هذا باطل ، إذ ناتج هذا أن الله يحب الكفر والمعاصي ، من زنى وسرقة وكذب وقول زور ونحو ذلك ، وهذا غير صحيح . فإن الله عز وجل شاء وجوده ذلك ، ولكنه كرهه وأبغضه ونهى عباده عنه ، قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾[4] . وغير هذا كثير في القرآن الكريم مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى شاء وجود أشياء وقدرها وهو يبغضها وينهى عنها .

١- مجموع الفتاوى (٨/٤٥٩) .

٢- سورة الزمر (٧) .

٣- سورة الأنعام (١٥١) .

٤- سورة الإسراء (٣٢) .

ولكنهم خلطوا بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية . فالإرادة الكونية القدرية : هي الإرادة الشاملة لجميع الكائنات الحية المحيطة بجميع الحادثات . التي يقال فيها : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] . و قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾[4] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[5] .

فهذه الإرادة هي مشيئته الشاملة ، وقدرته النافذة ، وليس لأحد خروج منها ، ولا محيد عنها . ولا ملازمة بينها وبين الرضى والمحبة ، بل يدخل فيها الكفر والإيمان ، والسيئات والطاعات ، والمحبوب المرضي له سبحانه ، والمكروه المبغض . كل ذلك بمشيئته وقدرته وخلقه وتكوينه . وتتناول هذه ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث .

---

١ - سورة الأنعام (١٢٥) .

٢ - سورة هود (٣٤) .

٣ - سورة البقرة (٢٥٣) .

٤ - سورة الكهف (٣٩) .

٥ - سورة البقرة (١١٧) .

وأما الإرادة الدينية الشرعية : هي محبة المراد والرضى به ، ومحبة أهله والرضى عنهم ، وجزاؤهم بالحسنى ، كما في قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [1] . وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [2] . وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [3] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [4] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [5] .

فهذه الإرادة المستلزمة لمحبة الله تعالى ورضاه ، فلا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا ينهى إلا عما يكرهه ويأباه ، ولا تلازم بينها وبين الإرادة الكونية

١- سورة البقرة (١٨٥) .

٢- سورة المائدة (٦) .

٣- سورة النساء (٢٦-٢٨) .

٤- سورة الإسراء (٢٣) .

٥- سورة النحل (٩٠) .

إلا في حق المؤمن المطيع ، إذ لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة[1] .

فمن خلط بين هاتين الإرادتين ضل وجانب الصواب ، وإنما الصواب عند من ميز بينهما وعرف الإرادة الشرعية المحبوبة لله ، من الإرادة الكونية التي شاءها وقدرها . وعرف تعلقهما بالمخلوقات بأقسامه الأربعة ، أحدها : ما تعلقت به الإرادتان ، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة ، فإن الله أراده ، إرادة دين وشرع ، فأمر به وأحبه ورضيه ، وأراده إرادة كون ، ولولا ذلك لما كان .

الثاني : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط ، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة ، فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار ، فتلك كلها إرادة دين ، وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ، ولو لم تقع .

الثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها ، ولم يرضها ، ولم يحبها ، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولو لا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

الرابع : ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه ، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي[2] .

٣- زعمهم أن تكليف الرب لعباده ، تكليف بما لا يطلق ، إذ العباد لا يطيقون إلا ما فعلوا من طاعة أو معصية فهذا هو ما في

١- مجموع الفتاوى (٨/١٨٨،١٩٧-١٩٨،٢٠١-٢٠٢) التحفة العراقية (٣٢٧-٣٢٨) . شرح العقيدة الطحاوية (٥٦-٥٧) معارج القبول (١/١٥٦-١٥٧) . بتصرف .

٢- مجموع الفتاوى (١٨٩) .

مقدورهم . مستدلين بقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [1] . وبقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [2]. زعم باطل وقد استدلوا بالآيات الكريمة في غير محلها . زاعمين أن الاستطاعة المنفية في الآيات الكريمة هي الاستطاعة المشروطة للفعل ، والتي هي مناط الأمر والنهي كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [3] . وليس الأمر كذلك إذ لو انتفت هذه الاستطاعة انتفى الأمر والنهي والوعد والوعيد والحمد والندم والثواب والعقاب .

فالاستطاعة نوعان : استطاعة قبل الفعل ، وهي صحة الجوارح ، وارتفاع الموانع وهذه الاستطاعة الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي والثواب والعقاب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [4] . وقوله : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [5] . فقد أوجب سبحانه وتعالى الحج على من استطاعه فمن لم يحج من هؤلاء كان عاصياً باتفاق المسلمين ، إذ وجدت في حقه الاستطاعة المشروطة في الأمر والنهي و لم توجد في حقه استطاعة مقارنة . ولا يختلف أحد في أن سالم الجوارح مرتفع الموانع لو قال فيما كلفه الله أو كلفه الإمام أو سيده : لا أستطيع . لقيل له كذبت وهذه ضرورة لا محيد عنها .

---

١ - سورة البقرة (٢٨٦) .

٢ - سورة الكهف (١٠١) .

٣ - سورة آل عمران (٩٧) .

٤ - سورة آل عمران(٩٧) .

٥ - سورة التغابن (١٥) .

وأما النوع الثاني : فهي التوفيق في الطاعة ، والخذلان في المعصية ، والعون فيما عداهما ، وهي مع الفعل ، ويعبر عنها بالمقارنة ، ولا توجد إلا في حق من فعل ، لأنها هي الاستطاعة الكونية التي هي مناط القضاء والقدر ، وبها يتحقق وجود الفعل وفيها يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ [2] . ولا شك أن الاستطاعة التي أثبت الله عز وجل قبل الفعل غير التي نفى مع عدم الفعل والله أعلم [3] .

٤- أنه يلزم من مذهبهم التسوية بين الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ،والأبرار والفجار ، وهذا لازم باطل ، لأنه خلاف الحق . فقد ميز سبحانه وتعالى بين أولئك فشرع الإيمان وأحبه وأحب أهله ونعم أهل طاعته ، وخلق الكفر وأبغضه ونهى عنه وأبغض أهله وعذب أهل معصيته . ولام من سوى بينهم قال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

١- سورة الكهف (١٠١) .

٢- سورة هود (٢٠) .

٣- انظر : الدرة فيما يجب اعتقاده (٣١٣-٣١٤) . و مجموع الفتاوى (٨/٢٩١،٣٧٢-٣٧٣،٤٤١) .

٤- سورة ص (٢٨) .

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [2] .

الخطوة الثالثة :

معرفة مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة أفعال العباد ولزومه : فإن فيه السلامة من كل زيغ ، والعلاج لكل خطأ . ويكون هذا في أمرين :

الأمر الأول : إنكارهم للفظ الجبر فهم ينكرونه لسببين الأول : لأنه لم يرد به الكتاب والسنة ، وما لم يرد به الكتاب والسنة من الألفاظ ينبغي تركه ، واستعمال ما ورد فيهما أو في أحدهما روى الخلال بسنده عن بقية بن الوليد قال : سألت الزبيدي والأزاعي عن الجبر ؟. فقال الزبيدي : أمر الله أعظم ، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ، ولكن يقضي ويقدر ، ويخلق ويجبل عبده على ما أحبه ، وقال الأوزاعي : ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن ولا السنة فأهاب أن أقول : ذلك ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما وضعت كلاهما مذكورة ، هذا مخافة أن يرتاب رجل من الجماعة والتصديق [3] .

فلم يرض هذان الإمامان بلفظ الجبر في حق الله عز وجل قال ابن تيمية رحمه الله بعد إيراده : « فهذان الجوابان اللذان ذكرهما هذان الإمامان في عصر تابعي التابعين من أحسن الأجوبة .

---

1 - سورة الجاثية (٢١) .

2 - سورة القلم (٣٥-٣٦) .

3 - السنة للخلال (٣/٥٥٥) .شرح أصول اعتقاد أهل السنة و الجماعة (٤/٧٧٥) .

أما الزبيدي : فإنه قال : أمر الله أعظم ، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل فنفي الجبر . وذلك لأن الجبر المعروف في اللغة : هو إلزام الإنسان بخلاف رضاه . فقال : الله أعظم من أن يجبر أو يعضل ، لأن الله سبحانه قادر على أن يجعل العبد مختاراً راضياً لما يفعله ، ومبغضاً وكارهاً لما يتركه كما هو الواقع ، فلا يكون العبد مجبوراً على ما يحبه ويرضاه ، ويريده وهي أفعاله الاختيارية .

وأما الأوزاعي : فإنه منع من إطلاق هذا اللفظ وإن عني به هذا المعنى حيث لم يكن له أصل في الكتاب والسنة . فيفضي إلى إطلاق لفظ مبتدع ظاهر في إرادة الباطل ، وذلك لا يسوغ وجواب الأوزاعي أقوم من جواب الزبيدي ، لأن الزبيدي نفى الجبر ، والأوزاعي منع إطلاقه إذ هذا اللفظ قد يحتمل معنى صحيحاً ، ونفيه قد يقتضي نفي الحق والباطل » [1] .

فأنكروا لفظ الجبر لعدم وروده في الكتاب والسنة وقالوا : بالجَبْل [2] . كما في كلام الإمامين الزبيدي والأوزاعي ، وكما رواه عبدالرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري حيث يقول : أنكره سفيان الثوري جبر ، وقال : الله عز وجل جبل العباد ، قال : أبو بكر المروذي أراد قول النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبدالقيس [3] . أشار بذلك إلى ما رواه أبو داود قال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنُ الطَّبَّاعِ حَدَّثَنَا مَطَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَعْنَقُ حَدَّثَتْنِي أُمُّ أَبَانَ بِنْتُ الْوَازِعِ بْنِ زَارِعٍ عَنْ جَدِّهَا زَارِعٍ وَكَانَ فِي وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ قَالَ : لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَجَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرِجْلَهُ

---

١ - درء تعارض العقل والنقل (١/٦٧،٦٩) .

٢ - الجَبْل : الخلق والفطرة ، ومنه الجِبِلَّة بكسرتين وتقثيل اللام والطبيعة والخليقة والغريزة بمعنى واحد وأمر جِبِلِّي منسوب إلى الجبلة . النهاية في غريب الحديث (٢/٢٣٦) . المصباح المنير(٣٥).

٣ - السنة للخلال (٣/٥٥٣) .

قَالَ : وَانْتَظَرَ الْمُنْذِرُ الأَشَجُّ [١] حَتَّى أَتَى عَيْبَتَهُ [٢] فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : « إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ » قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا ؟ . قَالَ : « بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا » . قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ[٣] .

---

١ - هو المنذر بن عائذ بن الحارث العصري العبدي ، يقال له : أشج عبد القيس ، وأشج بني عصر مشهور بلقبه ، وهو سيد قومه وقائدهم للإسلام لقبه بهذا النبي صلى الله عليه وسلم . الاستيعاب(٣/٤٤١). الإصابة (١/٦٦) .

٢ - العَيْبَةُ : زَبِيْلٌ من أدم ، وما يجعل فيه الثياب ، جمعه عياب . النهاية في غريب الحديث (٣/٣٢٧) القاموس (١٥٢).

٣ - حسن لغيره سنن أبي داود (٤/٣٥٨) . كتاب الأدب . باب في قبلة الجسد حديث (٥٢٢٥) . وفي سنده أم أبان بنت الوازع بن زارع عن جدها وعنها مطر بن عبد الرحمن الأعنق مقبولة من الرابعة روى لها البخاري في الأدب المفرد وأبو داود . تهذيب التهذيب (١٢/٤٨٥) . التقريب (٧٧٥). ومطر بن عبد الرحمن العبدي الأعنق أبو عبد الرحمن البصري . روى عن أم أبان بنت الوازع وأبي العالية وغيرهما ، وعنه محمد بن عيسى بن الطباع وأبوداود الطيالسي وغيرهما قال أبو حاتم محله الصدق ، وذكره ابن حبان في ثقاته . صدوق من السابعة روى له البخاري في الأدب المفرد وأبو داود . الثقات لابن حبان (٩/١٨٩). تهذيب التهذيب (١٠/١٥٣). التقريب(٥٣٤) . ومحمد بن عيسى بن نجيح البغدادي أبو جعفر، ابن الطباع ثقة فقيه من العاشرة مات ٢٢٤هـ روى له البخاري تعليقاً وأبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي وابن ماجه . الجرح والتعديل(٨/٣٨).

وهذا سند صالح للاعتبار وقد أخرج الحديث الإمام أحمد (٤/٢٠٥-٢٠٦) قال حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ (هو ابن علية) قَالَ حَدَّثَنَا يُونُسُ (ابن عبيد بن دينار) قَالَ زَعَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ قَالَ أَشَجُّ بْنُ عَصَرٍ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ فِيكَ خُلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قُلْتُ مَا هُمَا قَالَ الْحِلْمُ وَالْحَيَاءُ قُلْتُ أَقَدِيمًا كَانَ فِيَّ أَمْ حَدِيثًا قَالَ بَلْ قَدِيمًا قُلْتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا » . قال الهيثمي : « رجاله رجال الصحيح إلا أن ابن أبي بكرة لم يدرك الأشج » . ومن طريق يونس به أخرجه ابن أبي شيبة (٨/٣٣٤) و(١٢/٢٠٢) والبخاري في الأدب المفرد (٢٠٢) .والنسائي في الكبرى(٤/٤١٦) كتاب النعوت . باب(٤٨) الحب والكراهية. وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، الإحسان(١٦/١٧٨) قال المحقق : فيه المثنى بن ماوي العبدي ذكره المؤلف في الثقات ، وسكت عنه البخاري وابن أبي حاتم وباقي رجاله ثقات . وأخرجه ابن ماجه(٢/١٤٠١)

ولذا قال الأوزاعي والزبيدي وغيرهما من السلف لفظ « الجبل » جاءت به السنة فيقال : جبل الله فلاناً على كذا[1] .

السبب الثاني : أن لفظ الجبر لفظ مجمل ، قد يراد به إكراه الفاعل على الفعل بدون رضا كما يقال : جبر الأب ابنته على النكاح وجبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه . والله تعالى قادر على إحداث إرادة واختيار للعبد ، وجعله فاعلاً بمشيئته وقدرته فهو أعلا وأجل من أن يجبر غيره على ما أراد .

وقد يراد بالجبر : خلق ما في النفوس من الاعتقادات والإدارات كقول بعضهم : الجبار الذي جبر العباد على ما أراد .

فلما كان لفظ الجبر مجملاً هكذا نهى الأئمة الأعلام عن إطلاقه في النفي والإثبات ومنهم الأوزاعي والزبيدي والثوري وأحمد وغيرهم [2] .

الأمر الثاني :

أن أهل السنة والجماعة مؤمنون أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وهو ربه ومليكه . متصرف فيه كيف يشاء لا رب غيره ، ولا خالق سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، أحاط علمه بكل شيء ، خلق الشيء وقدره تقديراً ، خلق العباد وقدر آجالهم وأعمالهم وما ينتهون إليه من سعادة أو شقاء ، وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته وقدرته .

كتاب الزهد باب(١٨) الحلم .عن أبي سعيد الخدري وفيه « الحلم والتؤدة » وفي سنده عمارة بن جوين العبدي أبو هارون متروك ومنهم من كذبه . التقريب (٤٠٨) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال(٢٨٠). فالحديث حسن بمجموع طرقه ماعدا رواية ابن ماجه لا يعتبر بها . وقد حسن الهيثمي (٣٩٠/٩) رواية أبي داود .

١ - مجموع الفتاوى (٤٦٢/٨).

٢ - المصدر السابق (١٣١/٨-١٣٢و٤٦١-٤٦٥) . بتصرف واختصار .

فالعباد وأفعالهم كلها من طاعة أو معصية ، من قول أو عمل أو عقد بالقلب فكلها خلق تعالى ، الحركة والسكون سواء ، لا خالق غير الله تعالى ، وإنما الفرق بيننا وبين الجمادات هو أن الله عز وجل خلق فينا اختياراً وتميزاً ، وإرادة ، ولم يخلق في الجمادات شيئاً من ذلك ، وكل حركة أو سكون لحي أو غير حي فكل ذلك مخلوق لله تعالى [1]. قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [2] . وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [3] . وقال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [4].

فبما خلق الله في العبد من تمييز و اختيار و قدرة و إرادة ، يفعل بذلك ما شاء وأراد من عمل ، ولكن لا يعمل إلا بعد مشيئة الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [5] .

ومع هذا فالعباد مأمورون ، ومنهيون ، أمرهم الله بطاعته سبحانه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ورضي ذلك منهم ، وأحبه وأحب أهل طاعته ووعدهم بحسن الثواب وجزيل الكرامة . ونهاهم عن معصيته تعالى ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم ،وكره المعصية وأهلها. وتوعدهم بالعذاب

---

[1] - الدرة فيما يجب اعتقاده (٢٩٩-٣٠٠) .

[2] - سورة الفرقان (٣) .

[3] - سورة الفرقان (٥٩) .

[4] - سورة الصافات (٩٦) .

[5] - سورة التكوير (٢٧-٢٩) .

والمقت.وشاء ذلك كله وقدره فله الحكمة البالغة والحجة القاطعة ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [1] . وليس لأحد أن يحتج بشيء من هذا على ترك طاعة أو ارتكاب معصية .

و لم يقل أحد من السلف أن العبد ليس بفاعل ، ولا مختار ، ولا مريد ، ولا قادر ، بل لم يقل أحد منهم أنه فاعل مجاز ، مع أن القرآن الكريم مليء بذكر أفعال العباد ، وأنهم يطيعون ويعصون ، ويصومون ويصلون ، ويسرقون ويكذبون ، وغير ذلك من أفعال العباد .

وذلك لأن الفعل عند السلف قسمان : فعل إبداع ، وفعل إضافة لا ثالث لهما ، ففعل الإبداع : هو الخلق والاختراع ، وليس ذلك لأحد إلا الله تعالى فقط ، لأنه عز وجل خالق الأشياء كلها ومبتدعها في الوجود بعد أن لم تكن .

وأما فعل الإضافة : فهو نسبة الفعل وإضافته إلى من قام به [2] . ولذا فالأفعال تنسب إلى أصحابها الذين قاموا بها ، وهم فاعلون لها حقيقة والله سبحانه وتعالى خالق لهم ولأفعالهم [3] . قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [5] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ

---

[1] - سورة الأنبياء (٢٣) .

[2] - الدرة فيما يجب اعتقاده (٣٠٥) .

[3] - مجموع الفتاوى (٨/٤٦٠).

[4] - سورة الصافات (٩٦) .

[5] - سورة الجن (١٩) .

مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [2].

وقال تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [3]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الكثيرة التي تنسب الأفعال إلى من قاموا بها .

ويجمل في هذا المقام أن أتوج ما ذكرت بما حرره شيخ الإسلام عن مذهب أهل السنة والجماعة ، في مواطن من مجموع الفتاوى ، قال رحمه الله : « مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب – أي : أفعال العباد – ما دل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان : وهو أن الله خالق كل شيء ربه ومليكه ، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها ، من أفعال العباد ، وغير أفعال العباد . وأنه سبحانه وتعالى ماشاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته ، لا يمتنع عليه شيء شاءه ، بل هو قادر على كل شيء ، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه .

وأنه سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، ومالم يكن لو كان كيف يكون ، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها ، وقد قدَّر الله مقادير الخلائق ، قبل أن يخلقهم : قدَّر آجالهم وأرزاقهم ، وأعمالهم ، وكتب ذلك ، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة .

---

[1] - سورة البقرة (١٢٧) .

[2] - سورة آل عمران (٣٩) .

[3] - سورة الكهف (٧٤) .

فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، ومشيئته لكل ما كان ، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون ، وتقديره لها ، وكتابته إياها قبل أن تكون [1] .

وقال أيضاً رحمه الله : « وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به ، منهيون عما نهاهم الله عنه ، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ، ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه ولا محرم فعله ، بل لله الحجة البالغة على عبادة » [2] .

وقال أيضاً رحمه الله : « ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، مع إيمانهم بالقضاء والقدر ، وأن الله خالق كل شيء ، وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ،وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وأن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه ، مع قولهم أن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [3] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن

---

[1] - مجموع الفتاوى (٨/٤٤٩-٤٥٠).

[2] - المصدر السابق (٤٥٢) .

[3] - سورة المدثر (٥٤-٥٦) .

[4] - سورة الانسان (٢٩-٣٠) .

شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] .

والقرآن قد أخبر بأن العباد يؤمنون ويكفرون ، ويفعلون ويعملون ، ويكسبون ، ويطيعون ويعصون ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويحجون ويعتمرون ، ويقتلون ، ويزنون ، ويسرقون ، ويصدقون ويكذبون ، ويأكلون ويشربون ، ويقاتلون ويحاربون ، فلم يكن أحد من السلف والأئمة يقول : إن العبد ليس بفاعل ولا مختار ، ولا مريد ولا قادر ، ولا أحد منهم قال : إنه فاعل مجازاً ، بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز ، متفقون على أن العبد فاعل حقيقة والله خالق لذاته وصفاته وأفعاله » [2] .

---

١ - سورة التكوير (٢٧ – ٢٩) .

٢ - مجموع الفتاوي (٤٥٦/٨-٤٦٠) .

الفصل الثالث

دعاوى العنصرية والقبلية ونحوها وأثرها في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله وعلاجه في القرآن الكريم وفيه مبحثان :

المبحث الأول: دعاوى العنصرية والقبلية ونحوها وأثرها في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

المبحث الثاني: علاج هذا العائق .

المبحث الأول

دعاوى العنصرية والقبلية ونحوها وأثرها في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

من الأفكار والعقائد المنحرفة التي تعوق المسلمين عن الجهاد في سبيل الله عز وجل دعوى العنصرية و القبلية ونحوها كالقومية والوطنية وغيرها من الشعارات التي تلزم كل واحدة منها الآخذين بها بنبذ ما يخالفها من عوامل الافتراق الأخرى ، إذا تعارضت معها ، ولو كانت الدين والعقيدة [1].

ولذا فقد وأد الإسلام هذه الدعاوى في أول عهده ، وأطفأ شررها بين المسلمين ، وأقام بينهم رابطة الإيمان وأخوة الدين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2] . فهذه الأخوة والرابطة التي أقامها الإسلام أخوة الإيمان ورابطته التي تجمع المؤمنين صفاً واحداً لا فرق بينهم إلا بالتقوى [3]. وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ [4] يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ

---

[1] – انظر : كواشف زيوف (٢٤٧) .

[2] – سورة الحجرات (١٠).

[3] – انظر : تفسير النسفي (١٦٩/٤ـــ ١٧٠) .

[4] – عمية : بضم العين وكسرها و كسر الميم المشددة و فتح الياء وتشديدها : فسرها الإمام أحمد: بأنها الأمر الأعمى لا يستبين وجهه . و قيل الضلالة كالقتال في العصبية و الأهواء . مشارق الأنوار (٨٨/٢) . النهاية (٣٠٤/٣) .

فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلاَ يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ » [1].

قال النووي في شرحه : يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة هذه الألفاظ بالعين والصاد المهملتين هذا هو الصواب في الألفاظ الثلاثة ، ومعناه أنه يقاتل لشهوة نفسه وغضبه لها ، عصبية لقومه وهواه [2] .

أي : لا يقاتل لنصرة الدين الحق ، وإنما يقاتل لمحض العصبية كما كان يقاتل أهل الجاهلية الأولى حمية وعصبية للقوم .

وبهذه النصوص الشرعية اجتث الإسلام هذا النتن الجاهلي من نفوس المؤمنين وجعلهم يعيشون في ظل الإسلام إخوة متحابين متآلفين يمثلهم قوله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » [3] . قوة متماسكة يشد بعضهم بعضاً قال صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ » [4] .

إلا أنه ظهرت في العصر الحديث نابتة تلك الدعاوى الجاهلية وضع غرسها ويسقيه أعداء الإسلام الذين يكيدون للإسلام و أهله فأحيوا العنصرية القومية

---

[1] – صحيح مسلم (٣/١٤٧٦ـ ١٤٧٧) . كتاب الإمارة . باب (١٣) وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ...... حديث (٥٣) .

[2] – شرح مسلم (١٢/ ٢٣٨ـ ٢٣٩) بتصرف وانظر : مشارق الأنوار (٩٢/٩٤) .

[3] – صحيح البخاري (٧/ ٢٧٧) كتاب الأدب . باب(٢٧) رحمة الناس بالبهائم . حديث (٤) . وصحيح مسلم (٤/١٩٩٩–٢٠٠٠) . كتاب البر والصلة والآداب . باب(١٧) تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم . حديث(٦٦) . اللفظ لمسلم .

[4] – صحيح البخاري (٧/٨٠) كتاب الأدب (٣٦) تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ـ حديث الباب. وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩) كتاب البر و الصلة و الآداب . باب (١٧)تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم . حديث (٦٥). واللفظ للبخاري .

والوطنية واللغوية وغيرها حينما رأوا أنها تسعفهم في تفتيت وحـدة المسلمين وتمزيق شملهم وتفريق كلمتهم و إشاعة العداوة والبغضاء بينهم ، متى تمسكوا بها وربطوا علاقتهم بموجبها و انسلخوا من دينهم الحق وقيمهم السامية المستمدة من تعاليمه [1] .

وعن هذا يحدثنا أبو الحسن الندوي فيقول : " مما يدعوا إلى الأسف والاضطراب ، أن هذه العدوى القومية [2] قد سرت إلى بعض الأقطار الإسلامية التي كان يجب وكان من المترقب أن تكون زعيمة لدعوة الإسلام العالمية ، حاملة في عصرها لرسالة الأمن والسلام ، وأن تكون جبهة قوية ضد القومية والوطنية ، وذلك بانحلال الدين في هذه البلاد وبتأثير الآداب الأوروبية والحضارة الغربية ، فترى في الترك الطورانية ، والدعوة إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها ، والنظرة إلى الدين الإسلامي الذي انتشر على أيدي العرب وشريعة الإسلام وثقافته ولغته نظرة تشبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى الأديان التي جاء بها الأنبياء من غير النسل الآري والآداب السامية وثقافتها ، فاعتقد بعض المفكرين في تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارئ غريب لا يصلح للترك ، و أن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامي ، و أدهى من ذلك أن سرت هذه العدوى إلى العرب آخر القرن التاسع عشر الميلادي لعوامل داخلية وخارجية فمن أهم الداخلية : الكبرياء القومية التي تظاهر بها بعض الحكام الأتراك التي تشعر كثيراً من العرب الذين عندهم حساسية زائدة بأنهم من الدرجة الثانية ، أو يشعرون فيها رائحة الاستعمار ، وقد أعان على ذلك عدم إحلالهم للغة العربية المحل اللائق ، والنظر إلى اللغة التركية كلغة الشعب الحاكم ، إلى غير ذلك من الأخطاء السياسية فأثار ذلك في العرب النقمة و النخوة العربية ، وأضرمها وعمل في تعميق

---

[1] – انظر : المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام (٢١/٢٢) . وكواشف زيوف (٢٤٩) .

[2] – كان يتكلم فيما سبق هذا عن القومية و الوطنية في أوروبا .

جذورها بغض كبار المثقفين المسيحيين ، الذين لم تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة و الدين ، والإخاء الإسلامي بطبيعة الحال ، وتلقوا الثقافة الغربية التي قد سرى في أدبها وشعرها وفلسفتها وسياستها تمجيد العنصر والجنس والفكرة القومية .

وجاء العامل الثاني الأجنبي : فانتهز دعاة الغرب والقادة السياسيون الذين كانوا يحلمون بانهيار الإمبراطورية العثمانية ، فاحتضنوا هذه الفكرة التي قد دب دبيبها في عروق بعض الشباب العرب الطامحين وبدؤوا يغذونها بكتاباتهم ومؤلفاتهم ورحلاتهم وجولاتهم في المدن العربية الكبرى ، اتصالاتهم بقادة الرأي ، وحملة الأقلام و رؤساء القبائل و الطوائف في العالم العربي . ونشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ــ١٩١٨م وسنحت للأقطار العربية فرصة الانشقاق عن الإمبراطورية العثمانية ، وانتهز الحلفاء هذه الفرصة الذهبية فنفخوا في قربة القومية ، وقام لورانس الداهية بدوره فأشعل الحماس القومي وأثار العرب على الأتراك ، ثم جاء مفهوم القومية العربية « وهو مفهوم غربي » وهي فكرة مستقلة ، و فلسفة بذاتها ، لها كل ما للدين من حمية وحرارة ، وشعائر ومقدسات ، فخضع لها العرب المثقفون خصوصا الشباب الذين ضعفت صلتهم بالدين لأسباب كثيرة ، ونشأت فيهم الرغبة الشديدة لنيل المجد والعظمة في أقرب وقت ، ومجاراة الشعوب الحرة الراقية في مضمار المدنية والتقدم ، ولم يجدوا لذلك سبيلا بزعمهم إلا القومية العربية » [1] .

أثر هذه الأفكار في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله عز وجل :

إن هذه الدعاوى تشق عصا المسلمين وتفرق وحدهم ، وتمزق شملهم وتجعل الأمة الإسلامية أمما متفرقة مختلفة لكل أمة منها شعار تجتمع تحت لوائه توالي فيه وتبغض لأجله ، فمثلا عنصر اللغة يتكون تحته قوميات متفرقة ، فالعربي ينادي لعربيته ، وأخوة من ينطقها ويتحدث بها وإن فارقه في الوطن

---

[1] – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢١٠/٢١٦) بتصرف واختصار .

والقبيلة ، بل وإن خالفه في الدين والعقيدة ، إذ يمكن للمسلم الذي يؤمن بـــالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره شره ، أن يوالي اليـــهودي الذي ينكر دينه ويبغض نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ويقول : عزير ابن الله ، ويوالي أيضاً النصراني الذي يعتقد بعقيدة التثليث ، ويوالي كذلـــك الشـــيوعي الملحد وغير هؤلاء المهم أنهم عرب ، ويعادي غير العرب للغتـــهم وإن كـــانوا مسلمين إلا أنهم ليسوا بعرب فيقطع عنهم رباط الأخوة والصلة ، وكذلك الحال بالنسبة للفارسي ، والتركي وغيرهم ممن ينادي بقومية اللغة . ولا يختلف الحـــال بالنسبة لعنصر القبيلة أو الوطنية فكل واحدة من هذه الدعاوى يتكون تحتها عدة قوميات متفرقة إما بسبب الوطن أو القبيلة أو اللون أو الجنس ، وكل طائفـــة منها لا تؤمن إلا لمن تبعها في تلك النزعة التي تنادي بها ، وعليها تجتمـــع ، وإن اختلف الدين ، كل حزب بما لديهم فرحون [1] .

إن مؤسسي هذه الأفكار أعداء للإسلام كما سلف ويقصدون بها تمزيـــق الوحدة الإسلامية ، واجتثاث الروح الإيمانية من نفوس المسلمين ليقضوا علـــى الجهاد ، ويعيشوا في مأمن منه ، فأثاروا لهم هذه الشعارات ليتكتلوا تحت رايتـها وينادوا باتجاهاتها ، ويجاهدوا لأجلها ، ويموتوا في سبيلها ، لها يوالون وعليـــها يعادون بدلاً من اتحادهم تحت راية الإسلام واتفاقهم في عقيدتهم ومبادئ دينـهم ، وجهادهم لأجله ، وولائهم وبغضهم فيه .

ولذا جاء في أقوالهم : « للمسلم العربي دينـــان : الإســـلام و القوميـــة ، وللمسيحي العربي دينان : النصرانية و القومية العربية ، و الإسلام و النصرانيـــة يختلفان ويفرقان ، أما القومية العربية فهي التي تجمعهم و توحد صفهم العـــربي أمام المستعمر الغاشم فعليهم أن يتمسكوا بها ، ويدينوا لهـــا بـــالولاء والحـــب

---

[1] – انظر : المخططات الاستعمارية لمكافحة الإســـلام (٢٣ـــ٢٩) . كواشـــف زيـــوف (٢٦٣–٢٧٠) .

والتضحية والإخلاص ، وينبذوا كل شيء يناقضها »[1] . « الدين لله والوطن للجميع »[2] . « لقد كانت الأديان في التاريخ أي : قبل نشوء مبدأ القوميات حديثاً أهم صلة روحية بين أبناء البشر ، ولكننا نرى أيامنا هذه أن رابطة القومية قد تفوقت على رابطة الدين لدى كثير من الأقوام التي تدين بدين واحد »[3] . « أن الكفاح القومي والجهاد في سبيل النهضة القومية يحتاج إلى إيمان راسخ في النفوس ... يتطلب بذل المجهود لبث الإيمان القومي في النفوس ، ولتقوية هذا الإيمان وتغذيته بكل الوسائل الممكنة »[4] . « الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشري بالجماعات ، وتجعله يحبها ويفخر بها ويعمل من أجلها ، ويضحي في سبيلها ... إن العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وتحبب بعضهم إلى بعض فتؤلف منهم أمة واحدة كثيرة ومتنوعة جداً : الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ ، والاشتراك في اللغة والتاريخ والتشابه في العواطف والعوائد ، والتماثل في ذكريات الماضي ، ونزعات الحال وآمال المستقبل ... كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولد التقارب والتعاطف وتكون الأمم والأوطان »[5] .

تلك نماذج من أقوالهم تدل دلالة صريحة على أن هذه الدعاوى تنبذ الإسلام وتحارب الجهاد من أجله ، وتغلق باب الولاء والبراء من أجل الإسلام ، فلا ولاء لأهله ولا براء من أعدائه يقول الشيخ محمد محمود الصواف : « والشاب المسلم القومي قد استجاب للنداء وحمل الدعوة الجديدة بأمانة وحصانة ، وحماس منقطع النظير ، وقد ترك دينه بكل بطولة ورجوله . وأخذ

---

[1] – المخططات الاستعمارية (٣٦) .

[2] – فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام (٤٣) .

[3] – المرجع السابق (٤٨) .

[4] – المرجع السابق (٣٨) .

[5] – المرجع السابق (٢٧) .

يصاول المسلمين ويطاولهم . ويقاتل دون دينه الجديد وهو قوميته . وأصبح الكثير منهم يأنف من دخول المسجد ويكره قراءة القرآن لئلا يتهم بالرجعية ، ويوصم بالتخلف وهو شاب تقدمي ، وقومي عربي ، مؤمن بقوميته وعروبته .

أما الشاب المسيحي القومي فقد بقي مسيحياً . وبقي رباطه الوثيق بإنجيله وكنيسته ورجال دينه من القسس والرهبان ... وقل أن تجد شاباً مسيحياً يحمل العداء لدينه .

وهذا ما يدلنا على مدى ارتباطهم بدينهم . و تمسكهم بعقيدتهم ، مع عملهم في الأحزاب القومية والسياسية وهذا لا شك يعود إلى قوة التركيز في مقاومة الإسلام وتجريد الشباب المسلم من دينه . على أيدي دعاة القومية من غير المسلمين أمثال الصليبي ميشيل عفلق ومن لف لفه » [1] .

إن أمة يفتك هذا الداء في فؤادها ، وينتشر في أعضائها حتى فتت وحدتها وفرق صفها ، وجعل منها في داخلها أمماً متفرقة كل أمة تناضل عن فكرتها وتقاتل لأجل قوميتها ، وتضحي في سبيل ذلك بدينها ، لا يمكن أن تقيم علم الجهاد في سبيل الله لإعلاء دينه ، ولا يتحد صفها أمام أعدائه . لأن الآراء مختلفة والأفكار متضاربة ، والعقيدة محرفة ، ومن هنا يبرز أثر هذه الدعاوى واضحاً في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

---

[1] - المخططات الاستعمارية (٣٦) .

المبحث الثاني
علاج هذا العائق

جاء علاج هذا العائق العصيب الذي يقف مانعاً بين الأمة الإسلامية وإقامة فرض الجهاد في سبيل الله الذي شرعه الله تبارك وتعالى لإعلاء كلمته ورفع راية دينه ، دين الإسلام الحق في الآيات التالية :

أولاً: قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] .

فبين سبحانه وتعالى للناس أصل خلقهم ، وأنه خلقهم من أصل واحد وجنس واحد وكلهم من ذكر وأنثى ، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء ، وقد جعلهم سبحانه وتعالى شعوباً متفرقة وقبائل مختلفة ليعرف بعضهم بعضاً ، ويعتزي كل إلى آبائه ولا تختلط الأنساب وتضيع ، لا لأجل التفاخر بالآباء والأجداد ، والتفاضل بالأنساب ولذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ فالتقوى هي أساس التفاضل وبها يكون التكريم عند الله [2] .

وفي هذه قطع للتفاخر بالأنساب ، والطعن في الأحساب ، فالمؤمنون كلهم سواء لا يفترقون إلا بتقواهم لله عز وجل وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار والموالي .

---

[1] - سورة الحجرات (١٣).

[2] - انظر : تفسير النسفي (٤/ ١٧٢ــ١٧٣) . تيسير الكريم الرحمن (٥/٨٢ ــ ٨٣) .

ثانياً :قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) .

فالآية كما سبق تبين الأخوة الحقة والرابطة الوثيقة التي بناها الإسلام بين أهله ، أخوة الدين ورابطة العقيدة الواحدة لها الولاء ولأجلها البراء(٢) : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ (٣) . لا ينظرون إلى لون ولا إلى لغة ، ولا إلى وطن ولا إلى جنس ولا إلى قبيلة ، وإنما الرابط بينهم هو العقيدة الواحدة ، دينهم الإسلام وكتابهم القرآن وقبلتهم الكعبة ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وموطنهم دار الإسلام ، فلا لغة تفرقهم ، ولا وطن يباعدهم ، ولا لون أو جنس يميزهم ، قلوبهم مجتمعه ، وغايتهم متحدة ، عدوهم عدو الإسلام ، لدينهم يحيون ، ولأجله يموتون ، وعليه يقاتلون . قال صلى الله عليه وسلم : " الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (٤) . وقال صلى الله عليه ويلم : " الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ " (٥) .

---

١ - سورة الحجرات(١٠) .

٢ - انظر: تفسير ابن كثير (٤/٢٢٦) .

٣ - سورة التوبة (٧١) .

٤ - صحيح البخاري (٣/ ٩٨) كتاب المظالم . باب (٣) لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه . حديث الباب .

٥ - جزء من حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد(١/١٢٢) . عن يحيى القطان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الإمام أحمد أخرجه أبو داود (٤/١٧٩) . كتاب الديات . باب إيقاد المسلم بكافر. حديث(٤٥٣٠) .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (١) .

بينت الآية الكريمة القتال المشروع من غيره ، ومن يقوم به ، فالمؤمنون يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونصر الحق وهذا هو الجهاد المشروع الذي تنال به الدرجات العالية من الجنة ، وبه أمرت الآية إذ هو قتال أعداء الله وماعداه فهو قتال باطل لا يجوز لمسلم فعله (٢) . قال صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ)) (٣) . وعن جابر رضي الله عنه قَالَ :كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ(٤) رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ : يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ((مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ))؟. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ . فَقَالَ : ((دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ)) (٥) .

فبينت هذه النصوص الشرعية علاج هذا العائق حيث وضحت الأخوة الحقة والرابطة الوثيقة التي تجمع المسلمين تحت لواء لا إله إلا الله محمد رسول الله

ومن طريق القطان أخرجه النسائي (٨/١٩-٢٠) . كتاب القسامة . باب(٩) القود بين الأحرار والمماليك في النفس . حديث(٤٧٣٤) . ورجاله ثقات

١ - سورة النساء (٧٦) .

٢ - انظر مختصر البغوي (١/ ١٤٨) الجواهر الحسان (٢/٢٦٠) .

٣ - صحيح مسلم (١٤٧٨/٣) . كتاب الأمارة . باب(١٣) وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن . حديث(٥٧) .

٤ - الكسع : ضرب الدبر باليد . النهاية (١٧٣/٤) .

٥ - صحيح البخاري (٦٥/٦) .كتاب التفسير . سورة المنافقين . باب(٥) قوله :﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم ..﴾ الآية(٦) حديث (١) .

وأن لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى لله عز وجل . وأن القتال المشروع هو ما كان لإعلاء الدين ونصر الحق ، وما عداه فهو قتال جاهلي سواء أكان للغة ، أو للوطن ، أو للقبيلة ، أو غير ذلك ، من مات فيه مات على ضلال .

وبهذا وحد الإسلام كلمة المسلمين وجمع صفهم ، ونزع ما في قلوبهم من الأغلال والأحقاد حتى أصبحت نقية صافية ، فكانوا إخوة متحابين متآلفين كما قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1] .

[1] - سورة آل عمران (١٠٣) .

الباب الخامس

المعوقات بسبب سوء الفهم لبعض الآيات القرآنية وسبل علاج ذلك في ضوء القرآن الكريم وفيه تمهيد وخمسة فصول .

التمهيد

حول تحديد معنى سوء الفهم لبعض آيات القرآن الكريم ، والأسباب الموقعة فيه ، وحجم خطورة ذلك في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

التمهيد

إن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على رسوله محمد صلـــى الله عليه وسلم ليكون نذيراً لعباده بين يدي رحمته عز وجل كما قال الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) . نزله ليتدبروا آياته ، ويعتبروا بعظاته ، فهو الينبـــوع الصـــافي والمنهل العذب الذي يستقي منه المؤمنون تعاليم دينهم ، وأحكامه ، ويعتبرون بتلاوته قـــال تعـــالى ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (٢) . وقـــال تعـــالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) . وقال تعـــالى : ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (٤) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْـــنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَـــالاً

١ - سورة الفرقان (١) .

٢ - سورة ص (٢٩) .

٣ - سورة النحل (٨٩) .

٤ - سورة إبراهيم (١) .

فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ »[1] وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضـي الله عنه قَال : سَمِعْتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ »[2].

---

١ - صحيح البخاري (٢٠٩/٨) كتاب التوحيد . باب (٤٥) وقول النبي صلى الله عليه وسلم رجل أتاه القرآن حديث (٢) . وصحيح مسلم (٥٥٨/١) .كتاب صلاة المسافرين وقصرها . باب (٤٧) فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... حديث (٢٦٦) . من حديث ابن عمر .

٢ - صحيح سنن الترمذي (١٧٥/٥-١٧٦) كتاب فضائل القرآن . باب (١٦) ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر .. حديث (٢٩١٠) . حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْحَنَفِيُّ حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ عَنْ أَيُّوبَ بْنِ مُوسَى قَال سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ قَال سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ الحديث ، وسنده كلهم ثقات سوى الضحاك بن عثمان أبي عبد الله الأسدي روى عن أيوب بن موسى ، وبكيربن عبدالله بن الأشج، وعنه عبد الكبير بن عبد المجيد الحنفي وإسحاق بن إبراهيم ، وثقه أحمد وابن معين وابن المديني وأبو داود وابن سعد وقال أبوزرعة ليس بقوي قال ابن حجر : صدوق يهم مات ١٥٣هـ روى له مسلم والآربعة . الكاشف(٣٢/٢) . تهذيب التهذيب (٣٩٢/٤-٣٩٣) .التقريب(٢٧٩). الخلاصة (١٧٦) .

وخلاصة هذا أنه ثقة ، فقد وثقه هؤلاء الأئمة وأخرج له مسلم . فالحديث صحيح . وقال الترمذي بعده : « وَيُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَرَوَاهُ أَبُو الأَحْوَصِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ بَعْضُهُمْ وَوَقَفَهُ بَعْضُهُمْ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ » . وانظر : مرويات ابن مسعود (٤٩٦/٢) ورواية أبي الأحوص الموقوفة التي أشار إليها الترمذي أخرجها الدارمي (٥٢١/٢) كتاب فضائل القرآن .باب (١) فضل من قرأ القرآن حديث (٣٣٠٨) قال : حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ قَبِيصَةُ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : تَعَلَّمُوا هَذَا

وقد اقتضت حكمة المولى جل وعلا أن يكون نبي هذه الأمـــة محمـــداً صلى الله عليه وسلم ذلك النبي العربي الأمي ، كما أرسل سبحانه وتعـــالى إخوانه من قبل بلغات قومهم قال تعـــالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] .

ولذا أنزل عليه القرآن الكريم باللغة العربية ، ليســهل عليــهم تعلمــه وتعليمه ، وتدبره ، وتحكيمه فلغتهم العربية ، يفهمون معانيها ، ويدركـــون أســـرارها ، قـــال تعـــالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [2] وقـــال تعـــــالى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا

الْقُرْآنَ فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُونَ بِتِلاَوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ أَمَا إِنِّي لاَ أَقُولُ بِآلم وَلَكِنْ بِـــأَلِفٍ وَلاَمٍ وَمِيمٍ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ .

١- سورة إبراهيم (٤) .

٢- سورة الشعراء (١٩٢-١٩٩) .

عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[1].

فهو عربي في حرفه ، ولفظه ، ومعانيه ، وبلاغته وإعجازه ، وإن كـــان فيه بعض الألفاظ اختلف في أصل عربيتها[2] إلا أن الراجح فيها أنها عربيـــة ، اشترك فيها اللسان العربي وغيره من الألسنة التي نسبت إليها في النطق والمعنى

---

[1] - سورة الزخرف (١-٤) .

[2] - وقع في القرآن الكريم بعض الألفاظ كقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ (الحديد ٢٨) . بلسان الحبشة : ضعفين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ (المزمـــل ٦) . بلســان الحبشة : قائم الليل . وغيرها مما ذكر أنه بلسان الحبشة أو الفارسية . ولذا اختلف العلمـــاء فيها هل هي معربة أم أنها عربية تواردت عليها اللغات ؟ .

فذهب الأكثرون ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير الطبري إلى أنها عربية ، ولكن اتفقت فيـــها ألفاظ العرب ، مع ألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم ، وأن الذين ذكروا أنهـــا بلســان الحبشة أو غيرهم ، لم ينفوا عربيتها ، وإنما فسروا معنى اللفظ باللسان الذي ذكروه . وانتصر لهذا ابن جرير .

وذهب آخرون إلى أنها معربة ولكنها ألفاظ يسيرة لا تخرج القرآن عن كونه عربيـــاً . ولكنـــها إشارة إلى أن القرآن الكريم ، قد حوى علوم الأولين والآخرين ، وأحاط باللغات والألســن . ثم إن هذه الألفاظ أخذتها العرب من أصولها الأعجمية ، واستخدمتها وحولتها إلى الألفـــاظ العربية ، ونزل بها القرآن ، وقد اختلطت بألفاظ العرب . فمن قال عربية فهو صادق ، ومــن قال أعجمية فهو صادق . ومال إلى هذا الرأي : ابن الجوزي والسيوطي وغيرهما . الرســالة (٤٠-٤٢) . جامع البيان (١/٨-١٠) . الإتقان (١/٤٢٧-٤٣٠) . مبـــاحث في علـــوم القرآن (٢٩٧-٢٩٨) .

. وعلى الرأي المرجوح فهي قليلة وقد صارت عربية باستخدام القرآن لها ولا تخرجه عن أن يكون عربياً [1] .

ومع هذا فإن أهل اللغة العربية يتفاوتون في فهم القرآن الكريم ، ومعرفة أسراره ودقائق معانيه ، لأن القرآن الكريم وإن أنزل بلغتهم إلا أن ذلـــك : « لا يقضي أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداته وتراكيبه ، وأقرب دليل علـــى هذا ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها ، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم » [2] . ولا ضير في هـــذا فاللغة لا يحيط بها إلا نبي [3] .

وقد حصل هذا التفاوت في فهم القرآن الكريم بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من ذلك :

١- ماروواه ابن جرير قال : حدثنا ابن بشار قال : حدثنا ابن أبي عدي ، عن حميد عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [4] فلما أتى على هذه الآيـــة ﴿ وَفَـٰكِهَةً

---

[1] - الإتقان (١/٤٢٧-٤٢٩) . مباحث في علوم القرآن (٢٩٧) .

[2] - التفسير والمفسرون (١/٣٦) .

[3] - الرسالة (٤٢) .

[4] - سورة عبس (١) .

وَأَبّـًا ﴾ [1] قال : قد عرفنا الفاكهة ، فما الأب . قال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف [2].

٢- مارواه ســـهل بن سعد رضي الله عنه . قال : وأُنْزِلَـتْ ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ ولَمْ يُنْزَلْ ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [3]وَكَانَ رِجَــالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الْخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الأَسْـــوَدَ وَلاَ يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا ، فَـــأَنْزَلَ اللَّـــهُ بَعْـــدَهُ ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي : اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ [4].

٣- ما روي عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضـي الله عنهما انه قال : " كنت لا أدري ما فاطر السموات ،حتى أتـــاني

---

١ - سورة عبس (٣١) .

٢ - جامع البيان (٥٩/٣٠) . وأورده ابن كثير (٥٠٤/٤) عن الطبري ثم قال إسناد صحيح وقـد رواه غير واحد عن أنس به .

٣ - سورة البقرة (١٨٧) .

٤ - صحيح البخاري (١٥٦/٥) كتاب التفسير – تفسير سورة البقرة . باب (٢٨) قوله تعـــالى ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ .. ﴾ الآية . حديث (٣) . وصحيح مســـلم (٧٦٦/٢) كتـــاب الصيام . باب (٨) باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر .. حديـــث (٣٣) . والسنن الكبرى للنسائي (٢٩٧/٦) . كتاب التفسير . باب (٢٧) قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ الآية . حديث (٢) . واللفظ للبخاري .

أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما: أنا فطرتها ، يقول : أنا ابتدأتها » [1]. فالصحابة رضي الله عنهم كانوا يفهمون القرآن الكريم في جملته ،لكن قد يغيب عن أحدهم مالا يغيب الآخر ، لأن فهمه تفصيلاً ومعرفة دقائقه لا يتيسر بمعرفة اللغة ، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه [2].

ولذا نجدهم يسألون المصطفى صلى الله عليه وسلم عن معاني بعض الآيات الكريمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [3] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالُوا : أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ ؟ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ أَلاَ تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لاِبْنِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[4] »[5] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله

---

[1] - فضائل القرآن لأبي عبيدالقاسم بن سلام كما في الإتقان (١/٣٥٤) وقال الشوكاني أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد ين حميد وابن أبي حاتم والبيهقي . فتح القدير (٤/٣٣٩) . وأورده ابن كثير (٣/٥٥٤) قال : قال سفيان الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس به .

[2] - التفسير والمفسرون (١/٣٦) . مباحث في علوم القرآن (٢٩٨) .

[3] - سورة الأنعام (٨٢) .

[4] - سورة لقمان (١٣) .

[5] - صحيح البخاري (٦/٢٠) كتاب التفسير سورة لقمان . باب (١) لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . حديث الباب . صحيح مسلم (١/١١٤) كتاب الإيمان . باب (٥٦) صدق

صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إلاَّ هَلَكَ » . قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [1] ؟ . قَالَ : « ذَاكَ الْعَرْضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ » [2] .

وإذا كان هذا في زمن الصحابة رضي الله عنهم ، الذين هم أفصح العرب ، ونزل القرآن بلغتهم وعايشوا نزوله ، وعرفوا ما أحاط به من قرائن وأحداث ، فمن جاء من بعدهم أكثر تفاوتا وأشد حاجة إلى البحث والنظر والرجوع إلى تفسير الأولين وإلى معرفة مفردات الألفاظ من لغة العرب ، ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق .

وكلما بعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم كلما زاد الغموض في فهم المعاني للقرآن الكريم وكثر التفاوت بينهم لاختلاف مداركهم وقوة تمكنهم من معرفة اللغة العربية وأساليب

الإيمان وإخلاصه . حديث (١٩٧) . والسنن الكبرى للنسائي (٦/٤٢٧) كتاب التفسير سورة لقمان . باب (٢٧١) قوله تعالى ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . حديث الباب . واللفظ للبخاري .

١ - سورة الانشقاق (٧-٨) .

٢ - صحيح البخاري (٦/٨١) . كتاب التفسير سورة إذا السماء انشقت . باب (١) فسوف يحاسب حسابا يسيرا . حديث (٣) . وسنن الترمذي (٥/٤٣٥) كتاب التفسير . باب (٧٦) ومن سورة إذا السماء انشقت . حديث (٣٣٣٧) . وقال : حسن صحيح . والنسائي في الكبرى (٦/٥١٠) . كتاب التفسير . سورة الانشقاق . حديث (١) . واللفظ للبخاري . وانظر : البرهان في علوم القرآن (١/١٤-١٥) .

استخدامها وبحسب معرفة محكم القرآن ومجمله ومشكله ومتشابهه وغير ذلك . من الأمور التي يحتاجها من يفسر القرآن الكريم أو يستنبط الأحكام من آياته .

ويبقى التفاوت مقبولاً ، والفهم مستقيماً ، والقول صوابا مادام أنه داخل في معنى الآية ، وهي محتملة له ، لكون اللفظ مشتركا أو مجملا ، أو مترددا بين حقيقة ومجاز ، فيحمله على الأقرب عنده ، وإن كان المراد هو الآخر . لأن كتاب الله بحره عميق ، وفهمه دقيق لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية ، وأجلّه عند مواقف الشبهات [1] . مثل قوله تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [2] . قيل شيوخا وشبابا ، وقيل أغنياء وفقراء ، وقيل نشاطا وغير نشاط ، وقيل عزابا ومتأهلين ، وقيل : مرضى وأصحاء ، وقيل : مشاغيل وغير مشاغيل . وكلها سائغ جائز والآية محمولة عليها ، لأن الشباب ، والأغنياء ، والعزاب ، والنشاط ، وغير المشاغيل كل أولئك خفاف وضدهم ثقال ، والله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بالنفر لجهاد أعدائه في سبيله خفافا وثقالا [3] .

وكقوله تعالى : ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [4] قيل القسورة : الرماة ، وقيل : الأسد ، وقيل : القناص رجال القنص . وكل ذلك جائز لأن اللفظ

---

[1] - رفع الملام عن الأئمة الأعلام (٣٤) . البرهان في علوم القرآن (٢/١٥٣) .

[2] - سورة التوبة (٤١) .

[3] - جامع البيان (١٣٧-١٤٠) . البرهان في علوم القرآن (٢/١٥١) .

[4] - سورة المدثر (٥١) .

مشترك بينها في اللغة والآية محتملة لذلك [1] . ونحو ذلك كثـير [2] . قـال الزركشي [3]: « يكثر في الآية أقوال المفسـرين واختلافـهم ، ويحكيـه المصنفون للتفسير بعبارات متباية الألفاظ ، ويظن من لافهم عنده أن في ذلك اختلافا ، فيحكيه أقوالا ، وليس كذلك ، بل يكون كل واحد منهم ذكـر معنى ظهر من الآية ، وإنما اقتصر عليه ، لأنه أظهر عند ذلك القائل ، أولكونه أليق بحال السائل .

وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره ، والآخر بمقصـوده وثمرته ، والكل يؤول إلى معنى واحد غالبا ، والمراد الجميع ، فليتفطن لذلك ، ولا يفهم من اختلاف العبارات اختلاف المراد » [4].

أما إذا خرج القول عن مدلول اللفظ ، ومعنى الآية ، وخالف الشـرع فهذا هو الفهم السيء . لأنه حمل للآية على غير المراد منها وتضمين اللفظ ما

---

١ - جامع البيان (٢٩/١٨٦-١٧١) . الإتقان (٢/١٢٠١) .

٢ - انظر : رفع الملام عن الأئمة الأعلام (٣٤-٣٥) و(٤٧-٤٨) . البرهان في علـوم القـرآن (٢/١٥٠-١٥١) . الإتقان (٢/١٢٠٠-١٢٠١) .

٣ - هو الإمام . بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي أبو عبدالله ، وقيل : ابن بهادر بـن عبدالله . الشافعي عالم بفقه الشافعية والأصول له مؤلفات منها : البحر المحيـط في أصـول الفقه والبرهان في علوم القرآن . مات سنة ٧٩٤هـ . طبقات الشافعية لابن قاضي شـهبة (٢/١٦٧) . الأعلام (٩/٦٠) .

٤ - البرهان في علوم القرآن (٢/١٥٩-١٦٠) .

لا يحمل من معنى ، وهذا فاسد ، فالفهم هو : تصور المعنى من اللفظ : يقـال : فَهِمَ الشيء فَهْماً : علمه بالقلب وتَفَهَّمَه شيئا بعد شيء [1] .

قال الشافعي رحمة الله : « كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فهو مما فهمه من القرآن » [2] .

وبهذا يعلم أن الفهم الصحيح : هو إدراك المراد من النص الشـــرعي . بوضع اللفظ مع ما يحف به من قرائن . وإذا لم يحتمله اللفظ ، وبعد عن مراد النص الشرعي فذاك الفهم السيء قال أبو إسحاق الألبيري لابنه :

وإن أرداك فـــهمـــك في مهاوى فليتك ثم ليتك مافهمت

وللوقوع في الفهم السيء أسباب مجملة فيما يلي :

١- عدم جمع الآيات الكريمة في الموضوع الواحد ، ودراستها دراسة مستفيضة ، والخروج منها بفهم سليم ، لأن الموضوع قد يـــأتي مجملاً في موضع ، ويفصل في موضع آخر ، وقـــد يختصـــر في موضع ويبسط في غيره ، وقد يكون عاماً في موضع ويخصص في آخر ، وقد يراعى فيه أحوال الناس حال نزول القرآن ، كما هو الحال في مراحل الجهاد في سبيل الله .

١- الصحاح (٥/٢٠٠٥) القاموس (١٤٧٩) .

٢- الإتقان (٢/١١٩٧) .

فمن لم يجمع الآيات التي تعني بموضوع معين ، ويقارن بينهما ، ويعرف ما تقصده بمجموعها ، فلا شك أنه يقصر عن فهم الصواب ، ويقع في الخطأ .

٢- عدم جمع الأحاديث الشريفة التي تعنى بالموضوع الذي تراد دراسته من الآية والمقارنة بينها وبين الآيات ، فالسنة النبوية المصدر الثاني للتشريع وهي شارحة للقرآن ومبينة لمعانيه وما يراد منه .

٣- الانحراف العقدي : لأن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها ، فتوقعه في تحريف النصوص إلى ما يؤيد مذهبه .

٤- متابعة الهوى فيلوي النصوص ويقتنص المعاني لينصر ما في نفسه من هوى ، ويمثل لهذا وسابقه بتفسير من يقول في قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾[1] ، أنهما علي وفاطمة ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[2] ، يعني الحسن والحسين . وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾[3] إنه معاوية[4] .

١- سورة الرحمن (١٩) .

٢- سورة الرحمن (٢٠) .

٣- سورة البقرة (٢٠٥) .

٤- البرهان (٢/١٥٢) .

٥- قصر الباع وقلة البضاعة من العلوم التي تساعد على فهم معاني القرآن الفهم الصحيح ، كمعرفة أسباب الترول والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفصل ، وعلم القراءات .

٦- عدم الإلمام باللغة العربية وفنونها ، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها ، بحسب الوضع [1] .

فهذه الأسباب كفيلة بمن يتصف بها كلها ، أو بعضها أن يجانب الصواب ، ويقع في الخطأ ، وإن كان بعضها أشد من بعض فالنتيجة واحدة .

ومما لا شك فيه أن الفهم الخاطيء للقرآن الكريم ينجم عنه العمل الخاطيء ، ومن ذلك الخطأ في فهم آيات الجهاد في سبيل الله . وسيقتصر الحديث في ذلك على الفهم السيء ؛ الذي يسبب إعاقة المسلمين عن الجهاد في سبيل الله ، كما سيأتي في الفصول التالية .

١- البرهان (١٥٣-١٦٤) . الإتقان (١١٩٨/٢-٢٤) . التفسير والمفسرون (٢٥٥/١-٢٦٣) . مباحث في علوم القرآن (٢٩٣-٢٩٦) .

الفصل الأول

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الداعية إلى السلم وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الداعية إلى السلم وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

المبحث الثاني : تفسير الآيات التي احتج بها هؤلاء بما فسرها به السلف .

المبحث الأول

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الداعية إلى السلم وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

يرى بعض العلماء والكتاب المسلمين أن الجهاد في سبيل الله شرع للدفاع فقط ، لأن الإسلام دين السماحة واليسر ودين العدل والمساواة ، ودين السلام والحرية ، لا دين القهر والإكراه ، والعدوان والظلم ، فلا يجوز للمسلمين أن يغزوا الكفار لأجل إخضاعهم لسلطان الإسلام وإعلاء كلمة الله ، إلا إذا اعتدى عليهم الكفار وبدؤهم بالقتال ، عندئذ يتعين على المسلمين قتالهم لرد العدوان مستدلين بقول الله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] . وقوله : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [2] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن

---

[1] - سورة البقرة (٢٥٦) .

[2] - سورة الأنفال (٦١) .

ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلًا ﴾ [1] .

يقول محمد عبده في تفسير الآية الأولى : " ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [2] ، ويؤيدهما الآيات الكثيرة الناطقة بأن الدين هداية اختيارية للناس تفرض عليهم مؤيدة بالآيات والبينات وأن الرسل لم يبعثوا جبارين ولا مسيطرين ، وإنما بعثوا مبشرين ومنذرين ، ولكن يرد علينا أننا قد أمرنا بالقتال وقد تقدم بيان حكمة ذلك . بأن أقول : أن الآية التي نفسرها نزلت في غزوة بني النضير إذ أراد بعض الصحابة إجبار أولادهم المتهودين أن يسلموا ولا يكونوا مع بني النضير في جلائهم ، فبين الله لهم أن الإكراه ممنوع وأن العمدة في دعوة الدين بيانه حتى يتبين الرشد من الغي وأن الناس مخيرون بعد ذلك في قبوله وتركه . شرع القتال لتأمين الدعوة ولكف شر الكافرين عن المؤمنين لكيلا يزعزعوا ضعيفهم قبل أن تتمكن الهداية من قلبه . ويقهروا قويهم بفتنته عن دينه كما كانوا يفعلون في مكة جهراً فقوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام وركن عظيم من أركان سياسته فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً من أهله على الخروج منه . وإنما نكون متمكنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة إذا كنا أصحاب قوة

---

١ - سورة النساء (٩٠) .

٢ - سورة يونس (٩٩) .

ومنعة نحمي بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا في ديننا اعتداء علينا بما هو آمن أن نعتدي بمثله عليه إذا أمرنا أن ندعو إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن نجادل المخالفين بالتي هي أحسن معتمدين على أن تبين الرشد من الغي بالبرهان : هو الصراط المستقيم إلى الإيمان ، مع حرية الدعوة ، وأمن الفتنة ، فالجهاد من الدين بهذا الاعتبار أي أنه ليس من جوهره ومقاصده وإنما هو سياج له وجنة . فهو أمر سياسي لازم له للضرورة . ولا التفات لما يهذي به العوام ، ومعلموهم الطغام ، إذ يزعمون أن الدين قام بالسيف وأن الجهاد مطلوب لذاته فالقرآن في جملته وتفصيله حجة عليهم »[1] .

ويقول محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسيرها أيضاً : « أقول هذا هو حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من أعدائه — وفيهم من يظن أنه من أوليائه — أنه قام بالسيف والقوة فكان يعرض على الناس والقوة عن يمينه فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه . فهل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الإسلام في مكة أيام كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي مستخفياً وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من العذاب ولا يجدون رادعاً حتى اضطر النبي وأصحابه إلى الهجرة ؟ . أم يقولون إن ذلك الإكراه وقع في المدينة بعد أن اعتز الإسلام وهذه الآية قد نزلت في غرة هذا الاعتزاز فإن غزوة بني النضير كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة وقال البخاري : إنها كانت قبل غزوة أحد التي لا خلاف في أنها كانت في شوال سنة ثلاث وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب . نقض بنو النضير عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكادوا له وهموا باغتياله مرتين وهم بجواره في

---

[1] - تفسير المنار (٣/٣٨-٤٠) .

ضواحي المدينة فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة فحاصرهم حتى أجلاهم فخرجوا مغلوبين على أمرهم و لم يأذن لمن استأذنه من أصحابه بإكراه أولادهم المتهودين على الإسلام ومنعهم من الخروج مع اليهود . فذلك أول يوم خطر فيه على بال بعض المسلمين الإكراه على الإسلام . وهو اليوم الذي نزل فيه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ »[1] .

ويقول الشيخ السيد سابق : « أن الإسلام لم يجعل الإكراه وسيلة من وسائل الدخول في الدين ، بل جعل وسيلة ذلك استعمال العقل وإعمال الفكر ، والنظر في ملكوت السماوات والأرض .

يقول الله سبحانه : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2]. ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ . وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأسر

---

[1] المصدر السابق (٣٦-٣٧) .

[2] سورة يونس (٩٩-١٠١) .

الأسرى ، ولم يعرف أنه أكره أحداً منهم على الإسلام . وكذلك كان أصحابه يفعلون »[1] .

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] .

فيقول محمد رشيد رضا في تفسيرها : « والمعنى : وإن مالوا عن جانب الحرب إلى جانب السلم خلافاً للمعهود منهم في حال قوتهم ، فاجنح لها أيها الرسول لأنك أولى بالسلم منهم . وعبر عن جنوحهم - بإن - التي يعبر بها عن المشكوك في وقوعه ، أو ما من شأنه ألا يقع ، للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلا لاختياره لذاته ، وأنه لا يؤمن أن يكون جنوحهم إليه كيداً وخداعاً ، ولذلك قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ اقبل منهم السلم وفوض أمرك إلى الله تعالى ، فلا تخف كيدهم ومكرهم وتوسلهم بالصلح إلى الغدر ، كما فعلوا بنقض العهد ، إنه عز وجل هو السميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ، فلا يخفى عليه ما يخفى عليك من ائتمارهم وتشاورهم ، ولا من كيدهم وخداعهم »[3] .

١ - فقه السنة (٣/٨٠-٨١) .

٢ - سورة الأنفال (٦١) .

٣ - تفسير المنار (١٠/٦٩) .

ويقول السيد سابق فيها أيضاً : « ففي هذه الآية الأمر بالجنوح إلى السلم إذا جنح العدو إليها ، حتى ولو كان جنوحه خداعاً ومكراً »[1] .

ويقول الدكتور مصطفى زيد : « الآية تعبر عن جنوح الكفار للسلم ، بـ (إن) التي يعبر بها عن المشكوك في وقوعه ، أو الذي من شأنه أن لا يقع لتشعر بأنهم ليسو أهلاً لاختيار السلم لذاتها ، وأنه لا يؤمن أن يكون جنوحهم إليها كيداً وخداعاً ، وتعطف على أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقبول الصلح أمراً آخر بالتوكل على الله لتزيد احتمال خداعهم قوة ، ثم لتؤكد الأمر بقبول الصلح حتى مع قيام هذا الاحتمال القوي بأن الكفار يريدون خداع المؤمنين ، إن المسلمين أولى من الكفار بالسلم ، فهل يترددون في قبوله حين يعرضه الكفار عليهم ؟ »[2]

ويقول السيد سابق في قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾[3] الآية : « فهؤلاء القوم الذين لم يقاتلوا قومهم ، ولم يقاتلوا المسلمين واعتزلوا محاربة الفريقين ، وكان اعتزالهم هذا اعتزالاً حقيقياً يريدون به السلام ، فهؤلاء لا سبيل للمؤمنين عليهم »[4].

ويقول محمد رشيد رضا : « أي فإن اعتزلوكم أولئك ... فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم ، أي : أعطوكم زمام أمرهم في المسألة بحيث

---

[1] - فقه السنة (٣/٨٠) .

[2] - تفسير سورة الأنفال (١٤٩) .

[3] - سورة النساء (٩٠) .

[4] - فقه السنة (٣/٨٠) .

وثقتم بها ، وثوق المرء بما يلقى إليه ، فما جعل الله لكم عليهم طريقا تسلكونها إلى الاعتداء عليهم ، فإن أصل شرعه الذي هداكم إليه أن لا تقاتلوا إلا من يقاتلكم ، ولا تعتدوا إلا على من اعتدى عليكم » [1].

ففهم هؤلاء ومن سايرهم [2] ، لهذه الآيات وأمثالها أنها تحظر على المسلمين غزو الكفار ، وتقصر مفهوم الجهاد على الدفاع فقط ، فلا يبدأ المسلمون بالقتال إلا من بدأهم به ، وإذا نشبت بينهم الحرب التي يكون العدو فيها هو البادي ، ثم مال العدو إلى السلم ، فإن على المسلمين أن يجيبوه إلى ذلك ، ويدعوا القتال وإن كان العدو في الحقيقة ماكرا ، لارتفاع الموجب الشرعي للقتال ظاهرا ، وليس لهم أن يكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام .

وهذا الفهم لا يسلم به ، لأن أصحابه اختزلوا هذه الآيات – من جملة آيات الجهاد التي تعالج موضوعه بشكل عام – وأولوا معانيها بما يتفق مع مفهومهم للجهاد . دون الرجوع إلى أقوال السلف ، أو إغفالها .

والآن آن الأوان لتفسير الآيات بما سطره المفسرون السابقون في معانيها بما يجلي الحق ويزيل اللبس لمن يطلب الصواب ، ويحذر الخطأ والله المستعان .

---

[1] - تفسير المنار (٥/٣٢٧) .

[2] - سيأتي ذكر بعضهم وأقوالهم في الفصل التالي إن شاء الله .

المبحث الثاني

تفسير الآيات التي احتج بها هؤلاء بما فسرها به السلف .

قوله تعالى :﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1].

سبب نزولها قيل فيه ما يلي :

١- ماروي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلاَتًا فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ فَقَالُوا : لاَ نَدَعُ أَبْنَاءَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ قَالَ أَبو دَاود الْمِقْلاَتُ الَّتِي لاَ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ »[2] .

---

١ - سورة البقرة (٢٥٦) .

٢ - صحيح سنن أبي داود (٥٨/٣) كتاب الجهاد . باب في الأسير يكره على الاسلام حديث (٢٦٨٢) . قال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ الْمُقَدَّمِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَشْعَثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي السِّجِسْتَانِيَّ ح و حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ وَهَذَا لَفْظُهُ ح و حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ : حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ به، ورواته كلهم ثقات .

وعن محمد بن بشار عن ابن أبي عدي عن شعبة بهذا الإسناد أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٣٠٤/٦) كتاب التفسير باب (٤٥) قوله تعالى : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ حديث (١) . وابن جرير في تفسيره (١٤/٣) . وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٨٦/٩) والواحدي في أسباب النزول (١١٥) من طريق إبراهيم بن مرزوق عن وهب بن جرير عن شعبة به . وأخرجه الواحدي (١١٤-١١٥) من طريق ابن أبي عدي عن شعبة .

وكان الدافع للأنصار في تهويد أبنائهم قبل الإسلام ، أنهم يرون اليهودية أفضل الأديان كما حكاه الشعبي [1] .

٢- ما رواه ابن جرير من طريق محمد بن أبي محمد الجرشي مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له : الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان رجلاً مسلماً فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرهما فإنهما أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه ذلك [2] .

والنسائي في الكبرى (٣٠٤) . كتاب التفسير . باب (٤٤) قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ عن إبراهيم بن يونس بن محمد عن عثمان بن عمر عن شعبة به حديث (١) .

وأخرجه ابن حبان (٣٥٢/١) . من طريق حسن بن علي الحلواني عن وهب بن جرير عن شعبة .

وأخرجه ابن جرير (١٤/٣) . والبيهقي في الكبرى (١٨٦/٩) . من طريق أبي عوانة عن أبي بشر به مرسلا . وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣٢٩/١) . وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن مردويه والضياء في المختارة . وكذا الشوكاني . فتح القدير (٢٧٥/١) .

١- جامع البيان (١٦/٣) . زاد المسير (٣٠٥/١) .

٢- ضعيف جامع البيان (١٤/٣) . زاد المسير (٣٠٥/١) . تفسير ابن كثير (٣١٨/١) . وفي سنده محمد بن أبي محمد الجرشي الأنصاري ، مولى زيد بن ثابت مدني مجهول من السادسة تفرد عنه ابن إسحاق روى له أبو داود .

تهذيب التهذيب (٣٨٤/٩) . التقريب (٥٠٥) . فهو ضعيف .

٣- ما رواه ابن جرير من طرق عن مجاهد أنه قال : كان ناس من الأنصار مسترضعين في اليهود ، فلما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود ، قالوا : والله لنذهبن معهم ، ولندينن بدينهم ، فمنعهم أهلوهم وأرادوا إكراههم على الإسلام فنزلت هذه الآية [1] .

والراجح هو القول الأول لقوة إسناده . وأما القول الثاني فسنده ضعيف ، وأما الثالث فموقوف على مجاهد ولا ينهض لمساواة الأول . إلا أنه يمكن أن يكون بعض من جعلتهم أمهاتهم في اليهود رضعوا منهم فذكرهم مجاهد رحمه الله بهذه الصفة مع أن المخالفة بينهما هي السبب الذي جعلهم مع اليهود والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ الإكراه : حمل الإنسان على ما يكرهه [2] .

واختلف العلماء في المراد بها ، وهل هي منسوخة أم محكمة على أقوال :

الأول : أنها منسوخة لأن النبي صلى الله عليه وسلم أكره العرب على دين الإسلام ، وقاتلهم ، ولم يرض منهم إلا بالإسلام ، والناسخ لها قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ

١- جامع البيان (٣/١٥) . زاد المسير (١/٣٠٥) .

٢- المفردات في غريب القرآن (٤٣١) . مجموع المغيث (٣/٣٧) .

وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [1] . وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] . وقوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [3] .

وذهب إلى هذا القول كثير من المفسرين منهم الضحاك والسدي وابن زيد [4] .

الثاني : أنها محكمة ليست بمنسوخة ، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة فلا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ، وأما أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف فالآية من العام المخصوص . وذهب إلى هذا القول قتادة والشعبي والحسن [5] .

---

١ - سورة التوبة (٧٣) .

٢ - سورة التوبة (١٢٣) .

٣ - سورة الفتح (١٦) .

٤ - جامع البيان (٣/١٦-١٧) . معاني القرآن للنحاس (١/٢٨٦) . زاد المسير (١/٣٠٦) . الجامع لأحكام القرآن (٣/١٨٢) . فتح القدير (١/٢٧٥) .

٥ - جامع البيان (٣/١٦) معاني القرآن للنحاس (١/٢٦٨) . الجامع لأحكام القرآن (٣/١٨٢) . البحر المحيط (١/٢٨١) .

الثالث : أي ليس الدين ما تدين به في الظاهر على جهة الإكراه عليه ولم يشهد به القلب ، وتنطوي عليه الضمائر ، إنما الدين هو المنعقد بالقلب . وبه قال ابن الأنباري [1] .

الرابع : أن معناها : لا يقال أسلم تحت السيف مكرها فلا إكراه على الدين ، إذا ثبت عليه [2] .

والراجح القول الثاني القائل أنها نزلت في أهل الكتاب إذا دفعوا الجزية ورضوا بحكم الإسلام فهي من العام المخصوص ويؤيده ما رجح في سبب النزول ، وقد رجحه الإمام الطبري والعز بن عبدالسلام [3] والشوكاني والألوسي [4] وقال ابن جرير الطبري في ترجيحه : « ... أن الناسخ غير كائن ناسخا إلا ما نفى حكم المنسوخ ، فلم يجز اجتماعهما . فأما ما كان ظاهره العموم من الأمر والنهي ، وباطنه الخصوص ، فهو من الناسخ والمنسوخ بمعزل ، وإذ كان ذلك كذلك ، وكان غير مستحيل أن يقال : لا إكراه لأحد ممن أخذت منه الجزية في الدين ، ولم يكن في الآية دليل على أن تأويلها بخلاف ذلك ، وكان المسلمون جميعا قد نقلوا عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أنه أكره على الإسلام قوما ، فأبى أن يقبل منهم إلا الإسلام ، وحكم بقتلهم إن امتنعوا منه ، وذلك كعبدة الأوثان من مشركي العرب ، وكالمرتد عن دينه ، دين الحق إلى الكفر ومن أشبههم ، وأنه ترك إكراه

١- زاد المسير (٣٠٦/١) .

٢- معاني القرآن للنحاس (٢٦٨/١) . البحر المحيط (٢٨١/٢) . فتح القدير (٢٧٥) .

٣- تفسير القرآن (٢٣٧/١) .

٤- روح المعاني (١٣/٣) .

آخرين على الإسلام بقبوله الجزية منه ، وإقراره على دينه الباطل ، وذلك كأهل الكتابين ، ومن أشبههم كان بينا بذلك أن قوله : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ . إنما هو لا إكراه في الدين لأحد ممن حل قبول الجزية منه بأدائه الجزية ، ورضاه بحكم الإسلام ، ولا معنى لقول من زعم أن الآية منسوخة بالإذن بالمحاربة »[1] .

ويقول الشوكاني أيضا : « وهذا يقتضي أن أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا اختاروا البقاء على دينهم وأدوا الجزية . وأما أهل الحرب فالآية وإن كانت تعمهم ، لأن النكرة في سياق النفي وتعريف الدين يفيدان ذلك ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لكن قد خص هذا العموم بما ورد من آيات في إكراه أهل الحرب على الإسلام[2] .

قوله تعالى : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ . الرشد : مصدر من رشد يرشد رشدا ، ورشد يرشد : إذا أصاب الحق والصواب . والغي : مصدر غوى يغوي غيا إذا ضل في معتقد أو رأي . ولا يقال : الغي في الضلال على الإطلاق . وقيل المراد بهما الإيمان والكفر .

---

١ - جامع البيان (٣/١٧) .

٢ - فتح القدير (١/٢٧٥) .

والمعنى قد وضح الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر فلا تكرهوا على دينكم دين الإسلام أحدا من أهل الكتاب أو من أبحت لكم أخذ الجزية منه إذا رضي بحكم الإسلام ودفع الجزية [1] .

وبعد أن بين سبحانه وتعالى أن الحق واضح بدلائله وبراهينه ، قد تميز من الباطل فلا التباس بينهما ولا تقارب ، بين عز وجل حال من يوفق للصواب ، ويختار طريق الرشاد فقال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ وهو كل ما عبد من دون الله ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانا كان هذا المعبود أو شيطانا أو وثنا أو كائنا ما كان [2] . ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي : فقد تمسك من الدين بأقوى سبب ، يصل به إلى الله عز وجل وإلى دار كرامته ، وقيل المراد بالعروة الوثقى : الإيمان ، وقيل : الإسلام ، وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل القرآن ، وقيل : الحب في الله والبغض في الله .

---

١ - جامع البيان (٣/١٨) . المفردات (٢٠٢ و ٣٦٩) . الجامع لأحكام القرآن (٣/١٨٢) فتح القدير (١/٢٧٥) . إرشاد العقل السليم (١/٢٩٠) . القاموس المحيط (٣٦٠ و ١٧٠١) .

٢ - جامع البيان (٣/١٨) . روح المعاني (٣/١٣) .

وكل هذه الأقوال قوية ولا مرجح لبعضها على بعض وكلها ترجع إلى معنى واحد ولذا قال ابن كثير : « وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها » . وقال الشوكاني : « ولا مانع من الحمل على الجميع »[1] .

﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ ﴾ أي لا انقطاع ، وقيل : الانفصام : كسر الشيء من غير بينونة ، قال ابن جرير : « ومعنى الكلام : فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه ، وإسلامه عن حاجته إليه في أهوال الآخرة كالتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها »[2] .

وعن قيس ابن عباد قال : كنت بالمدينة في ناس فيهم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فقال بعض القوم : هذا رجل من أهل الجنة ، هذا رجل من أهل الجنة ، فصلى ركعتين يتجوز فيهما ، ثم خرج . فاتبعته فدخل منزله ، ودخلت فتحدثنا فلما استأنس قلت له : إنك لما دخلت قبل قال رجل : كذا وكذا ، قال : سبحان الله ! ما ينبغي لأحد أن يقول : ما لا يعلم ، وسأحدثك لم ذاك ، رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه رأيتني في روضة ذكر سعتها وعشبها وخضرتها ، ووسط الروضة عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعلاه عروة ، فقيل لي : ارقه . فقلت له : لا أستطيع فجاءني منصف ، قال ابن عون : والمنصف : الخادم

---

[1] - جامع البيان (٣/٢٠) . الجامع لأحكام القرآن (٣/١٨٣) . تفسير ابن كثير (١/٣١٩) . فتح القدير (١/٢٧٦) . تيسير الكريم الرحمن (١/٢٣٠) .

[2] - جامع البيان (٣/٢٠) .

. فقال بثيابي من خلفي ، وصف أنه رفعه من خلفه بيده ، فرقيت حتى كنت في أعلى العمود ، فأخذت بالعروة فقيل لي : استمسك . فلقد استيقظت وإنها لفي يدي ، فقصصتها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « تلك الروضة الإسلام ، وذلك العمود عمود الإسلام ، وتلك العروة عروة الوثقى ، وأنت على الإسلام حتى تموت » . قال والرجل عبد الله بن سلام [1] .

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ فهو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض السميع العليم لأقوال عباده العليم بأفعالهم وأحوالهم ونياتهم فيجازيهم عليها إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشرا .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [2] . السلم ، والسلم والسلم بمعنى واحد وهو الصلح ، وقيل : السلم : الصلح ، والسلم : الإسلام . وجنحوا : مالوا من قولهم جنحت السفينة ، أي : مالت إلى أحد جانبيها [3] .

١- صحيح البخاري (٧٦/٨) كتاب التعبير . باب (٢٣) التعليق بالعروة الوثقى . حديث الباب . وصحيح مسلم (١٩٣٠/٤-١٩٣١) كتاب فضائل الصحابة . باب (٣٣) فضل عبدالله بن سلام رضي الله عنه . حديث (١٤٨) واللفظ له .

٢- سورة الأنفال (٦١) .

٣- معاني القرآن للنحاس (١٦٧/٣) . المفردات للأصفهاني (١٠٧ و ٢٤٦) . وفتح القدير (٣٢٢/٢) .

وللمفسرين فيها الأقوال التالية :

١- أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] . وبقوله : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ ﴾[2] . وقالوا : نسخت براءة كل موادعة ، وأمرت بقتالهم على كل حال حتى يقولوا لا إله إلا الله . وبه قال : قتادة وعكرمة والحسن وابن زيد .

٢- أنها في أهل الكتاب الذين يجوز أخذ الجزية منهم ، أي : إذا مالوا إلى الصلح ودفع الجزية فاقبل ذلك منهم ، وأما المشركون فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف . ورجحه ابن جرير .

٣- معناها : إن دعوك إلى الصلح فأجبهم قاله السدي .

وبتأمل الأقوال وأدلتها يظهر أن دعوى النسخ لا دليل عليها ، فإن شروط النسخ معدومة كما قال ابن جرير وابن العربي . وكذا القول بأن الآية

١- سورة التوبة (٥) .

٢- سورة التوبة (٣٦) .

خاصة بأهل الكتاب ومن يجوز أخذ الجزية منهم ، فقد صالح النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة كما في صلح الحديبية ، وهم مشركون .

ولذا يكون القول الثالث هو الراجح بشرط أن يكون للمسلمين في الصلح مصلحة ، كأن يجلب لهم نفع أو يدفع عنهم ضرر ، أو يكون بهم ضعف . أما إذا كان المسلمون في قوة ومنعة فلا بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [1] . وفي هذا عمل بالآيات جميعا كما قال ابن كثير : « آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك . فأما إن كان العدو كثيفا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فلا منافاة و لا نسخ ولا تخصيص » [2] .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : صالحهم وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : هو السميع لما تقولون العليم بما تضمرون .

والآية الكريمة مرتبطة بما قبلها من الآيات الكريمة التي أمر الله سبحانه وتعالى فيها رسوله صلى الله عليه وسلم أن يناجز بالحرب من خاف منهم

١- سورة محمد (٣٥) .

٢- جامع البيان (١٠/٣٣-٣٤) . أحكام القرآن للجصاص (٣/٧٠) . الناسخ والمنسوخ (١٣١-١٣٢) . أحكام القرآن لابن العربي (٢/٨٧٥-٨٧٦) . الجامع لأحكام القرآن (٨/٢٧) . تفسير ابن كثير (٢/٣٣٥-٣٣٦) . فتح القدير(٢/٢٢) .

نكث العهد ونقض العقد ممن كان بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم عهد وعقد ، وأن يعد لهم ما استطاع من القوة ، ثم قال له سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ ﴾ أي : إذا مالوا إلى المسالمة وترك الحرب بالدخول في الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو الموادعة - على نحو ما سبق بيانه - ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ أي : للسلم و اقبل منهم ذلك والله أعلم .

٣- قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾[1] .

الآية الكريمة في سياق آيات تتحدث عن المنافقين واختلاف المؤمنين في شأنهم ابتدأها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[2] . وبين فيها عناد المنافقين في كفرهم وتماديهم في الضلال ، وأنهم يودون لو يكفر المؤمنون مثلهم ويكونون سواء في الكفر ، ثم أمر سبحانه بقتلهم أين وجدوا ، وكيفما وجدوا ، وأن لا يتخذ المؤمنون منهم وليا ولا نصيرا . ثم استثنى سبحانه وتعالى طائفتين من الأمر بالقتال هما:

١- سورة النساء (٩٠) .

٢- سورة النساء (٨٨) .

الأولى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [1] : أي : الذين لجأوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة أو جوار ، ودخلوا فيهم ، وصاروا منهم ، فلا تقاتلوهم ، فإنه يشملهم حكم من لجاؤا إليهم وصاروا منهم . لا يهدر لهم دم ولا تسبى لهم نساء ولا ذرية ولا أموال .

والطائفة الثانية : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ . أي : الذين جاءوكم إلى مصاف القتال وهم حصرة صدورهم ، أي : ضيقة صدورهم مبغضين للقتال ، لا يريدون قتالكم ، ولا القتال معكم ولا يهون عليهم ذلك ، فهم لا لكم ولا عليكم بل مجانبون لقتال الفريقين ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ ولكنه لطف بكم وكفهم عنكم ، ولم يمكنهم منكم ثم قال : ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي : إن اعتزلكم هؤلاء الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق و الذين حصرت صدورهم ، ولم يتعرضوا لقتالكم واستسلموا لكم وانقادوا ، فلا يحل لكم قتالهم ، ولا أسرهم ولا سلب أموالهم ، مادامت حالهم كذلك ، فهذا الإستسلام يمنع من ذلك ويحرمه [2] .

---

[1] - سورة النساء (٩٠) .

[2] - جامع البيان (٥/١٩٢-١٩٩) . تفسير المشكل من غريب القرآن (٦٣) . الكشاف (١/٥٥٠-٥٥٢) . المحرر الوجيز (٢/٨٨-٩١) . تفسير ابن كثير (١/٥٤٥-٥٤٦) .

قال ابن جرير : « ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [1] يقول : فإن اعتزلكم هؤلاء الذين أمرتكم بالكف عن قتالهم من المنافقين ، بدخولهم في أهل عهدكم ، أو مصيرهم إليكم ، حصرت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم ، فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم ، يقول : وصالحوكم . والسلم : هو الإستسلام ، وإنما هذا مثل كما يقول الرجل للرجل : أعطيتك قيادي ، وألقيت إليك خطامي إذا استسلم له وانقاد لأمره ، فكذلك قوله : ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ إنما هو ألقوا إليكم قيادهم ، واستسلموا لكم صلحا منهم لكم وسلما ... فلم يجعل الله لكم على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم طريقا إلى قتل ، أو سباء ، أو غنيمة ، بإباحة منه ذلك لكم ولا إذن ، فلا تعرضوا لهم في ذلك إلا سبيل خير » [2].

وقال جمع من المفسرين : أن الآية منسوخة ببراءة قال السيوطي : « وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ ﴾ الآية قال نسختها براءة ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ

الجواهر الحسان (٢/٢٧٣-٢٧٥) . فتح القدير (١/٤٩٥-٤٩٦) . تيسير الكريم الرحمن (١/٤١٥-٤١٧).

١ - سورة النساء (٩٠).

٢ - جامع البيان (٥/١٩٩-٢٠٠) .

حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [1]. وأخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس عن قتادة في قوله : ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ ﴾ الآية قال نسختها ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [2].

وجزم به ابن جرير وابن العربي وغيرهما [3]. قال ابن جرير في نهاية تفسيرها : « .. ثم نسخ الله جميع حكم هذه الآية والتي تليها بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] ثم روى باسانيده عن عكرمة والحسن ، وعن قتادة ، وعن أبي زيد أنهم قالوا : نسخت ببراءة [5].

---

[1] - سورة التوبة (٥) .

[2] - الدر المنثور (٢/٥٧٢) . وانظر تفسير القرآن العزيز (١/١٦٢) . جامع البيان (٥/٢٠٠) وفتح القدير (١/٤٩٧) والآية من سورة التوبة (٥) .

[3] - جامع البيان (٥/٢٠٠) . الناسخ والمنسوخ لابن طاهر البغدادي (١٩٩) . أحكام القرآن لابن العربي (١/٤٧٠) . المحرر الوجيز (٢/٩٠ – ٩١) . زاد المسير (١/١٥٩) . تفسير القرآن (١/٣٤٢) . الجواهر الحسان (٢/٢٧٥) .

[4] - سورة التوبة (٥) .

[5] - جامع البيان (٥/٢٠٠-٢٠١) .

الفصل الثاني

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات النازلة قبل المرحلة الأخيرة من مراحل تشريع الجهاد وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سـبيل الله وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الكريمة ، وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله .

المبحث الثاني : تفسير الآيات التي احتج بها هؤلاء بما فسرها به السلف .

المبحث الأول

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الكريمة ، وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

مر تشريع الجهاد بعدة مراحل كما سلف [1] . كان آخرها فرض الجهاد لقتال جميع الكفار ، وإن لم يبدأوا بقتال المسلمين حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

لكن من يحصر مشروعية الجهاد في سبيل الله في الدفاع ورد عدوان الكفار على المسلمين فقط ، وأن ليس للمسلمين أن يبدأوا بقتال الكفار إلا بعد اعتداء الكفار عليهم ، استدلوا بما سبق هذه المرحلة من مراحل الجهاد في سبيل الله من آيات كريمة كانت تدرج في تشريع الجهاد نظراً لحال المسلمين وقتئذٍ كقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ

---

[1] - راجع مراحل الجهاد ص (٤١) وما بعدها من هذا البحث .

ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [1] .

وقولـــــه تعـــــالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [2] .

وقـــول الله تعـــالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [3] .

فهموا من هذه الآيات الكريمة وما كان في معناها أن الجهاد لا يجوز و لم يشرع إلا لرد عدوان الكفار على المسلمين ، أو عدوانهم على بلاد المسـلمين أو نصرة شعب مسلم لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

---

١ - سورة البقرة (١٩٠-١٩٣) .

٢ - سورة النساء (٧٥) .

٣ - سورة الأنفال (٣٩) .

وأما غزو المسلمين للكفار ، وقتالهم لتكون كلمة الله هي العليا ، وإن لم يبدأ الكفار بالقتال ، فيرونه من العدوان الذي نهت عنه هذه الآيات الكريمة ، ولا يجوز للمسلمين فعله .

ونتيجة لهذا الفهم للآيات أولوا غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم التي خاضها في سبيل الله عزوجل بأنها كلها دفاعية فقط ، لصد عدوان الكفار عليه . وكذا غزوات أصحابه من بعده . وفيما يلي نقول لأقوال بعضهم :

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله : « محصل تفسير الآيات ينطبق على ما ورد من سبب نزولها وهو إباحة القتال للمسلمين في الإحرام بالبلد الحرام ، والشهر الحرام إذا بدأهم المشركون بذلك ، وأن لا يبقوا عليهم إذا نكثوا عهدهم ، واعتدوا في هذه المرة ، وحكمها باق مستمر لا ناسخ ولا منسوخ ، فالكلام فيها متصل بعضه ببعض في واقعة واحدة ، فلا حاجة إلى تمزيقه ، ولا إلى إدخال آية براءة فيه ، وقد نقل عن ابن عباس أنه لا نسخ فيها ، ومن حمل الأمر بالقتال فيها على عمومه ولو مع انتفاء الشرط فقد أخرجها عن أسلوبها ، وحملها مالا تحمل . وآيات سورة آل عمران نزلت في غزوة أحد ، وكان المشركون هم المعتدين . وآيات الأنفال نزلت في غزوة بدر الكبرى ، وكان المشركون هم المعتدين أيضاً. وكذلك آيات براءة نزلت في ناكثي العهد من المشركين ، ولذلك قال : ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ ﴾ [1] . وقال بعد ذكر نكثهم : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا

[1] - سورة التوبة (٧) .

نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ﴾ [1] الآيات . كان المشركون يبدأون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم عن دينهم ولو لم يبدأوا في كل وقعة لكان اعتداؤهم بإخراج الرسول من بلده ، وفتنة المؤمنين وإيذاؤهم ، ومنع الدعوة ، كل ذلك كافياً في اعتبارهم معتدين .

فقتال النبي صلى الله عليه وسلم كله كان مدافعة عن الحق وأهله ، وحماية لدعوة الحق ، ولذلك كان تقديم الدعوة شرطاً لجواز القتال . وإنما تكون الدعوة بالحجة والبرهان ، لا بالسيف والسنان ، فإذا مُنعنا من الدعوة بالقوة بأن هدد الداعي أو قتل فعلينا أن نقاتل لحماية الدعاة ونشر الدعوة لا للإكراه على الدين فالله تعالى يقول : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [2] . ويقول : ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [3] . وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة ويؤذي الدعاة أو يقتلهم أو يهدد الأمن ويعتدي على المؤمنين فالله تعالى لا يفرض علينا القتال لأجل سفك الدماء و إزهاق الأرواح ولا لأجل الطمع في الكسب .

ولقد كانت حروب الصحابة في الصدر الأول لأجل حماية الدعوة ، ومنع المسلمين من تغلب الظالمين لا لأجل العدوان . فالروم كانوا يعتدون

---

١ - سورة التوبة (١٣) .

٢ - سورة البقرة (٢٥٦) .

٣ - سورة يونس (٩٩) .

على حدود البلاد العربية التي دخلت حوزة الإسلام ويؤذونهم وأولياؤهم من العرب المتنصرة من يظفرون به من المسلمين . وكان الفرس أشد إيذاءاً للمؤمنين منهم فقد مزقوا كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ورفضوا دعوته وهددوا رسوله وكذلك كانوا يفعلون . وما كان بعد ذلك من الفتوحات الإسلامية اقتضته طبيعة الملك و لم يكن كله موافقاً لأحكام الدين ، فإن من طبيعة الكون أن يبسط القوي يده على جاره الضعيف ، و لم تعرف أمة قوية أرحم في فتوحاتها بالضعفاء من الأمة العربية شهد لها علماء الإفرنج بذلك ، وجملة القول في القتال أنه شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ، فعلى من يدعي من الملوك والأمراء أنه يحارب للدين أن يحيي الدعوة الإسلامية ، ويعد لها عدتها من العلم والحجة بحسب حال العصر وعلومه ، ويقرن ذلك بالاستعداد التام لحمايتها من العدوان ، ومن عرف حال الدعاة إلى الدين عند الأمم الحية وطرق الاستعداد لحمايتهم يعرف ما يجب في ذلك وما ينبغي له في هذا العصر .

وبما قررناه بطل ما يهذي به أعداء الإسلام –حتى من المنتمين إليه – من زعمهم أن الإسلام قام بالسيف ،وقول الجاهلين المتعصبين أنه ليس ديناً إلهياً لأن الإله الرحيم لا يأمر بسفك الدماء ، وأن العقائد الإسلامية خطر على المدينة – فكل ذلك باطل ، والإسلام هو الرحمة العامة للعالمين »[1] .

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله : « وردت هذه الآيات في الإذن بالقتال للمحرمين في الأشهر الحرم إذا فوجئوا بالقتال بغياً وعدواناً . فهي متصلة بما قبلها أتم الاتصال لأن الآية السابقة بينت أن الأهلة مواقيت

[1] تفسير المنار (٢/٢١٤-٢١٦) . وانظر : رسالة التوحيد لمحمد عبده (١٣٩-١٤٦) .

للناس في عباداتهم ومعاملاتهم عامة وفي الحج خاصة . وهو في أشهر هلالية مخصوصة كان القتال فيها محرماً في الجاهلية . وأخرج الواحدي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في صلح الحديبية ، و ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صُدَّ عن البيت ثم صالحه المشركون فرضي على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف ويفعل ما يشاء . فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا تفي لهم قريش وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ يقول أيها المؤمنون الذين تخافون أن يمنعكم مشركو مكة عن زيارة بيت الله والاعتمار فيه نكثاً منهم للعهد وفتنة لكم في الدين ، وتكرهون أن تدافعوا عن أنفسكم بقتالهم في الإحرام والشهر الحرام ، إني أذنت لكم في القتال على أنه دفاع في سبيل الله للتمكن من عبادته في بيته ، وتربية لمن يفتنكم عن دينكم وينكث عهدكم ، لا لحظوظ النفس وأهوائها ، والضراوة بحب التسافك ، فقاتلوا في هذه السبيل الشريفة من يقاتلكم ، ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ بالقتال فتبدأوهم – ولا في القتال فتقتلوا من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى أو من ألقى إليكم السلم وكف عن حربكم – ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب وقطع الأشجار ، وقد قالوا أن الفعل المنفي يفيد العموم .

علل الإذن بأنه مدافعة في سبيل الله وسيأتي تفصيله في الآية التالية ، وعلل المنهي بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي أن الاعتداء من السيئات المكروهة عند الله تعالى لذاتها فكيف إذا كان في حال

الإحرام ، وفي أرض الحرم والشهر الحرام ؟ ثم قال : ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أي : إذا نشب القتال فاقتلوهم أينما أدركتموهم وصادفتموهم ، ولا يصدنكم عنهم أنكم في أرض الحرم إلا ما يستثنى في الآية بشرطه ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي : من المكان الذي أخرجوكم منه وهو مكة فقد كان المشركون أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرين منها بما كانوا يفتنونهم في دينهم ، ثم صدوهم عن دخولها لأجل العبادة ، فرضي النبي والمؤمنون على شرط أن يسمحوا لهم في العام القابل بدخولها لأجل النسك والإقامة فيها ثلاثة أيام كما تقدم ، فلم يكن من المشركين إلا أن نقضوا العهد . أليس من رحمة الله تعالى بعباده أن يقوي هؤلاء المؤمنين ويأذن لهم بأن يعودوا إلى وطنهم ناسكين مسالمين ، وأن يقاوموا من يصدهم عنه من أولئك المشركين الخائنين ، وهل يصح أن يقال فيهم أنهم أقاموا دينهم بالسيف والقوة ، دون الإرشاد والدعوة ، كلا لا يقول هذا إلا غر جاهل ، أو عدو متجاهل . ثم زاد التعليل بياناً فقال : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي : أن فتنتهم إياكم في الحرم عن دينكم بالإيذاء والتعذيب ، والإخراج من الوطن ، والمصادرة في المال ، أشد قبحاً من القتل ، إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكن من عقله ونفسه ، ورآه سعادة له في عاقبة أمره . والفتنة في الأصل مصدر فتن الصائغ الذهب والفضة إذا أذابهما بالنار ليستخرج الزغل منهما .وما تقرر في هذه الآيات على هذا الوجه مطابق لقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾[1].

وهي أول ما نزل من القرآن في شرع القتال معللاً بسببه مقيداً بشروطه العادلة . وفسر بعضهم الفتنة هنا وفي الآية الآتية بالشرك وجرى عليه الجلال ، ورده الأستاذ الإمام بأنه يخرج الآيات عن سياقها ، وذكره البيضاوي هنا بصيغة التضعيف (قيل) ورد قولهم أيضاً أن هذه الآية ناسخة لما قبلها ، وذلك أنه كبر على هؤلاء أن يكون الأذن بالقتال مشروطاً باعتداء المشركين ، ولأجل أمن المؤمنين في الدين وأرادوا أن يجعلوه مطلوباً لذاته . وقال إن هذه الآيات نزلت مرة واحدة في نسق واحد وقصة واحدة فلا معنى لكون بعضها ناسخاً للآخر ، وأما ما يؤخذ من العمومات فيها بحكم أن القرآن شرع ثابت عام فذلك شيء آخر ثم استثنى من الأمر بقتل هؤلاء المحاربين في كل مكان أُدركوا فيه المسجد الحرام فقال : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ ﴾ أي : أن من دخل منهم المسجد الحرام يكون آمناً إلا أن يقاتل هو فيه وينتهك حرمته فلا أمان له حينئذٍ . ولما كان القتل في المسجد الحرام أمراً عظيماً يتحرج منه أكد الإذن فيه بشرطه ولم يكتف بما فهم من الغاية فقال : ﴿ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ ﴾ ، ولا تستسلموا لهم ، فالبادي هو الظالم ، والمدافع غير آثم ﴿ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي : أن من سنة الله تعالى أن يجازي الكافرين مثل هذا الجزاء فيعذبهم في مقابلة تعرضهم للعذاب بتعدي حدوده فيكونوا هم الظالمين لأنفسهم ...

---

[1] سورة الحج (٣٩ — ٤٠) .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ عن القتال فكفوا عنهم ، أو عن الكفر فإن الله يقبل منهم ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يمحو عن العبد ما سلف ، إذا هو تاب عما اقترف ، ويرحمه فيما بقي ، إذا هو أحسن واتقى ، (إن رحمة الله قريب من المحسنين) . ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ عطف على ﴿ وَقَٰتِلُواْ ﴾ في الآية الأولى تلك بينت بداية القتال وهذه بينت غايته وهي ألا يوجد شيء من الفتنة في الدين ، ولهذا قال الأستاذ الإمام : أي : حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذونكم لأجل الدين ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ وفي آية سورة الأنفال (٢٩) ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ أي : يكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن لصده عنه ولا يؤذى فيه ، ولا يحتاج فيه إلى الدهان والمداراة ، أو الاستخفاء أو المحاباة ، وقد كانت مكة إلى هذا العهد قرار الشرك ، والكعبة مستودع الأصنام ، فالمشرك فيها حر في ضلالته ، والمؤمن مغلوب على هدايته ، قال : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ أي في هذه المرة عما كانوا عليه ﴿ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : فلا عدوان عليهم ، لأن العدوان إنما يكون على الظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم»[1] . وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ

---

[1] - تفسير المنار (٢/٢٠٨-٢١١) .

﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [1] : « هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها، إذا كان الغلب لنا ، أي : قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال الاعتداء عليكم ، أو على بلادكم ، أو اضطهادكم ، وفتنتكم عن دينكم ، أو تهديد أمنكم وسلامتكم » [2] .

ويقول الشيخ السيد سابق رحمه الله في آيات سورة البقرة : « وقد تضمنت الآيات ما يأتي :

١- الأمر بقتال الذين يبدأون بالعدوان ومقاتلة المعتدين ، لكف عدوانهم . والمقاتلة دفاعاً عن النفس أمر مشروع في كل الشرائع ، وفي جميع المذاهب ، وهذا واضح من قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾.

٢- أما الذين لا يبدءون بعدوان . فإنه لا يجوز قتالهم ابتداء ، لأن الله نهى عن الاعتداء ، وحرم البغي والظلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

٣- وتعليل النهي عن العدوان بأن الله لا يحب المعتدين دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ ، لأن

---

[1] - سورة التوبة (٢٩) .

[2] - تفسير المنار (١٠/٢٨٩) . . .

هذا إخبار بعدم محبة الله للاعتداء والإخبار لا يدخله النسخ لأن الاعتداء هو الظلم ، والله لا يحب الظلم أبداً .

٤- أن لهذه الحرب المشروعة غاية تنتهي إليها ، وهي منع فتنة المؤمنين والمؤمنات ، بترك إيذائهم وترك حرياتهم ليمارسوا عبادة الله ويقيموا دينه ، وهم آمنون على أنفسهم من كل عدوان » [١] .

ويقول في آية النساء : « وقد بينت هذه الآية سببين من أسباب القتال :

أولهما : القتال في سبيل الله ، وهو الغاية التي يسعى إليها الدين ؛ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وثانيهما : القتال في سبيل المستضعفين ، الذين أسلموا بمكة ، ولم يستطيعوا الهجرة ، فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى طلبوا الله الخلاص ، فهؤلاء لا غنى لهم عن الحماية التي تدفع عنهم أذى الظالمين ، وتمكنهم من الحرية ، فيما يدينون ويعتقدون » [٢] .

ثم يقول بعد ذلك : « إن حروب الرسول صلى الله عليه وسلم كانت كلها دفاعاً ، ليس شيء من العدوان . وقتال المشركين من

---

١ - فقه السنة (٧٩/٣) .

٢ - المصدر السابق .

العرب ، ونبذ عهودهم بعد فتح مكة كان جارياً على هذه القاعدة »[1] .

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي : « وأجمعت الأمة على فرضية الجهاد . كل هذا[2] يدل على أن الجهاد فرض ، وقد ثبتت الفرضية بالقرآن والسنة والإجماع . ولا يفهم من الفرضية أن الجهاد مبدأ هجومي عدواني ، وإنما هو على العكس مبدأ وقائي »[3] .

وقال : « ... وبذلك يظهر لدينا أن الباعث على القتال في الإسلام هو دفع العدوان ، وإرساء قواعد الحرية الدينية لشعوب الأرض بحيث يمكنهم النظر في الإسلام »[4] .

وقال : « وإذا كنا سوف ننتهي إلى أن وصف الحرب في الإسلام لا يمكن أن يطبق على التقسيم المعروف إلى حرب دفاعية وهجومية ، فإنا مع ذلك يمكن أن نحصر أوجه مشروعية الجهاد بما نسميه بحالات الدفاع الوقائي وهي :

أولاً : حالة الاعتداء على الدعاة إلى الله تعالى بمصادرة حرية التبليغ الإيجابية ، أو وقوع الفتنة في الدين ، أو المحاربة بالفعل . قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

١- المصدر السابق .

٢- سبق أن استشهد بآيات وأحاديث على فرضية الجهاد .

٣- آثار الحرب (٨٦) .

٤- المصدر السابق (٩٠) .

نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١) . ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

ثانياً : الحرب لنصرة المظلوم فرداً أو جماعة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٣) .

١- سورة الحج (٣٩) .

٢- سورة البقرة (١٩١-١٩٣) .

٣- سورة النساء (٧٥) .

ثالثاً : الدفاع عن النفس ، ودفع الاعتداء عن البلاد قال الله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [1] .

وفي صدد المقارنة نتبين أن هذه الحالات التي تتطلبها حماية الدعوة الإسلامية لا تخرج عن كونها استعمالاً لحق من حقوق الدولة الطبيعية المعترف بها في القانون الدولي الحاضر .

وهي حق البقاء ، وحق الدفاع الشرعي ، وحق المساواة ، وحق الحرية ، وحق الاحترام المتبادل ، وكلها تبرر مشروعية الباعث على القتال في الإسلام الذي حددناه بوجود عدوان » [2] .

سبحان الله ! تُأوَّل الآيات الصريحة ، ويحصر مفهوم الجهاد في الدفاع فقط ليتفق مع ما يخوله القانون الدولي المعاصر للدول المعترف بها من حقوق شرعية يمكنها الدفاع عنها .

ويتجه الدكتور وهبة إلى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ليضع لها أسباباً تبرر مشروعيتها وأنها دفاعية فقط فيقول : « وبقية غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحروب صحابته من بعده ، كانت إما لنقض العهد كما حصل من يهود بني قينقاع في المدينة ،

---

[1] - سورة البقرة (١٩٠) .

[2] - آثار الحرب (٩٣-٩٤) .

ومشركي قريش في نقض صلح الحديبية وإما لرد العدوان كما في غزوة أحد والخندق ، لشن حرب وقائية ، كما كان الأمر مع الروم والفرس.

وإما بسبب طلب الشعوب المستضعفة للمسلمين واستشـــــرافهم للفتح العربي لرفع ظلم الحكام المستبدين فيهم ، كما جرى الأمـــــر في مصر وشمال أفريقيا وأواسط آسيا .

فلو التزم هؤلاء جانب السلم حقيقة لكف الرسول صلى الله عليــه وصحبه عن قتالهم ، لقوله تعـــالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [1] [2] .

ويقول عبدالله بن زيد آل محمود : « لقد عشنا زمنـــاً طويـــلاً ، ونحن نعتقد ما يعتقده بعض العلماء ، وأكثر العوام ، من أن قتال الكفار سببه الكفر ، وأن الكفار يقاتلون حتى يسلموا . لكننا بعد توســـعنا في علم الكتاب والسنة ، والوقوف على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، في حروبهم ، وفتوحهم للبلدان ، تبدل رأينا ، وتحققنا بـــأن القتال في الإسلام إنما شرع دفاعاً عن الدين ، ودفع أذى المعتدين علـــى المؤمنين ، وليس هذا بالظن ولكنه اليقين »

---

[1] - سورة الأنفال (٦١) .

[2] - آثار الحرب (١٠٤-١٠٥) .

ثم قال : « وينبغي لنا متى تصدينا للدعوة إلى دين الإسلام ، بأن نصف الإسلام بما هو أهله ، وبما هو معلوم من محاسنه ، واتصافه بالرأفة ، والرحمة ، لسائر الناس ... » .

ثم أضاف : « إن الإسلام يسالم من سالمه ، ولا يقاتل إلا من يقاتله ، أو يمنع نشر دعوته ، ويقطع السبيل في منع إبلاغها للناس ، فإنهم بمنع إبلاغها يعتبرون بأنهم معتدون على الدين ، وعلى الخلق أجمعين » [1] .

ويقول عبدالحافظ عبدربه : « نقرر بصراحة أن الحرب المشروعة في الإسلام ، هي (الحرب الدفاعية) ، وفقط[2] لا غير !

« ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوي تحتها نوعان ، قد أشار القرآن إلى كليهما :

١- الدفاع عن النفس ، وفيه يقول القرآن الكريم : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ ﴾ [3] .

---

[1] - الجهاد المشروع في الإسلام (٤،٥،٧) . نقلاً من كتاب الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام (١٨٣) .

[2] - وفقط هكذا في الأصل .

[3] - سورة الحج (٣٩-٤٠) .

٢- الإغاثة الواجبة لشعب مسلم ، أو دولة عربية ، أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [1] . من هنا نرى أن الحرب في نظر الإسلام شرٌّ لا يلجأ إليه إلا المضطر .

فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم ، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء ، خير من انتصار باهر تزهق فيه الأرواح ، وتسفك في مجازره الدماء » [2] .

من هذه النقول يظهر جلياً ما ذهب إليه أصحابها من أن الجهاد المشروع هو ما كان دفاعاً لرد عدوان الكفار ، أو لنصرة المستضعفين من المسلمين ، وأن لا مبرر للجهاد في الإسلام سوى ذلك .

وما كان خارجاً عنه فهو من الظلم والعدوان الذي يأباه الإسلام ، هذا ما دعاهم إلى دعوى أن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وغزوات أصحابه من بعده كانت دفاعاً فحسب ، وتلمسوا الأعذار التي أباحت له

١- سورة النساء (٧٥) .

٢- فلسفة الجهاد في الإسلام (٤٥-٤٦) .

صلى الله عليه وسلم ، ولأصحابه من بعده غزو الكفار ، وقتالهم في عقر دارهم ، ليخرجوه صلى الله عليه وسلم من لازم قولهم أن غزو الكفار وقتالهم ابتداء من الظلم والعدوان ، وليسلم لهم فهمهم ، فقالوا : كانت دفاعاً ، إما لنقض الكفار العهد وإما لرد العدوان ، وإما لنصرة مظلوم استغاث بهم .

ولو أن القوم قالوا بما قال به سلف هذه الأمة من أن جهاده صلى الله عليه وسلم كان لإعلاء كلمة الله عز وجل ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، و إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ولذا خرج صلى الله عليه وسلم يحمل الراية غازياً ، كما جاهد مدافعاً وكذا أصحابه من بعده ، ومن سار على طريقه من المسلمين ، لو أنهم فعلوا ذلك لما وقعوا فيما وقعوا فيه من تأويل النصوص ، وتلمس الأعذار .

وسار على هذا المذهب غير من ذكرت أقوالهم عدد كثير من الكتاب المسلمين المعاصرين منهم « توفيق علي وهبة » في كتابه الجهاد في الإسلام [1] . و « محمد شديد » في كتابه الجهاد في الإسلام [2] . و « أحمد نار » في كتابه القتال في الإسلام [3] ، و « الدكتور محمود محمد علي » في كتابه الجهاد في التشريع الإسلامي [4] ، و « عبدالله غوشة » في كتابه الجهاد طريق النصر [5] ، و « محمد أبو زهرة » في كتابه العلاقات الدولية [6] ،

[1] - انظر: مثلاً (٢٣و٣٥و٤٣) .

[2] - انظر : (٩٠-٩٥).

[3] - انظر : (١٦-٢٠) .

[4] - انظر : (٣٢-٤٨) .

[5] - انظر : (١٣-٢٥) .

[6] - انظر: (٨٩-٩٥) .

والدكتور« أحمد فؤاد محمود » في كتابه أضواء على الثقافة الإسلامية ، والأستاذ « محمد أحمد جمال » في كتابه على مائدة القرآن دين ودولة وكتابه « محاضرات في الثقافة الإسلامية » ، و « ظافر القاسمي » في كتاب الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام وغيرهم .

ومما لا ريب فيه أن هذا الفهم للآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بالجهاد ، يعوق عن الجهاد في سبيل الله عزوجل ، لأنه يُميّع معناه ، وينفي أهم أقسامه — جهاد البعث والإرسال — مع وصفه بالظلم والعدوان ، ذلك الوصف الذي تأباه النفوس المؤمنة ، وتنكره الطباع المستقيمة ، بل إنه على هذا الفهم حرام لا يجوز للمسلمين القيام به ابتداء ، مما ينفر العامة منه ، ولا سيما أن القائلين به أسماء لامعة في آفاق العلماء ، وطلاب العلم ، وأن منهم من قد تربع على كراسي التعليم ، وأمسك بزمام التوجيه والإرشاد .

ويشتد النفور منه ، والبعد عنه ، حينما ينسب هذا الفهم إلى بعض السلف الصالح ، المشهود لهم بالعلم ، والفضل ، والإجلال ، كابن عمر رضي الله عنهما ذلك الصحابي الجليل ، ومن بعده من التابعين وأتباعهم ، يقول الدكتور وهبة الزحيلي بعد أن قرر أن الجهاد المفروض ليس الهجومي العدواني ، وإنما هو المبدأ الوقائي : « وهذا يتلاقى في النتيجة مع ما نقل المهدوي عن الثوري ، وابن شبرمة . وروي عن ابن عمر– رضي الله عنه – وعطاء ، وعمرو بن دينار أنهم قالوا : « الجهاد تطوع ، وليس بفرض ، وإن الأمر للندب ، ولا يجب قتالهم إلا دفعاً لظاهر قوله تعالى : ﴿ فَإِن

قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ [1] .وقوله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [2] » . ولكنا لا نقول نحن بأن الجهاد في الأصل تطوع كما قالوا » [3].

ويقول الدكتور « عارف خليل » : « وحكي عن ابن شبرمة وسفيان الثوري وآخرين ، أن الجهاد تطوع ، ليس بفرض ... ولابن شبرمة وسفيان الثوري مؤيدون قديما منهم الجاحظ والزمخشري ، ومعظم فقهاء العصر الحالي يرون رأي الثوري وابن شبرمة » [4] .

وفي هذا الكلام خلط لابد من بيانه أقول : سبق ذكر ما حكي عن هؤلاء الأئمة الأعلام من أن الجهاد في سبيل الله تطوع ، في القول الثالث من الأقوال في حكم جهاد البعث والإرسال ، وأجيب عنه بما حاصله : أن النسبة إليهم رحمهم الله لم تصح ، أو أن ذلك صدر عنهم من قبيل الفتوى بما يطابق حال المستفتي ، أو أنهم يقصدون ليس بفرض عيني [5] .

وعلى فرض صحته عنهم ، وأنه رأيهم الذي يذهبون إليه ، فليس بينه وبين رأي من استشهدوا به على أن الجهاد المشروع هو الدفاعي فقط ،

---

١ - سورة البقرة (١٩١) .

٢ - سورة التوبة (٣٦) .

٣ - آثار الحرب (٨٦ -٨٧) .

٤ - العلاقات الخارجية لدولة الخلافة (١١٠) .

٥ - انظر: ص(٣٨-٤٠) من هذا البحث .

توافق لا من قريب ، ولا من بعيد ، بل بينهما تباين جلي لمن نظر إليهما بعين الحق .

فمن حصروا الجهاد في الدفاع فقط ، نفوا ما عداه ، وعدوا جهاد البعث والإرسال ، من الظلم والعدوان المحرم . وأما هؤلاء العلماء فيتفقون مع الجمهور بأن جهاد الدفاع فرض ، يجب على المسلمين أن يقوموا به ، إذ لا يجوز للمسلمين ترك الأعداء يستبيحون دماءهم ، ويأخذون أموالهم . وإنما قالوا بالاستحباب في جهاد البعث والإرسال ، إذا كان من المسلمين من هو قائم به ، ولا يخشى عليه غلبة العدو ، بل إنهم يرون فرضية جهاد البعث والإرسال ، متى استنفر الإمام إليه ، ولا يجوز لمن عينهم التخلف عنه .

فهل بين الرأيين توافق ؟ . بل هل بينهما تقارب ؟ . كلا . إنهما بعيدان عن بعضهما ، ولمزيد من الإيضاح والبيان ، أورد ما ذكره العلماء الأوائل عن هؤلاء الأئمة الأجلاء قال محمد بن الحسن الشيباني[1] : « كان الثوري يقول : القتال مع المشركين ليس بفرض إلا أن تكون البداية منهم ، فحينئذٍ يجب قتالهم دفعاً لظاهر قوله تعالى : ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ

---

[1] هو : محمد بن الحسن بن فرقد أبو عبدالله الشيباني الكوفي صاحب أبي حنيفة وغلب عليه الرأي له مؤلفات كثيرة منها : « السير الكبير » و كتاب « نوادر الصلاة » . مات سنة ١٨٩هـ . الفهرست (٢٨٧) . سير أعلام النبلاء (٩/١٣٤) . الأعلام (٦/٨٠) .

[2] سورة البقرة (١٩١) .

كَآفَّةً ﴾ [1] [2]. وقال في « تكملة المجموع » : « وذكر أن سفيان الثوري كان يقول : « ليس بفرض ، ولكن لا يسع الناس أن يجمعوا على تركه ، و يجزيء فيه بعضهم على بعض » . وبهذا يكون مذهبه فرض على الكفاية ، إن صح القول عنه » [3] . وقال الجصاص أيضاً : « فإن كان هذا قول سفيان ، فإن مذهبه أنه فرض على الكفاية ، وهو موافق لمذهب أصحابنا » [4] .

ومن هذا الكلام يظهر أن سفيان رحمه الله يقول بفرضية جهاد الدفاع مع الجمهور ، كما أنه يوافقهم في أن جهاد البعث والإرسال فرض على الكفاية ، ولكنه يرى أنه إذا قام به البعض سقط فرض الكفاية ، وأصبح مندوباً في حق غيرهم .

وقال ابن العربي : « وقال جماعة من الفقهاء : إن الجهاد بعد فتح مكة ليس بفرض ، إلا أن يستنفر الإمام أحداً منهم ، قاله سفيان الثوري ، ومال إليه سحنون[5] ، وظنه قوم بابن عمر رضي الله عنهما حين رأوه مواظباً على الحج تاركاً للجهاد » . ثم يرد ابن العربي هذا فيقول : « ومواظبة ابن عمر

---

[1] - سورة التوبة (٣٦) .

[2] - شرح السير الكبير (١٨٧/١) .

[3] - تكملة المجموع (٢٦٩/١٩) .

[4] - أحكام القرآن للجصاص (٣١٢/٤) .

[5] - هو : أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان التنوخي المغربي المالكي ، صاحب المدونة لقب بسحنون – بضم السين وفتحها – اسم طائر بالمغرب يوصف بالفطنة والتحرز ، لحدته في المسائل ، فقيه المغرب ، كان قاضي القيروان مات سنة ٢٤٠هـ . ترتيب المدارك (٥٨٥/٢) . العبر(٣٤/٢) . نزهة الألباب (٣٦٢/١) .

رضي الله عنهما على الحج ، لأنه يعتقد الحق ، وهو أن الجهاد فرض الكفاية، إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الباقين . ويحتمل أن يكون رأى أنه لا يجاهد مع ولاة الجور . والأول أصح ، لأنه قد كان في زمانه عدول ، وجائرون وهو في ذلك كله مؤثر للحج مواظب عليه » [1] .

وقد ذكر الجصاص وغيره أن الرواية عن ابن عمر رضي الله عنهما ، مختلف في صحتها [2] . فهل يمكن بعد هذا البيان ، أن ينسب إلى هؤلاء الأئمة القول بأن الجهاد المشروع هو الدفاع فحسب ، وأن جهاد البعث والإرسال – الذي يرونه مندوباً متى قام به من المسلمين من يسقط به فرض الكفاية ، بل يرون وجوبه على من عينه الإمام – ظلم وعدوان يحرم على المسلمين القيام به ما لم يبدأ الكفار بالعدوان ؟ .

وقبل طي الصفحات في هذا ينبغي الوقوف على تفسير الآيات الكريمة – التي فهم منها حصر الجهاد في الدفاع – في كتب أئمة التفسير السابقين .

---

[1] - أحكام القرآن لابن العربي (١/١٠٣) .

[2] - أحكام القرآن للجصاص (٤/٣١١) . تكملة المجموع (١٩/٢٦٨) .

المبحث الثاني

تفسير الآيات التي احتج بها هؤلاء بما فسرها به السلف

قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ هذه هي أول آية جاء فيها الأمر بالقتال ، بعد أن كان مأذوناً فيه من غير فرض ، وفيها يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يقاتلوا في سبيله من يقاتلهم ، وأن يكفوا عمن كف عنهم ، ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ أي : لا تظلموا ، فلا تقتلوا من ليس أهلاً للقتال [2] .

---

[1] - سورة البقرة (١٩٠- ١٩٣) .

[2] - جامع البيان (١٨٩/٢) . تفسير القرآن (١٩٦/١) . تفسير ابن كثير (٢٣٣/١) .

وأورد ابن الجوزي في المراد بالاعتداء أربعة أقوال هي :

الأول : أنه قتل النساء والولدان ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد .

الثاني : أن معناه : لاتقاتلوا من لم يقاتلكم ، قاله سعيد بن جبير، وأبو العالية ، وابن زيد .

الثالث : أنه إتيان ما نهوا عنه ، قاله الحسن .

الرابع : أنه ابتداؤهم بالقتال في الحرم في الشهر الحرام ، قاله مقاتل [1] .

وهذه الأقوال متقاربة ، والآية محتملة لها ، ولا مرجح بينها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ الذين يجاوزون حدوده فيستحلون ما حرم عليهم .

واختلف في الآية هل هي منسوخة أم محكمة ؟ . على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [2] . وبقوله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟

[1] - زاد المسير (١/١٩٠) . وانظر : جامع البيان (٢/١٨٩ – ١٩٠) . أحكام القرآن لابن العربي (١/١٠٤) . الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣١-٢٣٣) .

[2] - سورة التوبة (٥) .

ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً ﴾[1] . وعلى هذا القول يكون معنى الآية : وقاتلوا في سبيل الله الكفار الذين يقتالونكم ، ولا تقتلوا من لم يقاتل ، ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾ بقتال من لم يقاتل ، وكف عنكم ، أو بابتدائهم بالقتال . حتى نسخ ببراءة ، وبه قال الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد .

الثاني : أنها محكمة لم تنسخ ، وقد أمر الله فيها بقتال الكفار الذين أعدوا أنفسهم للقتال ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ . إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله . ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾ بقتل النساء والصبيان ، والشيوخ الذين لا رأي لهم ، ولا قتال فيهم ، وعلى هذا يكون معنى الآية : وقاتلوا في سبيل الله مقاتلة الكفار ، ولا تعتدوا بقتل من لم يكن من المقاتلة كالنساء والذراري ونحوهم . وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما وعمر بن عبد العزيز ، ومجاهد ، ومقاتل ابن حيان وغيرهم . ورجحه ابن جرير الطبري ، وابن العربي ، وابن كثير[2] .

---

١ - سورة التوبة (٣٦) .

٢ - جامع البيان (٢/١٨٩-١٩٠). الناسخ والمنسوخ (٧٩) . معالم التنزيل (١/١٦٨) . أحكام القرآن لابن العربي (١/١٠٤-١٠٦). زاد المسير (١/١٩٧-١٩٨) . الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣١-٢٣٣). البحر المحيط (٢/٦٥) . إرشاد العقل السليم (١/٢٤٠) . تفسير ابن كثير (١/٢٣٣) .

ويتفق هذان القولان في وجوب قتال مقاتلـة الكفـار ، وإن لم يقاتلوا ، فإن من اشترط بداءهم بالقتال قال بنسخها ببراءة .

قوله : ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ ﴾ أي : اقتلوا المشركين ، ﴿ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ ﴾ أي : حيث وجدتموهم وتمكنتم من قتلهم ، والثَّقْفُ : الحذق في إدراك الشيء وفعله . يقال : إنه لثَقِفٌ لقِفٌ ، إذا كان جيد الحذر في القتال ، بصيراً بمواقع القتل [1] .

﴿ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ ﴾ أمر المهاجرين الذين أخرجهم المشركون بأن يخرجوا المشركين من مكة ، كما أخرجوهم منها ، ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال ، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به ، والصد عن سبيله أبلغ ، وأشد ، وأعظم ، وأطم من القتل ، فقال : ﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾ . قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس : ﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾ : يقول الشرك أشد من القتل ، وقال ابن زيد الفتنة : الكفر . وقيل : الكفر أشد من القتل في الأشهر الحرم [2] .

---

[1] - جامع البيان (٢/١٩١) . تفسير المشكل من غريب القرآن (٣٧) .المفردات (٨٥) .

[2] - جامع البيان (٢/١٩١-١٩٢) . مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/٦٨) . تفسير المشكل من غريب القرآن (٣٧) . تفسير ابن كثير (١/٢٣٣) .

﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . نهى المؤمنين عن البداءة بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدأ به المشركون فإذا بدأ المشركون بقتال المؤمنين ، قاتلهم المؤمنون دفعاً للصائل ورداً للعدوان .

واختلف فيها هل منسوخة أم محكمة على قولين :

الأول : أنها محكمة لم تنسخ ، وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا لمن قاتل فيه ، فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة وقال به مجاهد وطاووس وذهب إليه أبو حنيفة ، واستدلوا بما في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : « إنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلاَ يلْتَقطُ لُقَطَتَهُ إِلاَّ مَنْ عَرَّفَهَا وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ» [1] .

---

[1] - صحيح البخاري (٧٢/٢) كتاب الجزية والموادعة . باب (٢٢) إثم الغادر . حديث (٣) .

الثاني : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ [1] . فأمر بقتالهم في الحل والحرم قاله قتادة . وقال الربيع بن أنس وعبدالرحمن بن زيد : نسخها قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ ﴾ الآية بعدها .

وقال مقاتل : نسخها قوله تعالى : ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ ﴾ والراجح والله أعلم القول الأول لقوة الدليل من السنة وهو ما رجحه ابن العربي ، وابن الجوزي والقرطبي وابن كثير والشوكاني رحمهم الله جميعاً [2] .

وأما ما احتج به لأصحاب القول الثاني ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، فإن ذلك كان في الوقت الذي أحلت فيه مكة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي دار حرب وكفر ، وكان له أن يرق دم من شاء من أهلها ، في تلك الساعة التي أحل له فيها القتال [3] .

---

[1] - سورة التوبة (٥) .

[2] - جامع البيان (٢/١٩٢-١٩٣) أحكام القرآن لابن العربي (١/١٠٧-١٠٨) . زاد المسير (١/١٩٩-٢٠٠) . تفسير ابن كثير (١/١٣٣-١٣٤) . فتح القدير (١/١٩١) .

[3] - الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣٥) . فتح القدير (١/١٩١) .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ عن قتالكم بالإيمان ، ودخلوا في الإسلام ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي : غفور لذنوب من آمن منهم ، وتاب من شركه ، رحيم بهم ، فيرحم كلا بالعفو عما اجترم كما قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [1] .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ أمر سبحانه وتعالى بمقاتلة المشركين في كل مكان حتى لا يكون شرك ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبو العالية ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والربيع ، ومقاتل ، والسدي ، وابن زيد ، ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ ، أي : وحتى يخلص التوحيد لله سبحانه وتعالى ، ويكون دينه هو الظاهر ، على سائر الأديان ، فلا يعبد غيره ، ولا يطاع سواه ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والربيع ، وقتادة .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ عن شركهم ، وكفرهم ، ودخلوا في الإسلام وأقروا بما أكرمكم الله به ، من الفرائض ، فكفوا عن قتالهم ، ولا تقاتلوا إلا من ظلم ، وهو من لم يدخل في الإسلام ، ﴿ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهم المشركون ، قاله قتادة ،

---

[1] سورة الأنفال (٣٨) .وانظر : جامع البيان (١٩٣/٢) . الجامع لأحكام القرآن (٢٣٥/٢) .

والربيع . والمراد بالعدوان : المعاقبة والمقاتلة ، وسمي ما يفعل بالظالمين ، عدواناً مشاكلة كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [1]. [2] .

ونخلص من تفسير الآيات الكريمة ، أنه لا يوجد فيها ما يحصر الجهاد في الدفاع ، كما فهمه من استشهد بها . ولا ما يحرم قتال البعث والإرسال أيضاً ، بل إنها تأمر به ، وتحض عليه ، لرفع كلمة الله العليا ، وخفض الشرك وأهله .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [3] .

---

[1] - سورة الشورى (٤٠) .

[2] - تفسير القرآن العزيز (١/٩٠) . جامع البيان (٢/١٩٤-١٩٦) . زاد المسير (١/ ٢٠٠-٢٠١) . الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣٦) .تفسير ابن كثير (١/٢٣٤) . فتح القدير (١/١٩١) .

[3] - سورة النساء (٧٥) .

في هذه الآية الكريمة يحض المولى جل علا عباده المؤمنين ، على الجهاد في سبيله قائلاً : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ فحرضهم على القتال ، لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء المضطهدين ، ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ معطوف على اسم الله عزوجل ، أي : وفي سبيل المستضعفين منكم ﴿ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ ، وهم من كان من المؤمنين بمكة ، تحت إذلال كفرة قريش ، وأذاهم ، عن ابن عباس قال : « كُنْتُ أَنَا وأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَنَا مِنَ الْوِلْدَانِ وأُمِّي مِنَ النِّسَاءِ »[1] .

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ يطلبون الله أن ينجيهم ، مما هم فيه من الأذى ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ : وهي مكة بإجماع المفسرين ﴿ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ في كفرهم ، وتعذيبهم لنا﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ يلي أمرنا، ويكفينا أذاهم ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ ينصرنا عليهم .

وخلاصة القول : أن الله حض المؤمنين على القتال في سبيله تعالى ، واستنقاذ الضعفاء من المؤمنين في مكة ، الذين يعذبون فيها ، ولا يستطيعون الخروج منها ، حتى يسلم لله هؤلاء ، ويتمكنوا من إعلاء دينهم ، وهو قول

---

[1] صحيح البخاري (٢/٩٧) . كتاب الجنائز. باب(٨٠)إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ...حديث(٣) .

ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد ، والسدي ، والزهري ، وقتادة ، وابن زيد .

ويرى الشوكاني : أن نصرة المستضعفين خاصة بمن كان في مكة ، ولا يحمل على العموم لتقييده بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ والمراد بها مكة بإجماع المفسرين[1] .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] .

الآية الكريمة مرتبطة بسابقتها في المعنى ففي الآية السابقة أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول للذين كفروا ، إن ينتهوا عن كفرهم وعنادهم ، ويسلموا لله عزوجل ، يغفر لهم ، ما سلف من الذنوب و المعاصي ، فإن الإسلام يجب ماقبله ، كما قال صلى الله عليه وسلم [3] . وإن استمروا على

---

[1] - جامع البيان (٥/١٦٧-١٦٩) . الجامع لأحكام القرآن (٥/١٨٠-١٨١٩ . تفسير ابن كثير (١/٥٣٧) . فتح القدير (١/٤٨٧) .

[2] - سورة الأنفال (٣٩) .

[3] - أخرج الإمام أحمد (٤/٢٠٥) قال : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ أَخْبَرَنَا لَيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَالَ : لَمَّا أَلْقَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَلْبِي الإِسْلاَمَ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُبَايِعَنِي فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ فَقُلْتُ : لاَ أُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي . قَالَ : فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا عَمْرُو أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ يَا عَمْرُو ؟ . أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ

كفرهم ، فسوف يعاجلهم الله بالعقوبة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، كما هي سنته سبحانه وتعالى في الأولين ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [1] .

ثم أمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، بقتالهم في هذه الآية فقال : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ أي : شرك قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة ، وأبو العالية ومجاهد ، والحسن وغيرهم ، وقال عبد الرحمن بن زيد : حتى لا يكون كفر. ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي : ويخلص التوحيد لله قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الحسن وقتادة وابن جريج أي : لا إله إلا الله . وقال ابن إسحاق : ويكون التوحيد خالصاً لله ، ليس فيه شرك ، ويخلع ما دونه من الأنداد [2] .

وكل هذه الأقوال معناها واحد وهو : أن يكون دين الله عزوجل هو الدين الظاهر العالي ، له التوحيد الخالص ، والطاعة المطلقة ، ويزول الشرك

الإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الذُّنُوبِ » وفي سنده يحيى بن إسحاق السَّيلَحيني أبو بكر نزيل بغداد صدوق مات سنة ٢١٠هـ روى له مسلم والأربعة التقريب(٥٨٧) . وبقية رجاله ثقات . فهو حسن .

١ - سورة الأنفال (٣٨) . وانظر : جامع البيان (٢٤٧/٩) . وتفسير ابن كثير (٣٢٠/٢) .

٢ - جامع البيان (٢٤٨/٩-٢٤٩) . تفسير ابن كثير (٣٢١/٢) .

وأهله ، ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » [1] .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ بقتالكم عما هم فيه من الكفر والشرك ، فكفوا عن قتالهم ، وإن لم تعلموا بواطنهم ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: أن الله لا يخفى عليه شيء من حالهم ، فهو يعلم ما يعملون من الكفر ، والدخول في الإسلام .

قال ابن جرير : « فإن انتهوا عن الفتنة ، وهي الشرك ، وقد قال بعضهم : معنى ذلك : فإن انتهوا عن القتال . والذي قلنا أولى بالصواب ، لأن المشركين ، وإن انتهوا عن القتال ، فإنه كان فرضاً على المسلمين قتالهم حتى يسلموا » [2] .

---

١ - صحيح سبق تخريجه ص (٢٧) .

٢ - جامع البيان (٩/٢٥٠) . وانظر : تفسير ابن كثير٢/٣٢٢) . وفتح القدير (٢/٣٠٨) .

الفصل الثالث

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الدالة على الجهاد باللسان وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

الفصل الثالث

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الدالة على الجهاد باللسان وأثره في الإعاقة عن الجهاد في سبيل الله

جاء في كتاب الله عز وجل آيات كريمة تدل على جهاد الكفار والمنافقين باللسان ببيان الحق لهم، وإقامة الحجة عليهم فالجهاد باللسان جزء من الجهاد بمعناه الشامل في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [1] .

ومن تلك الآيات قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[2] . فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعد نهيه عن طاعة الكفار فيما يدعونه إليه من عبادة آلهتهم ، بأن يجاهدهم بالقرآن ، ويقيم عليهم الحجة ، قال ابن جرير رحمه الله : "جاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله ، ويدينوا به ، ويذعنوا للعمل بجميعه طوعاً وكرهاً " [3] . وقال الشوكاني رحمه الله : ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ

---

[1] - سورة العنكبوت (٦٩) .

[2] - سورة الفرقان (٥٢).

[3] - جامع البيان (٢٣/١٩).

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾: راجع إلى القرآن ، أي : جاهدهم بالقرآن ، واتل عليهم ما فيه من القوارع و الزواجر والأوامر والنواهي [١] .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ [٢] .

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالأعراض عن المنافقين ، وأن ينهاهم عما هم فيه من النفاق وفساد السريرة ، ويذكرهم بالله عز وجل ، وأن ينصحهم سراً فيما بينه وبينهم بكلام بليغ رادع لهم ومخوف . قال ابن جرير رحمه الله : « يعني جل ثناؤه بقوله أولئك هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك يا محمد صفتهم ، يعلم الله ما في قلوبهم في احتكامهم إلى الطاغوت وتركهم الاحتكام إليك ، وصدودهم عنك ، من النفاق والزيغ، وإن حلفوا بالله ما أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ، فأعرض عنهم وعظهم، يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم ، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم ، وعقوبته أن تنزل بدارهم ، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله ، وأمر رسوله وقل لهم في أنفسهم : قولاً بليغاً ، يقول : مرهم باتقاء الله ، والتصديق به وبرسوله، ووعده ووعيده » [٣] .

ويقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي : من النفاق والقصد السيء ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾

---

١ - فتح القدير (٨١/٤)

٢ - سورة النساء (٦٣).

٣ - جامع البيان (١٥٦/٥).

أي : لا تبال بهم،ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أي: بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله؛والترهيب من تركه ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾، أي : انصحهم سرا ، بينك وبينهم ، فإنه أنجح لحصول المقصود ، وبالغ في زجرهم وقمعهم ، عما كانوا عليه وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي ، وإن أعرض عنه ، فإنه ينصح سراً، ويبالغ في وعظه بما يظن به حصول المقصود[1] .

الآيـــة الثالثـــة : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [2] . أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح عن المشركين ، وأن يأمر بالعرف وهو المعروف ، ويدخل فيه جميع الطاعات وأن يعرض عن الجاهلين بأن يتحمل ظلمهم وأذاهم ، ولا يقابل ذلك بالرد والانتقام ، وفي الأمر له صلى الله عليه وسلم بهذا تأديب لأمته بأن يتحلوا بتلك الأخلاق الفاضلة [3] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولاً كَانُوا أَوْ شُبَّانًا فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أَخِيهِ يَا ابْنَ أَخِي هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ قَالَ سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ هِيْ يَا ابْنَ

---

[1] - تيسير الكريم الرحمن (١/٣٩٥) .

[2] - سورة الأعراف (١٩٩)

[3] - جامع البيان (٢/١٥٣/١٥٦) تفسير ابن كثير (٢/٢٨٨ـ٢٨٩).

الْخَطَّاب فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلاَ تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّـــه عَلَيْــهِ وَسَـــلَّمَ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ وَكَانَ وَقَّافًـــا عِنْــدَ كِتَابِ اللَّهِ » [1] . ويقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي في تفسير الآية : « هــذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس ، وما ينبغي في معاملتهم ، فالذي ينبغـــي أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو ، أي : ما سمحت به أنفسهم وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق ، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم ، بل يشكر من كـــل أحد، ما قابله به ، من قول وفعل جميل ، أو ما هو دون ذلك ، ويتجاوز عـــن تقصيرهم ، ويغض طرفه عن نقصهم ، ولا يتكبر على الصغـــير لصغـــره ، ولا ناقص العقل لنقصه ، ولا الفقير لفقره ، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بمـــا تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ أي : بكل قول حســن ، وفعل جميل ، وخلق كامل للقريب والبعيد ، فاجعل ما يأتي إلى الناس منـــك ، إما تعليم علم ، أو حثا على خير ، من صلة رحم أو بر والدين ، أو إصلاح بــين الناس ، أو نصيحة نافعة ، أو رأي مصيب ، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجــر عن قبيح ، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية ، ولما كان لابد من أذيــة الجاهل أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل ، بالإعراض عنه ، وعدم مقابلته بجهلـــه ،

[1] صحيح البخاري (٥/١٩٨). كتاب التفسير سورة الأعراف باب (٥) خذ العفو وأمر بـــالعرف وأعرض عن الجاهلين . حديث (١).

فمن آذاك بقوله وفعله لا تؤذه ، ومن حرمك لا تحرمه ، ومن قطعك فصله ، ومن ظلمك فاعدل فيه »[1].

الآية الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[2] .

أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى سبيله جميع الناس مسلمهم وكافرهم بالحكمة أي باللين واللطف دون مخاشنة أو تعنيف ، وأن يعظهم بما أعد الله للطائعين من المكارم في العاجل والآجل وما توعد به العصاة والمعرضين عن دينه من العذاب والنكال في الدنيا والآخرة فإن لم تنفع تلك الأساليب مع المدعو لأنه يرى أنه على حق فليجادله بالوجه الحسن برفق ولين جانب بعيداً عن المخاصمة والمشاتمة[3].

قال ابن جرير رحمه الله : « ادع يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يقول : شريعة ربك التي شرعها لخلقه ، وهو الإسلام ﴿ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ يقول : بوحي الله الذي يوحيه إليك ، وكتاب الذي ينزله عليك ﴿ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها حجة في كتابه ، وذكرهم بها في تنزيله ، كالتي عدد عليهم في هذه

---

[1] - تيسير الكريم الرحمن (٢/١٩٠) .

[2] - سورة النحل (١٢٥).

[3] - أحكام القرآن (١٠/١٣١) تفسير ابن كثير (٢/٦١٣) تيسير الرحمن(٣/٦٦)

السورة من حججه ، وذكرهم ما ذكرهم من آلائه ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها ، أن تصفح عن ما نالوا به عرضك من الأذى ، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك » [1].

فالآيات الكريمة جاء فيها الأمر بالبلاغ ببيان الحق وإيضاحه ، وإقامة الحجة ، بأسلوب بليغ مقروناً باللطف واللين مع العفو والصفح عن الجاهلين ، والكف عن الانتقام من المعارضين والمعاندين ، وهذا هو جهاد اللسان ، وعنه يقول الشيخ أحمد بن يحيى النجمي : وأما تطويع غيره ــ يعني تطويع العبد غيره لله ــ فيكون بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبيان محاسن الإسلام والعواقب الحميدة في التمسك به ، والعواقب السيئة التي تحصل للمعرضين عنه في الدنيا والآخرة وإظهار صفة الجنة دار المؤمنين في الآخرة ، وصفة النار دار الكافرين في الآخرة ، فهذا من أفضل الجهاد ، إن لم يكن أفضله جميعاً ، كيف لا وهو وظيفة أنبياء الله ورسله ، وصفوته من خلقه ؟. قال تعالى : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [2] .

فالدعوة إلى الله وظيفة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم من صالحي الأمم ، وهم أولوا البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض ، الفساد العقدي ، والفساد الخلقي ، والفساد السياسي والفساد الاقتصادي.

---

١ - جامع البيان (١٤/١٩٤).

٢ - سورة يوسف (١٠٨)

فأما الفساد العقدي : فهو العدول بالعبادة عن بارئ الكون والمتصرف فيه إلى مخلوق ضعيف لا يستطيع أن ينفع نفسه ، فلقد بعث الله جميع الرسل بالنهي عن هذا الفساد وإنقاذ الخلق من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1] .

وأما الفساد الخلقي : فحدث ولا حرج فلقد تشبه المسلمون بأعداء الإسلام في كل كبيرة وصغيرة إلا من رحم ربي.

وأما الفساد السياسي فهو :

١. سفك الدماء بدون سبب .

٢. وتعذيب الضعفاء من عباد الله على غير أمر واجب حتى لو كانوا هم أهل الإيمان والنزاهة والأدب .

٣. أو الخروج على السلطة المسلمة التي تقيم حدود الله وتحكم شرع الله بدون أن يرى الخارج كفراً بواحاً معه من الله فيه برهان ، لأن ذلك يسبب الحروب المدمرة، والفوضاء الطاحنة.

وأما الفساد الاقتصادي : فهو أخذ المال من غير حله وإنفاقه في غير سبيله قال تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ

---

[1] - سورة النحل (٣٦).

ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [1] . فدعوة هؤلاء أهل هذه الأقسام جميعا جهاد من أفضل الجهاد إن لم يكن أفضله [2] .

ويقول ابن القيم رحمه الله : ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة ، كما لهم الرفعة في الدنيا ، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذرة العليا منه ، واستولى على أنواعه كلها ، فجاهد في الله حق جهاده بالقلب ، والجنان ، والدعوة ، والبيان ، والسيف والسنان ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد ، بقلبه ولسانه ، ويده ، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا وأعظمهم عند الله قدرا .

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه ، قال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [3] فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة، والبيان ، وتبليغ القرآن ، وكذلك جهاد المنافقين ، إنما هو بتبليغ الحجة ، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ

---

١ - سورة المائدة (٦٣).

٢ - رسالة الإرشاد إلى بيان الحق في حكم الجهاد (٢٥_٢٧) باختصار وتصرف.

٣ - سورة الفرقان (٥١_٥٢).

ٱلْمَصِيرُ﴾ (1) فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار ، وهو جهاد خواص الأمة ، وورثة الرسل ، والقائمون به أفراد في العالم ، والمشاركون فيه ، والمعاونون عليه ، وإن كانوا هم الأقلين عددا ، فهم الأعظمون عند الله قدراً.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض ، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه ، كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه ، من ذلك الحظ الأوفر ، وكان لنبينا صلوات الله وسلامة عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه (2).

مما سبق تظهر أهمية الجهاد باللسان وأنه لا يقل شأناً عن الجهاد بالسنان ، ولا يغني ذلك المفاضلة بينهما ، بل كلاهما فاضل ممدوح ، محمود في بابه . قال ابن القيم : « وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فأربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس ، وجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان » (3) .

ومع هذا فإن القائلين بجهاد الدفع مما عطلوا به جهاد البعث والإرسال ، الاكتفاء بجهاد اللسان أي : بالدعوة والبيان والإيضاح والبرهان ، فمتى أذن الكفار بالدعوة في بلدانهم ، وسمحوا للدعاة بالدخول ، و لم يعارضوهم فذلك كاف في تحريم قتالهم ، وإن لم يسمعوا للدعوة و لم يذعنوا لأحكام الإسلام ، ما لم يبدأوا بالعدوان على الدعوة

---

1 - سورة التوبة (٧٣).

2 - زاد المعاد (٣/٥_٦)

3 - المصدر السابق (٣/١١).

والدعاة يقول الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود : قال تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [1] . فمتى أقبل دعاة الإسلام على بلد ليدعوا أهلها إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلوهم بالتي أحسن ، فإن فتح لهم الباب ، وسهل الجناب وأذن لهم بالدخول ، ونشر الدعوة فهذا غاية ما يبتغون ، و بذلك فليفرح المؤمنون ، فلا قتل ولا قتال ، وكل الناس آمنون على دمائهم وأموالهم ، وقد فتح المسلمون كثيرا من البلدان بهذه الصفة مما سمي صلحا ، ويعقد في كتابه _ الجهاد المشروع في الإسلام _ فصلا بعنوان : الجهاد بالحجة والبيان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان قال فيه " فبدء القتال إنما يكون بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان ، فإذا منعنا من الدعوة إلى دين الله ، الذي أوجب أن ينذر به ويبلغ جميع خلقه .. فمتى هدد الدعاة أو قتلوا ، أو منعوا من البلد لنشر الدعوة ، وتبليغ الهداية ، فإنهم بمنعهم لهم يعتبرون معتدين على الدين ، فعلينا أن نقاتلهم لحماية الدعوة والدعاة لا للإكراه على الدين [2] . ويقول محمد عزة دروزة : إن خطة الدعوة إلى سبيل الله كما رسمها القرآن ، أساس الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، وأن الجهاد بمعنى القتال الواجب ، هو ضد من يقف في سبيل هذه الدعوة ، ويعطلها ، ويصد عنها ، ويعتدي على المستجيبين إليها[3] . ويقول محمد شديد : " مفهوم الجهاد في الإسلام إذن لا يقتصر على جهاد الحرب ،

---

[1] - سورة الأنعام (١٩).

[2] - الجهاد المشروع في الإسلام (٢٠،٧) نقلا عن كتاب الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام (١٨٤).

[3] - الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث (١٤).

إنما يشمل السلم والحرب ، فالدعوة إلى الإسلام بالقلم واللسان جـــهاد ، والتربية وفق منهج القرآن في البيت والمدرسة والمسجد والمجتمع جـــهاد ، وكل عمل يبذل خالصا لوجه الله ، لنصرة الإســـلام وخـــير الإنســـانية جهاد » [1] . وقال : « ورغم أن الإسلام يعتبر نفسه الطور النهائي لديـــن الله الواحد ، وأن رسالته خاتمة الرسالات وأنه جـــاء بالمبـــادئ الخـــالدة للإنسانية كلها ، على طول الزمان ، فإنه لم يأذن للمسلمين بإكراه النـــاس على عقيدته ولا بالتمكين لنظامه ، ومبادئه بالقوة ، ولا أباح الحرب بحجة نشر دعوته .. إن آيات القرآن في عهديه المكي والمدني ، صريحة محكمـــة تحدد أسلوب الدعوة بالحكمة والحسنى ، ومهمة الرســـول في الدعـــوة والبلاغ وتنهى عن القسر والإكراه[2] .

وقال الدكتور وهبة الزحيلي : « وأما القول بأن للدين دعوتـــين : دعوة باللسان ودعوة بالسنان لإصلاح عقائد الناس ، وأنظمة الحياة ، فهو قول لا يتفق معه الطريق التي بينها الله تعالى لنشر الإسلام ، وهي الدعـــوة بالحجة والبرهان ، والإقناع والمنطق والعقل وذلك في آيات كثيرة ، مثـــل قولـــه ســـــبحانه : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [3] . [4] .

1 - الجهاد في الإسلام (٧).

2 - المرجع السابق (١٢٤) .

3 - سورة النحل (١٢٥)

4 - آثار الحرب (١٢٢).

ومن قبلهم الأستاذ محمد عبده ، حيث يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ ﴾ [1] . وثم وجه آخر : وهو أن كرههم للقتال لم يكن خوفا على أنفسهم أن يبيدوا ، ولا على الحق الذي حملوه ، أن يضيع ، وإنما حب السلام والرحمة بالناس التي أودعها القرآن في نفوسهم ، وثبتها الإيمان في قلوبهم ، واختيار مصابرة الكفار ومجادلتهم بالدليل والبرهان ، دون مجالدتهم بالسيف والسنان ، ورجاء أن يدخلوا في السلم كافة ويتركوا خطوات الشيطان [2] ورجحه محمد رشيد رضا بقول : " بين سبحانه أن القتال كتب على هذه الأمة وإن كرهه المؤمنون خشية أن يضيع الحق وأهله ، أولما أودع القرآن قلوبهم من الرجاء والرحمة ، بجذب الناس إلى الإيمان بجاذب الدليل والحجة ، وهو الأرجح [3]

ويتبين من هذه الأقوال كيف عطل أصحاب هذا الرأي جهاد البعث والإرسال ، واكتفوا بجهاد اللسان ، وفي هذا صرف للآيات عن مدلولها ، وعمل ببعضها دون بعض ، وأبعد من هذا ما حكاه أبوحيان عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ [4] .
قال : " وأبعد من ذهب إلى أن قوله : ﴿ وَقَٰتِلُواْ ﴾ ليس أمرا بالقتال وإنما أراد بالمقاتلة المخاصمة والمجادلة ، والتشدد في الدين ، وجعل ذلك

---

١ - سورة البقرة (٢١٦).

٢ - تفسير المنار (٣١٣/٢).

٣ - المصدر السابق (٣١٥/٢).

٤ - سورة البقرة (١٩٠)

قتالا لأنه يؤول إلى القتال غالبا ، تسمية للشئ باسم مايؤول إليه ، والآية على هذا محكمة _ ثم رده بقوله وهذا القول خلاف الظاهر والعدول عن الظاهر لغير مانع لا يناسب » [1].

إن هذا الفهم لآيات الجهاد باللسان ، والاحتجاج بها على وجوب الجهاد باللسان فحسب ، ورد جهاد البعث والإرسال بمدلولها لهو فهم خاطئ يحول بين المسلمين وبين حقيقة الجهاد في سبيل الله . فآيات القرآن الكريم لا تعارض بينها ، ولا يقدم بعضها على بعض ، ولكن ينبغي فهم المراد منها في مجموعها ، وما أجمل ما قاله ابن القيم في كلامه السابق : « وجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان » [2] .

فبين رحمه الله أن جهاد اللسان ، وجهاد السنان كلاهما مطلوب مشروع ، ولكن قد يكون أحدهما أخص من الآخر في بعض المواقف وفي بعض الأحيان ، وهذا هو الفهم القويم للقرآن الكريم الذي يعمل الآيات كل في بابه والله أعلم .

---

[1] - البحر المحيط (٢/٦٥).

[2] - زاد المعاد (٣/١١).

الفصل الرابع

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الداعية إلى المحافظة على النفس وأثره في إعاقة عن الجهاد في سبيل الله

الفصل الرابع

الاحتجاج على ترك الجهاد بالآيات الداعية إلى المحافظة على النفس وأثره في إعاقة عن الجهاد في سبيل الله

دين الإسلام ، دين كامل في تشريعاته ، شامل لجميع نواحي الحياة الدنيا، مثل ما يعني بالحياة الآخرة ، يحفظ للمؤمنين أموالهم وأنفسهم ، ويرعى مصالحهم وحقوقهم ، فضمن للنفس المؤمنة الحياة الآمنة ، بما شرع لحفظها من قصاص ، النفس بالنفس ، والعينْ بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن يهم بالنيل من أخيه المسلم ، إذا لم يردعه إيمانه ، يعلم أن القصاص منه بالمثل ، فيمنع نفسه من همها ، ويكظم غيظها ، ليسلم بنفسه وفي ذلك سلامة غيره ، ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

بل إنه نهى المسلم عن قتل نفسه ، وجعل ذلك محرماً ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ

---

[1] - سورة البقرة (١٧٩).

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [1]. فإن نهي المؤمنين عن قتل أنفسهم ، أي : قتل بعضهم بعضا ، لفظه متضمن لنهي المؤمن عن قتل نفسه ، بتعمدها بالقتل ، أو تعرضها لما يكون سببا في تلفها ، وتوعد سبحانه وتعالى ، من يفعل ذلك مع علمه بتحريمه ، متعديا حدود الله بأن يصليه النار ، لعظم جرمه وشناعة فعله بقتله نفسه [2] قال ابن جرير : « ولا يقتل بعضكم بعضا ، وأنتم أهل ملة واحدة ، ودعوة واحدة ، ودين واحد ، فجعل جل ثناؤه ، أهل الإسلام ، كلهم بعضهم من بعض ، وجعل القاتل منهم ، قتيلا في قتله إياه منهم ، بمنزلة قتله نفسه ، إذ كان القاتل والمقتول أهل يد واحدة على من خالف ملتهما » [3] .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا » [4] .

فالنفس المؤمنة غالية في شريعة الإسلام ، لا يجوز الاعتداء عليها بالقتل ، أو بما يكون سببا في هلاكها ، أو بما يكون سببا في تلف عضو منها ، والآية الكريمة تدل على ذلك ، وكذلك الحديث الشريف ، إلا أن هذا لا يعصمها من حق الله عزوجل عليها ، في الجهاد في سبيله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ

---

[1] - سورة النساء (٢٩_٣٠).

[2] - المحرر الوجيز (٤٢/٢) الجواهر الحسان (٢٤٤/٢) تيسير الكريم الرحمن (٣٧٢/١-٣٧٣)

[3] - جامع البيان (٣٥/٥)

[4] - صحيح سبق تخريجه ص (٦٣) .

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١) . ولكن هناك من يفهم تلك الآية على غير هذا المعنى ، ويتأولها وماكان في معناها من آيات ، حجة في ترك الجهاد في سبيل الله عزوجل ، ولهؤلاء تأويلان :

التأويل الأول : أن الآيات تدل على حرمة النفس البشرية ، وعصمة دمها ، بغض النظر عن دينها ، فالنفس المؤمنة ، والنفس الكافرة التي لم تؤمن بالله ، ولا تذعن لحكمه ، في الدم سواء ، لا يجوز قتل أي منهما ، وسواء كانت الكافرة ذات كتاب ، أومشركة أوبوذية أو غير ذلك ، المهم أنها نفس بشرية . كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (٢) فالإنسانية خلقت للتآلف ، وللتعارف على اختلاف شعوبها ، وألوانها ، وجنسياتها ، وأديانها ، يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله : " قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾الخ. أقول ظاهر هذه الجملة وحدها : أن النهي إنما هو عن قتل الإنسان لنفسه ، وهو الانتحار ، والمتبادر منها في هذا الأسلوب ، أن المراد لا يقتل بعضكم بعضاً وهو الأقوى . واختير هذا التعبير للإشعار بتعاون الأمة ، وتكافلها ، ووحدتها ...

---

١ - سورة التوبة (١١١).

٢ - سورة الحجرات (١٣).

ومن نظر في مجموع الآيات الواردة في هذا المعنى ، وراعى دلالة النظم والأسلوب ، يجزم بأن المراد بقتل الناس أنفسهم ، هو قتل بعضهم لبعض ، وأن النكتة في التعبير هو ما تقدم بيانه ، من وحدة الأمة ، حتى كأن كل فرد من أفرادها ، هو عين الآخر ، وجنايته عليه ، جناية على نفسه من جهة ، وجناية على جميع الأفراد من جهة أخرى ، بل علمنا القرآن أن جناية الإنسان على غيره ، تعد جناية على البشر كلهم ، لا على المتصلين معه برابطة الأمة الدينية ، أو الجنسية ، أو السياسة ، بقوله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [1]

وإذا كان يرشدنا بأنه يجب علينا أن نحترم نفوس الناس بعدّها كنفوسنا فاحترامنا يجب أن يكون أولى » [2] . وينحو هذا النحو محمد شديد في قوله : « إنه ـ أي الإسلام ـ يتصور الحياة وحدة إنسانية ، غايتها التعارف والتعاون بين الجميع ، ولا يتصور لها صراعاً بين الطبقات ، ولا حرباً بين الشعوب ، ولا عداوة بين الأجناس ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[3] . ويتصور الأديان كلها ديناً واحداً ، بعث الله به رسله للبشرية الواحدة ، والمؤمنين الذين آمنوا بهذا الدين أمة واحدة ، في كل زمان ومكان ، ويصور النبي هذه الوحدة بالبناء الواحد ، الذي لا يشغل منه إلا موضع لبنة : « مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ

---

١ - سورة المائدة (٣٢)

٢ - تفسير المنار (٥/٤٣ـ٤٤).

٣ - سورة الحجرات (١٣) .

مِنْ زَوَايَاه فَجَعَلَ النَّاس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ؟ . قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ »[1] .

وبهذا قضى الإسلام على معظم الأسباب التي تؤدي إلى العداوة والحروب ، ثم يخطو الإسلام ، خطوة كبيرة في سبيل تحقيق هذا الهدف ، وذلك بتقرير حقوق الإنسان ، تلك الحقوق التي لم يصل إليها حتى اليوم نظام ، ولا شريعة ولا فلسفة ، في عمقها ، وأصالتها ، ورفعتها ، فالإنسان في نظر الإسلام ، مخلوق كريم ، وكائن ممتاز، كرمه ربه بنفخة علوية من روحه ، وزوده بالمواهب ، والطاقات التي تمكنه من تعمير الأرض ، والرقي بالحياة ، أسجد له ملائكته ، وجعله خليفته في أرضه ، وسخر له في حياته ، كل ما يحتاج إليه لتحقيق رسالته : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2] .

ويهدف الإسلام إلى تحقيق هذه الكرامة للإنسان في واقع الحياة ، للإنسان بوصفه إنسانا ، بصرف النظر عن دينه ، وجنسه ، ولونه ، ووطنه ، وأعطاه حق الحياة الحرة الكريمة ، ففرض لكل جاهل أن يتعلم ، ولكل محتاج أن يعان ، ولكل مريض أن يداوى ، ولكل خائف أن يؤمن ، وصان عرضه ، وماله ، ومسكنه ، وحرم دمه أن يسفك ، وحريته أن يعتدى عليها ، وضميره أن يتحكم

---

١ - صحيح مسلم (١٧٩١/٤) . كتاب الفضائل .باب(٧) ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين حديث (٢٢) .

٢ - سورة الإسراء (٧٠).

فيه ، و لم يترك هذه الحقوق عرضة للعبث والضياع ، و لم يضعها في أسلوب الحكم والنصائح ، وإنما جعلها من صميم العقيدة ، لها حرمة الإيمان كما جعلها فرضاً على المجتمع والدولة.

وأكد حرمة الدم البشري ، فحرم سفكه إلا بالحق ، لا فرق بين إنسان وإنسان ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [1] . وعظم من حرمة النفس البشرية ، ومن وزر الاعتداء عليها ، فاعتبر النفوس كلها واحدة ، من اعتدى على إحداها فكأنما اعتدى عليها جميعاً ، لأنه اعتدى على حق الحياة)) [2] .

وعلى هذا الكلام فالنفس البشرية معصومة ، حرم دمها ، سواء أكانت مؤمنة ، أو كافرة ، ومن قتلها فهو معتد آثم . وهنا يأتي سؤالان عن الآية التي استشهد بها . هما : ما هي النفس التي حرم الله ؟ . وما هو الحق الذي يقتلها ؟.

وأترك الإجابة على هذين السؤالين للمفسرين حيث قالوا : النفس التي حرم الله هي : المسلم أو المؤمن ، والكافر المعاهد أو المستأمن . والحق هو : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة والحرابة [3] .

ويقول ابن جرير ((وإن كانت كافرة لم يتقدم كفرها إسلام ، فأن لا يتقدم قتلها لها عهد وأمان)) [4] . فيرى المفسرون رحمهم الله أن النفس المحرمة

١- سورة الإسراء (٣٣).

٢- الجهاد في الإسلام (١٢٠-١٢٢) .

٣- جامع البيان (٨٤/٨) الكشاف (٤٤٨/٢) المحرر الوجيز (٤٥٢/٣) زاد المسير (٢٢٣/٣) تفسير القرآن (٤٦٩/١) الجامع لأحكام القرآن (٨٧/٧) تفسير ابن كثير (٤٢/٣) فتح القدير (٢٢٣/٣) تيسير الكريم الرحمن (٧٩/٣).

٤- جامع البيان (٨٠/١٥).

هي : النفس المؤمنة ، مع أن هذه الحرمة لا تحميها من أخذ الحق منها ، إذا اقترفت ما يوجب قتلها ، كالقتل ، والزاني المحصن ، والردة ، وأما النفس الكافرة فلا تدخل في هذا التحريم إلا بعقد المعاهدة والأمان وهذا ما دلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » [1] .

التأويل الثاني للآيات : أنها نهي للمؤمنين عن المخاطرة بأنفسهم في القتال ، متى ظنوا أن عدوهم سيتغلب عليهم ، ويقتلهم ، فإن هذا من قتل النفس ، لأنه رمي بها في أحضان الأعداء ليقتلوها .

ومن هذا ما حكاه بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ ﴾ قيل : المعنى لا تخاطروا بنفوسكم في القتال ، فتقاتلوا من لا تطيقونه ، يقتلونكم [2] .

ومنه أيضاً ما أورده بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ ﴾[3] أي : لا تدخلوا العساكر التي لا طاقة لكم بها ، ولا تقاتلوا إلا حيث يغلب على ظنكم النصر وعدم الهزيمة [4] .

---

١ - صحيح سبق تخريجه (٢٧) .

٢ - روح المعاني (٥/١٦). تفسير المنار (٥/٤٤).

٣ - سورة البقرة (١٩٥).

٤ - أحكام القرآن للجصاص (١/٣٢٧) أحكام القرآن لابن العربي (١/١١٦) روح المعاني (٢/٨٧) تفسير المنار (٢/٢١٣_٢١٤).

فأصحاب هذا القول يرون أن هذه الآيات تنهي المسلمين عن خوض معارك الجهاد في سبيل الله عزوجل ، إلا إذا غلب على ظنهم النصر ، وهزيمة الأعداء ، وإن قاتلوا على غير هذه الحال فهم قاتلون لأنفسهم ، أوملقون بها إلى الهلاك ، قال عبدالحافظ عبدربه : « فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشئ من حقوقهم ، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء ، خير من انتصار باهر تزهق فيه الأرواح ، وتسفك في مجازره الدماء »[1] .

وقد رد هذا الفهم الخاطئ ابن العربي[2] ، ومحمد عبده [3] ، ومن قبلهما أبو أيوب ، والبراء بن عازب رضي الله عنهما ، عن أسلم أبي عمران التجيبي قال : كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ فَخرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؟ . فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ . وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ فِينَا مَعْشَرَ الأنصار . لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ! . فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها

[1] - فلسفة الجهاد في الإسلام (٤٦) .

[2] - أحكام القرآن لابن العربي (١١٦/١) .

[3] - تفسير المنار (٢١٤/٢) .

وَتَرَكْنَا الْغَزْوَ . فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ » [1] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال له الرجل يأتي العدو فيقاتله حتى يقتل ؟ ــ قال : لا ــ ولكن هو الرجل يذنب فيقول : لا يغفر الله لي [2] .

---

١ - صحيح أخرجه الترمذي (٥/٢١٢) كتاب التفسير باب (٣) ومن سورة البقرة حديث (٢٩٧٢) قال حدثنا عبد بن حميد حدثنا الضحاك بن مخلد عن حيوة بن شريح عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران التجيبي ــ وقال حديث حسن صحيح غريب ومن طريق حيوة بن شريح عن يزيد بن حبيب بقية الإسناد أخرجه أبوداوود (٣/١٢) كتاب الجهاد باب في قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ــ حديث (٢٥١٢) والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٩) باب (٣١) قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة ﴾حديث (٢) وابن حبان في صحيحه (١١/٩ــ١٠). والحاكم (٢/٢٧٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .والطبري في تفسيره (٢/٢٠٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٤٥،٩٩) والدر المنثور (١/٤٦٣) وزاد نسبته إلى " عبد بن حميد وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أسلم .. » .

٢ - صحيح أخرجه الحاكم (٢/٢٧٥ــ٤٧٦). وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٤٥) . وابن جرير من طرق عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء جامع البيان (٢/٢٠٢ــ٢٠٣). والدر المنثور (١/٤٦٤) وزاد نسبته إلى وكيع وسفيان بن عينيه والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن حاتم.

الفصل الخامس

علاج هذه العوائق في ضوء القرآن الكريم

الفصل الخامس

علاج هذا العائق

لابد لعلاج هذا العائق من عدة وقفات ، تزيل اللبس وتوضح الحق .

فالوقفة الأولى : مناقشة الأدلة ، وبيان وجه الحق الذي ترشد إليه .

أولاً : الآيات الداعية إلى السلم في الفصل الأول ، لا تدل على تـــرك جهاد البعث والإرسال ، وحصر الجهاد المشروع في الدفاع فقط ، لأنها تدعو إلى السلم ، وعدم الإكراه في الدين ، كما زعم من احتج بها على ذلـــك ، وتفصيل هذا كما يلي :

١. قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1] ظهر من تفســيرها كما سبق [2] أن المراد بها أهل الكتاب ، فلا يكرهون على الإســلام إذا أدوا الجزية ، وأما أهل الأوثان ، فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، ويؤيـــد هذا ما ثبت في سبب النـــزول ، فالآية من العام المخصوص ، لأن عمومـــها قد خص بالآيات التي فيها إكراه أهل الحرب علـــى الإســـلام ، كقولـــه تعـــالى : ﴿ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ ﴾[3] وإذا قلنا بعمومها ، وأن العبرة بعموم اللفـــظ لا بخصـــوص

---

[1] - سورة البقرة (٢٥٦)

[2] - انظر : ص (٧٧٥) .

[3] - سورة الفتح (١٦) . وانظر : المحرر الوجيز(١٣٢/٥) . وتيسير الكريم الرحمن (٥٩/٥) .

السبب فهي لا تمنع جهاد البعث والإرسال ، لأنه جهاد لأجل إخضاع الكفار لحكم الإسلام وسلطانه ، مع بقائهم على دينهم صاغرين إذا رغبوا ذلك ، وهذا لا تنافي بينه وبين الآية الكريمة ، وإنما الإكراه المقصود في الآية ؛ هو الإكراه على الدخول في الإسلام ، كما وضح من سبب النزول ، فنهى الله سبحانه وتعالى عنه ، ليكون اعتناق الإنسان للإسلام باختياره.

وأما قتال الكفار لإعلاء كلمة الله عز وجل ، وإن لم يبدأوا بعدوان ، وإخضاعهم لسلطان الإسلام ، فليس من الإكراه المنهي عنه في شئ ، قال سيد قطب : " إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ، ومن العبودية لهواه أيضاً ، وهي من العبودية للعباد ، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه ، و ربوبيته للعالمين .. إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي ، وليس رسالة خاصة بالعرب ، إن موضوعه هو الإنسان ، نوع الإنسان ، ومجاله هو الأرض ، كل الأرض ، إن الله سبحانه ليس رباً للعرب وحدهم ، ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم ، إن الله هو رب العالمين . وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم ، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره .. إنه لم يكن من قصد الإسلام قط إكراه الناس على اعتناق عقيدته ، ولكن الإسلام ليس مجرد عقيدة ، إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان ، من العبودية للعباد ، فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر ، وعبودية الإنسان للإنسان . ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحراراً بالفعل في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم ، بعد رفع الضغط السياسي عنهم ، وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم ، ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم ، وأن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيداً

للعباد . وأن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض ، يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده ، ليعتنق كل فرد هذا النظام العام ، ما يعتنقه من عقيدة ، وبهذا يكون الدين كله لله . أي تكون الدينونية والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله ، إن مدلول الدين أشمل من مدلول العقيدة ، إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة ، وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة . ولكنه أشمل في عمومه من العقيدة ، وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة ، لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ، ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام. والذي يدرك طبيعة هذا الدين على النحو المتقدم ، يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف ، إلى جانب الجهاد بالبيان ، ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية ، بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح الحرب الدفاعية » [1] .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ [2] .

استدل بهذه الآية الكريمة على وجوب مصالحة الكفار ، إذا طلبوا من المسلمين ذلك ، وإن كان الكفار في الحقيقة ماكرين . وفي هذا دليل على عدم جواز جهاد البعث والإرسال ابتداء . وليس الأمر كذلك ، فقد سبق في تفسيرها : أن الأمر ليس للوجوب ، بل هو مقيد بمصلحة الدعوة الإسلامية ، وحال المجاهدين ، فإذا كان الصلح يجلب للمسلمين نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً ، أو كان بهم ضعف ، أو رجوا منه إسلام الكفار ، أو خضوعهم لحكم

---

١ - في ظلال القرآن (٣/١٤٣٣ــ١٤٣٥).

٢ - سورة الأنفال (٦١) .

الإسلام بلا قتال ، جاز للمسلمين الصلح إذا طلب منهم ، ولا حرج عليهم إذا هم طلبوه .

أما إذا كان المسلمون في قوة ، ومنعة ، أو لم يكن في الصلح مصلحة للمسلمين ، أو كان فيه إذلال لهم ، فلا صلح كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾[1] . قال الجصاص: « فيه الدلالة على امتناع جواز طلب الصلح من المشركين ، وهو بيان لما أكد فرضه من قتال مشركي العرب حتى يسلموا ، وقتال أهل الكتاب ومشركي العجم حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية ، والصلح على غير إعطاء الجزية ؛ خارج عن مقتضى الآيات الموجبة لما وصفنا ، فأكد النهي عن الصلح بالنص عليه في هذه الآية »[2] وقال ابن العربي في تفسير الآية : « ... وأما من قال إن دعوك إلى الصلح فأجبهم ، فإن ذلك يختلف الجواب فيه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾[3] ، فإذا كان المسلمون على عزة ، وقوة ، ومنعة ومقانب[4] عديدة ، وعدة شديدة .

فلا صلح حتى تطعن الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم

---

١ - سورة محمد (٣٥)

٢ - أحكام القرآن للجصاص (٥/٢٧١).

٣ - سورة محمد (٣٥) .

٤ - جمع مقنب : وهي جماعات الفرسان مابين الثلاثين إلى المائة . القاموس المحيط (١٦٣) المعجم الوسيط (٧٦١).

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لانتفاع يجلب به ، أو ضر يندفع بسببه ، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه ، وأن يجيبوا إذا دعوا إليه ، وقد صالح النبي صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها ، فنقض صلحهم ، وقد وادع الضمري ، وقد صالح أكيد دومة ، وأهل نجران ، وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده ، ومازالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرعناها سالكة وبالوجوه التي شرحناها عاملة » [1] . قال الزمخشري في تفسير الآية : « والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله ، من حرب ، أو سلم ، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً ، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً » [2] .

ويتبين من هذا أن الأمر بالسلم ليس للوجوب ، بل للمسلمين الخيار في قبول الصلح ورده ، حسب ما تقتضيه المصلحة العامة للمسلمين ، فإذا ترجحت في القتال ، لأجل إخضاع الكفار لسلطان الإسلام ، وإعلاء كلمة الله ، وإن لم يكن الكفار معتدين ، جاز للمسلمين غزوهم ، وشرع قتالهم وإن طلبوا الصلح من المسلمين لم يجابوا إليه.

٢. قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ [3] . هذه الآية الكريمة بينت أن الله عز وجل لم يبح قتل المنافقين الذين اعتزلوا المؤمنين فلم

---

[1] - أحكام القرآن لابن العربي (٨٧٦/٢) وانظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٧/٨).

[2] - الكشاف (١٦٦/٢) .

[3] - سورة النساء (٩٠) .

يقاتلوهم ، و لم يقاتلوا معهم ، وألقوا السلم إلى المؤمنين ، لم يبح سبحانه وتعالى قتلهم ولا سبي نسائهم وذراريهم ولا أموالهم .

ولذا استدل بها على عدم جواز غزو الكفار وقتالهم ابتداء ما لم يعتدوا على المسلمين ، فهي إذن حجة في ترك جهاد البعث والإرسال .

وهذا الاستدلال لا يسلم به ، لأن الآية الكريمة إنما حظرت قتال من انضم إلى من بينهم وبين المسلمين عهد ، وصار منهم ورضي بما رضوا به ، أو من جاء إلى المسلمين تاركاً القتال ، واستسلم للمسلمين وانقاد لهم . ومن ينقاد للمسلمين ويذعن لأحكام الإسلام لا يقاتل.

ثم إن الجمع الكبير من المفسرين إن لم يكن غالبهم وفي مقدمتهم حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا : إن الآية منسوخة ببراءة [1] ويتلخص من هذه المناقشة ومن تفسير الآيات أن للمفسرين السابقين في الآيات الداعية إلى السلم ثلاثة أقوال :

١- أنها ماعدا آية النساء خاصة في أهل الكتاب إذا خضعوا للإسلام ودفعوا الجزية صاغرين .

٢- أنها كلها منسوخة بالآيات الآمرة بقتال الكفار كافة.

٣- أنها لا توجب الصلح ، بل تجيزه ، ولاسيما إذا كانت فيه مصلحة راجحة للمسلمين. وإلا فلا .

---

١ - راجع تفسيرها ص (٧٨٦) من هذا البحث.

وعلى كل هذه الأقوال فليس في الآيات حجة على ترك الجهاد ، بل ليس فيها دليل على جواز تركه.

ثانياً : الآيات التي نزلت قبل المرحلة الأخيرة للجهاد في الفصل الثاني :

١- قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١) .

احتج بهذه الآيات الكريمة من سورة البقرة على عدم جواز جهاد البعث والإرسال ، لأن الله أمر فيها بقتال من يقاتل ونهى عن الاعتداء ، وهو قتل من لم يقاتل ، ولأنه سبحانه وتعالى جعل للحرب المشروعية غاية تنتهي إليها ، وهي قوله : ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ والفتنة هي إيذاء الكفار للمؤمنين فمتى امتنع الكفار عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ،

١- سورة البقرة (١٩٠ - ١٩٣) .

وتركوا حرياهم ليمارسوا عبادهم ، ويقيموا دينهم ، أصبح الدين لله ، ولا مسوغ لقتال الكفار ، فالجهاد المشروع إذن هو الدفاع فقط . وهذا الاحتجاج غير صحيح ، فقد تبين من تفسير السلف لهذه الآيات ما يلي:

أ ــ أن الآية الأولى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ ــ هي أول آية جاء فيها الأمر بالقتال ، بعد أن كان مأذوناً فيه ، من غير فرض ، وجاء الأمر بقتال من يقاتل ، والكف عن من لم يقاتل ، ثم بعد ذلك .

ب – من يرى أن قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ شرطٌ في القتال ، قالوا : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال من يقاتله ، والكف عمن سالمه ، وكان كذلك فترة من الزمن ، ثم نسخ هذا ، وأمر صلى الله عليه وسلم بقتال الكفار كافة ، كما في سورة براءة ، حتى يخضعوا للإسلام ، ويدخلوا فيه ، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ج – من المفسرين من يرى أن قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ ، ليس شرطاً في القتال ، وإنما هو تهييج ، وإغراء بالأعداء ، الذين همتهم قتال أهل الإسلام ، ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾ بقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم .

وفي النهاية النتيجة واحدة ، وهي مشروعية قتال مقاتلة الكفار ، وإن لم يبدأوا بالعدوان ، فمن جعل العدوان شرطاً في جواز القتال قال بنسخه.

د – أن المراد بالفتنة في الآيات : الشرك والكفر و لم يقل بأنها التعذيب والإيذاء إلى القلة القليلة .

هـ – أن المراد بالانتهاء في قوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ﴾ الانتهاء عن القتال بدخولهم في الإسلام .

و – المراد بقوله : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أي : يخلص التوحيد لله سبحانه فلا يعبد إلا الله ، ولا طاعة إلا لله ويظهر دينه على سائر الأديان [1] .

فأي حجة في هذه الآيات لمن يزعم أنها تمنع جهاد البعث والإرسال ، وقد أضحى واضحاً ، من خلال هذه المناقشة ،أنها تحث عليه ، وتندب إليه ، إن لم تكن أمراً به والله أعلم.

٢ – قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

---

١ – انظر تفسير الآيات ص (٨١٤-٨٢١) . من هذا البحث وانظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٤٧٢) تفسير سورة الأنفال لمصطفى زيد (١١٧).

أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (١) .

في هذه الآية الكريمة حض المولى جل وعلا عباده المؤمنين على القتال في سبيله تعالى ، لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه، واستنقاذ المسلمين المستضعفين بمكة ، الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولكنهم يسألون الله أن يخرجهم مما هم فيه من الاضطهاد والتعذيب.

ولذا احتج بها على رد جهاد البعث والإرسال ، لأنها ـ كما زعموا ـ بينت سببين من أسباب مشروعية القتال وهما :

أ – القتال في سبيل الله ، أي : لأجل الدفاع عن الدين حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، بمعنى أن لا يعتدي على الدعوة والدعاة ، وتصادر حرية التبليغ .

ب – القتال لنصرة المظلوم المضطهد في دينه ، فرد أو جماعة . وفي هذا دليل على أن الجهاد المشروع هو ما كان دفاعاً وقائياً فحسب ، وماعداه فهو من الظلم والعدوان .

وهذا فهم خاطئ فالآية فيها الحض على القتال في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله تعالى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وإظهار دينه عز وجل على سائر الأديان ، وهذا ما

١ – سورة النساء (٧٥) .

تنادي به ، أمراً وحضاً ، وتحريضاً آيات الجهاد ، وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً.

وأما كون الآية تحرض على القتال في سبيل المستضعفين من المسلمين ، فلا يعني ذلك حصر الجهاد في الدفاع فقط ، ونفي جهاد البعث والإرسال ، وإنما بينت أن نصرة المستضعفين من المسلمين ورفع الظلم عنهم هو من الجهاد في سبيل الله الذي ترفع فيه الرايات وتعقد لأجله الجيوش.

مع أن من المفسرين من يرى أن نصرة المستضعفين خاصة بالذين كانوا في مكة ، كما نصت الآية الكريمة ، ولعله الصواب والله أعلم [1] .

ومن يطلع على معاني الآية الكريمة في كتب السلف يعجب من أين فهم منها رد جهاد البعث والإرسال ؟ . مع أنها تدل على مشروعيته ، يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسيرها : « هذا حث من الله لعباده المؤمنين ، وتهييج لهم على القتال في سبيله ، وأن ذلك قد تعين عليهم ، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه ، فهؤلاء المضطهدين في دينهم وأنفسهم ، صار الجهاد من أجلهم ، من باب القتال والذب عن عيلاتكم ، وأولادكم ، ومحارمكم ، لأن باب الجهاد ، الذي هو الطمع في الكفار ، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم ،

---

[1] انظر : ص (٨٢٣) .

ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم . فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم ، أعظم أجراً ، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء [1].

٢- قوله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [2] . قالوا : بينت بداية القتال وغايته ، وهي أن لا يكون فتنة أي : لا يكون لهم قوة يفتنونكم بها ، ويؤذونكم لأجل الدين ، ويمنعونكم ، من إظهاره والدعوة إليه . ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ أي : يكون دين كل شخص خالصاً لله ،لا أثر الخشية غيره فيه ، فلا مداهنة ولا مداراه . ومعنى هذا أن الجهاد لا يكون إلا للدفاع فقط ، وأما جهاد البعث والإرسال فليس بمشروع وهذا الفهم لا يسلم به لما يلي:

١- أن الآية فيها الأمر بالقتال.

٢- أن الفتنة في الآية فسرها السلف ، بالشرك والكفر ، فيكون المعنى : حتى لا يكون شرك أو كفر.

---

[1] - تيسير الكريم الرحمن (٤٠٢/١-٤٠٣) بتصرف واختصار .

[2] - سورة الأنفال (٣٩) .

٣- أن قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ . فسره السلف بخلوص التوحيد لله عزوجل ، فلا شرك ولا أنداد ، وإنما يقال : لا إله إلا الله وحد لا شريك له [١] .

وعلى هذا يكون المعنى قاتلوا الكفار حتى لا يكون شرك أو كفر ، وهذا غير ما أولها به من قال إنها دليل في عدم مشروعية جهاد البعث والإرسال ، ولاشك أن الأخذ بقول السلف أسلم ، ولاسيما أن منهم ابن عباس رضي الله عنهما الذي عايش نزول القرآن ، ويعلم معانيه ، ويعرف مقاصده .

ثالثاً : الآيات الدالة على الجهاد باللسان ، في الفصل الثالث : هذه الآيات كقوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [٢] . وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [٣] .
وما كان في معناها : تدل على فضل جهاد اللسان ، وأنه يجب على المسلمين أن لا يهملوا هذا النوع من الجهاد ، بل واجب القيام به كالجهاد بالسلاح ، فالبيان والحجة في إبلاغ الدين ، وإقامة الدعوة لهما شأن عظيم ، ومترلة عالية ، وليس في الآيات الكريمة ، ما يدل على تفضيل الجهاد باللسان ، على الجهاد بالسنان ، فضلاً عن أن تكون حجة في ترك جهاد البعث والإرسال ، وحصر مشروعية القتال في الدفاع فقط..

---

١ - انظر تفسير الآية ص (٨٢٤) .

٢ - سورة الفرقان (٥٢)

٣ - سورة النساء (٦٣)

رابعا : الآيات الداعية إلى حفظ النفس في الفصل الرابع :

لا تدل على ترك الجهاد في سبيل الله ، إذا كان غزوا لأجل إخضاع الكفار لحكم الإسلام ، بحجة المحافظة على النفس ، وأن النفس البشرية حرام قتلها ، بغض النظر عن جنسها ، أو لونها ، أو وطنها ، أو دينها ، بل غاية ما فيها ، هو الحض على حفظ النفس المؤمنة ، والنهي عن قتلها ، أو تعريضها لما يكون سببا في فقدها ، أو تلف جزء منها ؛ إلا أن هذا لا يحميها من أخذ الحق الواجب عليها ، كالقصاص ونحوه ، ولا يحول بينها وبين ما افترضه الله عليها ، كالحج والجهاد ونحوهما [1] .

الوقفة الثانية :

دعوى أن غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت كلها دفاعا ، وليس فيها شيء من العدوان . ويجاب عن هذا بما يلي :

١- أما كون غزواته ليس فيها شيء من العدوان ، فهذا كلام حق ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم ، أن يوصف بالظلم والعدوان ، وهو الذي يحمل مشعل الهداية ، وينشر العدل والرحمة والنور ، على وجه البسيطة ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾

[1] - انظر : ص (٨٤٦-٨٤٨) .

[2] - سورة الأنبياء (١٠٧).

وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [1] . والعدوان : ما تجاوز حدود الشرع ، وأخل في العدالة ، وقد نهى الله عزوجل المؤمنين عنه ، بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [2] . ولا يتصور منه صلى الله عليه وسلم ، هذا .

ولكن يا هل ترى أن قتال المسلمين للكفار ابتداء — وإن لم يبدأ الكفار بالعدوان — من هذا العدوان ، لكي نبرئ النبي صلى الله عليه وسلم منه ؟ .

هذا ما فهمه من ادعى هذه الدعوى ، وليس الأمر كذلك ، فإن قتال الكفار لأجل إخضاعهم للإسلام ابتداء ، ليس من العدوان في شيء ، وقد ثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة ، كما سيأتي في الوقفة الثالثة .

٢-قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [3] . فما هي الغضاضة في قتال الكفار إذن ، حتى يبرأ منها المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد وصف الله عزوجل قتال المؤمنين لهم ،

---

١ - سورة الأحزاب (٤٥-٤٦) .

٢ - سورة المجادلة (٩) وانظر : المفردات للأصفهاني (٣٢٨) تفسير ابن كثير (٤/٣٤٦).

٣ - سورة النساء (٧٦) .

بأنه في سبيل الله ، أي : لإعلاء كلمته ، وإخضاعهم لسلطانه ثم أمر به ؟ . وهـذا يدل على أن الجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه [1] .

٣- أن غزوة بدر كان سببها خروج المصطفى صلى الله عليه وسلم ، للتعرض لعير قريش ، التي كان يقودها أبو سفيان قادمة من الشام ، محملة بالتجارة ، يريد أخذها ، حتى جمع الله بينه صلى الله عليه وسلم وبين عدوه ، عن كعب بن مالك رضي عنه قال : « لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوهم على غير ميعاد » [2] .

فكان خروجه للقتال ، إذ لا يتأتى أخذ العير بدون مقاتلة ومدافعة من أصحابها ، وإن لم يكن كقتال المعركة ، وقد نبأه الله عن حصول المعركة ووعده بإحداهما ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [3] والطائفتان : هما العير والنفير . فكيف بنا أن نؤول هذا الخروج ، بأنه دفاع ، وهو صلى الله عليه وسلم البادئ [4] ؟ . ويكفي هذا دليلا في رد التعميم بأن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم ، كان كله دفاعا .

١- انظر : تيسير الكريم الرحمن (٤٠٣/١) .

٢- صحيح البخاري (٤/٥) كتاب المغازي باب (٣) قصة غزوة بدر . حديث (١)

٣- سورة الأنفال (٧) .

٤- السيرة النبوة لابن هشام (٦٠٦/٢-٦٠٧) تفسير ابن كثير (٢٩٩/٢_٣٠٠) تيسير الكريم الرحمن (١٩٩/٢) الجهاد في الإسلام لصالح اللحيدان (١١٤(١١٥).

٤- أنه صلى عليه وسلم كان يرسل الرسل إلى الملوك والأمراء ، يدعوهم إلى الإسلام ، وكان من كلامه صلى الله عليه وسلم ، في رسائله : ((أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم)) [١] .

وفي هذا ترغيب وتهديد ، ترغيب لمن يسلم بحسن ثواب الآخرة ، وسلامته في الدنيا ، وتهديد لمن لم يسلم بالعقوبة في الدنيا بالجهاد ، وفي الآخرة بالعذاب ، يقول ابن الملقن [٢] في شرح الحديث : ((جمع بقوله : ((تسلم)) نجاة الدنيا من الحرب ، والخزي بالجزية ، وفي الآخرة من العذاب)) [٣] .

٥- مما سبق تبين أن جهاد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، منه ما كان طلبا للكفار ، وليس كله دفاعا ــ كما يزعم ــ من قال إنه دفاع ــ ولذا لا يجوز إطلاق العدوان على جهاد البعث والإرسال ، لأجل إخضاع الكفار للإسلام ، حتى ولو كانوا غير معتدين بالقتال ، ولاسيما أن ذلك ثابت بالكتاب والسنة ، كما سيأتي.

٦-أنه لا ينحصر ثبوت الأحكام المشروعة في الإسلام ، على فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما تثبت شرعيتها بالكتاب والسنة القولية ، والفعلية.

وجهاد البعث والإرسال ، دلت عليه نصوص الكتاب العزيز ، والسنة النبوية الشريفة ، وفي الوقفة التالية ما يبين ذلك ، فلو سلمنا جدلا بأن جهاده صلى الله عليه وسلم ، كله دفاع ، فلا تعارض بنيه وبين ما هو ثابت

١- صحيح البخاري (٦/١) كتاب الوحي . باب (١) كيف كان بدء الوحي . حديث (٧) .

٢- عمر بن علي بن أحمد أبو حفص الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن له مؤلفاته كثيرة منها التوضيح لشرح الجامع الصحيح ، وشرح صحيح مسلم ، وتحفة المحتاج .. مات سنة ٨٠٤ هـ.

٣- التوضيح شرح الجامع الصحيح (٧٣٣/٢) بتحقيق زبن العتيبي.

بكتاب الله ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، من مشروعية جهاد البعث والإرسال ، وإلى بيان ذلك فيما يأتي .

الوقفة الرابعة :

الأدلة التي تثبت مشروعية جهاد البعث والإرسال ، من الكتاب والسنة ، وهي كثيرة ، وقد أوردها في حكم الجهاد ، ولا مانع من إعادة ذكر بعضها هنا للحاجة إلى ذلك فمنها:

١- قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] .

جاء فيها الأمر بقتال المشركين ، بعد نهاية الأشهر الحرم ، وهي الأربعة التي جعلها مهلة للكفار ــ في أي مكان وجدوا ، وأسرهم ، والترصد لهم ، في معاقلهم وحصونهم ، إلا أن يتوبوا إلى الله بالدخول في الإسلام ، ويقيموا شعائره [2].

٢- قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

١ - سورة التوبة (٥) .

٢ - انظر تفسير ابن كثير (٣٤٩/١ــ ٣٥٠) . تسير الكريم الرحمن (٢٣٥/٢) .

مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [1] . عاتب الله عز وجل في هذه ، الآية من تخلف عن رسوله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، سائلا ما هو السبب ؟ . فإن كان هو الرضى بالحياة ، فإنها لا تساوي شيئا مع الآخرة ، ثم توعد من لم ينفر في سبيله بالعذاب ، مما يدل على مشروعية الغزو ، وأن التخلف عنه خطر عظيم ، ولاسيما إذا تعين [2] .

٣- قوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [3] .

٤- قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [4] .

---

١ - سورة التوبة (٣٨_٣٩).

٢ - انظر تفسير ابن كثير (٢٧٣/١) . تيسير الكريم الرحمن (٢٣٤/٢) .

٣ - سورة التوبة (٢٩) .

٤ - سورة التوبة (١٢٣)

٥- قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (١) .

فهذه الآيات جميعها جاء الأمر فيها ، بقتال الكفار مطلقا ، بدون تقييده بالعدوان من الكفار ، مما يدل على أن قتال الكفار ، مشروع وإن لم يعتدوا على المسلمين ، مادام أن القتال لأجل إخضاعهم للإسلام ، ولذا جاء في بعض هذه النصوص ، تحديد الغاية التي ينتهي عندها قتال الكفار ، وهي : دخولهم في الإسلام ، أو خضوعهم له ، وإعطاء الجزية وهم صاغرون ، وغير هذه الآيات آيات كثيرة ، وقد سبق ذكرها كما سلف ، والآية الواحدة ، تكفي في الدليل لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وأما السنة الشريفة فمنها :

١- قوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » (٢) .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » (٣) .

١- سورة التحريم (٩) .

٢- صحيح سبق تخريجه ص (٢٧) .

٣- صحيح سبق تخريجه ص (٢٧) .

٣- قوله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفس محمد بيده لـولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبـدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثـم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل »[١] .

يرد على هذه الأحاديث الشريفة الأسئلة التالية :

١- كيف يتصور وقوع اللوم ، على من مات و لم يغز ، و لم يحـدث نفسه بالغزو ، إذا كان الجهاد لا يشرع إلا دفاعـا ، والدفـاع متوقف على اعتداء الكفار ؟ . بل إن كلمة الغزو تدل علـى الخروج لطلب قتال الكفار.

٢- ما هو دافع الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج ، الـذي لم يتركه إلا خشية المشقة على أصحابه ، لو كان جهاد البعـث لا يشرع ، فلو كان الجهاد جهاد دفاع لتعين الخروج له ؟ .

٣- ما معنى تمني الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يقاتل ويقتل ، في سبيل الله ، في السرايا الخارجة في سبيل الله ، إذا كان الجـهاد المشروع جهاد الدفاع فحسب ؟ .

ومن هنا يتضح أن الجهاد المنصوص عليه في الآيات الكريمـة ، والأحاديث الشريفة ، هو جهاد البعث والإرسال ، وهذا ما فهمـه

١- صحيح البخاري (١١/٤) . كتاب الجـهاد والسير . باب(١١٩) الجعائل والحملان في سبيل الله . حديث(٣) . وصحيح مسلم (١٤٩٦/٣) . كتاب الإمارة . باب(٢٨) فضل الجهاد والخروج في سبيل الله حديث (١٠٣) . واللفظ لمسلم .

الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، وترجموه في فتوحاتهم للبلدان المجاورة ، حتى أخضعوها لحكم الإسلام ، وقال أحدهم : جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

الوقفة الخامسة :

بحث بعض علماء الإسلام ، الحكمة من قتل الكافر ، ماعدا النساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والرهبان ، وعلل بعضهم ذلك بالمقاتلة والمحاربة ، واستثني هؤلاء لعدم قدرتهم على المحاربة ، وقلة خطرهم على المسلمين .

وفهم من يحصر الجهاد في الدفاع ، من هذا أن هؤلاء يشترطون اعتداء الكفار على المسلمين ، لكي يشرع قتالهم ، أو اتخذوه وسيلة ليروجوا به رأيهم .

ولا شك أن هذا فهم خاطيء لم يقل به علماء الإسلام كما – زعم هؤلاء – لأن من قال بهذا التعليل من علماء الإسلام الأوائل لم يمنع من غزو الكفار وطلبهم في عقر دارهم ، سواء بدأوا بالقتال ، أم لم يبدأوا وسنقف على بعض أقوالهم في الوقفة السابعة إن شاء الله ويتضح ذلك فيها جليا .

يقول الدكتور علي بن نفيع العلياني في هذه : « وبحث العلماء في علل الأحكام ، وحكم التشريع ، لا يغير من الأحكام المنصوص عليها شيئا ، فإذا أمر الله بقتال الكفار ، واستثنى منهم صنفا أو صنفين ، كالنساء ، والأطفال ، فنحن ننفذ أوامر الله في القتال ، وفي الاستثناء ، وإن عرفنا الحكمة فبها ونعمت ، وإن لم نعرفها فنجزم يقينا ، أن في أمر الله حكما ، ومصالح ، لأنه سبحانه الحكيم العليم ، المنزه عن العبث ، وإذا عرفنا لحكم ما ، حكمة واحدة ، فلا نجزم أنه ليس هناك غيرها ، فإن هذا من القول على

الله بلا علم ، وليس من دين المسلم التوقف في حكم ما ، لأنه لم يظهر لـــه تعليله ، أو مصلحته ، بل هذا من عمل إبليس ، الذي امتنع عن الســـجود ، زاعما أن أمر الله له به لا يكفي ، لعدم ظهور حكمته ، فليحذر أهل الدفـاع أن يكون إمامهم ، إبليس أعاذنا الله من وسوسته وأعوانه » [1].

الوقفة السادســــــــــة :

أن جهاد الدفاع اتفق العلماء ، على أنه فرض عين ، على كل مســلم قادر ، إذ لا يجوز للمسلمين ترك الكفار ، حتى يستبيحوا دماءهم ، ويســلبوا أرضهم ، ويأخذوا أموالهم ، فتجب مقاتلتهم ، متى هاجموا بلاد المسلمين .

وأما جهاد البعث والإرسال ، فهو الذي اختلف العلماء في حكمه على ثلاثة أقوال :الأول: فرض عين ، والثاني : فرض كفاية ، والثالث : تطوع ، كما سلف بيان ذلك [2] .

فلا أحد من العلماء السابقين يشك في مشروعيته ، لإخضاع الكفـــار للإسلام ، وإظهار دين الله ، على كل دين ، وإن لم يعتد الكفـــار بقتـال المسلمين ، وأنه ينبغي للمسلمين القيام به ، ولكن الخلاف في حكمـــه ، وفي الوقفة التالية نقف على كثير من كلام علماء الإسلام الأوائل في ذلك .

---

١ - أهمية الجهاد (٣٣٩) . بتصرف واختصار

٢ - انظر أقسام الجهاد وحكمه ص (٢٢-٤٠) من هذا البحث.

الوقفة السابعة :

أقوال العلماء في الجهاد :

سأورد في هذه الوقفة نماذج من أقوال أولئك الأئمة والأعلام ، الذين سبروا النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، واستنتجوا منها أحكام الجهاد ، فأودعوها كتبهم ، واضحة جلية ، لا لبس فيها ولا اختلاف .

قال السرخسي : ((... فاستقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين وهو فرض قائم إلى قيام الساعة ... ثم فريضة الجهاد على نوعين أحدهما : عين على كل من يقوى عليه بقدر طاقته ، و هو : ما إذا كان النفير عاماً قال الله تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [2] .

ونوع هو : فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين لحصول المقصود ، وهو كسر شوكة المشركين وإعزاز الدين ، لأنه لو جعل فرضاً في كل وقت على كل أحد عاد على موضوعه بالنقض ، والمقصود أن يأمن المسلمون ، ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم ، فإذا اشتغل الكل بالجهاد لم يتفرغوا للقيام بمصالح دنياهم فلذلك قلنا : إذا قام به البعض سقط عن الباقين)) [3] .

---

١ - سورة التوبة (٤١) .

٢ - سورة التوبة (٣٨-٣٩) .

٣ - المبسوط (١٠ / ٢-٣) .

وقال ابن حزم : « والجهاد فرض على المسلمين ، فإذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر داره ويحمي ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقين وإلا فلا ، قال تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[1] ... ولا يجوز الجهاد إلا بإذن الأبوين ، إلا أن ينزل العدو بقوم من المسلمين ، ففرض على كل من يمكنه إعانتهم ، أن يقصدهم مغيثا لهم أذن الأبوان أم لم يأذنا ، إلا أن يضيعا أو أحدهما بعد ، فلا يحل له ترك من يضيع منهما »[2] .

وقال الجصاص : « وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ومالك وسائر فقهاء الأمصار : إن الجهاد فرض إلى يوم القيامة ، إلا أنه فرض على الكفاية ، إذا قام به بعضهم كان الباقون في سعة من تركه ، ومعلوم في اعتقاد جميع المسلمين أنه إذا خاف أهل الثغور من العدو و لم تكن فيهم مقاومة لهم فخافوا على بلادهم وأنفسهم و ذراريهم أن الفرض على كافة الأمة أن ينفروا إليهم من يكف عاديتهم عن المسلمين وهذا لا خلاف فيه بين الأمة إذ ليس من قول أحد من المسلمين إباحة القعود عنهم حتى يستبيحوا دماء المسلمين وسبي ذراريهم .

ولكن موضع الخلاف متى كان بإزاء العدو مقاومين له ، ولا يخافون غلبة العدو عليهم ، هل يجوز للمسلمين ترك جهادهم حتى يسلموا ، أو يؤدوا الجزية .

فكان من قول ابن عمر وعطاء وعمر وبن دينار وابن شبرمة أنه جائز للإمام والمسلمين أن لا يغزوهم ، وأن يقعدوا عنهم ، وقال آخرون : على الإمام والمسلمين أن يغزوهم أبدا حتى يسلموا ، أو يؤدوا الجزية ، وهو

---

١ - سورة التوبة (٤١) .

٢ - المحلي (٧ /٢٩١- ٢٩٢) .

مذهب أصحابنا ، ومن ذكرنا من السلف المقداد بن الأسود وأبـو طلحـة في آخرين من الصحابة والتابعين »[1] .

وقال عن ابن شهاب قال : « كتب الجهاد على الناس غزواً أو قعـوداً ، فمن قعد فهو عدة ، إن استعين به أعان ، وإن اسـتنفر نفر ، وإن استغني عنـه قعد » وهذا مثل قول من يراه فرضاً على الكفاية[2] .

وقال ابن قدامة : « والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عـن الباقين ... ومعنى الكفاية في الجهاد أن ينهض للجهاد قوم يكفون في قتـالهم ، إما أن يكونوا جنداً لهم دواوين من أجل ذلك ، أو يكونوا قد أعدوا أنفسهم له تبرعاً ، بحيث إذا قصدهم العدو حصلت المنعة بهم ، ويكون في الثغور من يدفـع العدو عنها ، ويبعث في كل سنة جيش يغيرون على العدو في بلادهم .

ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع : أحدها : إذا التقـى الزحفـان وتقـابل الصفان. الثاني : إذا نزل العدو ببلد ، تعين على أهله قتالهم ودفعهم . الثـالث : إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه ... وأقل ما يفعل مرة في كل عام »[3] . وقال مثله في الشرح الكبير[4] .

وقال القرطبي : « ... إذا تعين الجهاد بغلبة العدوّ على قطر من الأقطـار ، أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفـروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً كل على قدر طاقته ، من كان لـه أب بغير أذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقـاتل ومكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم ، كان على من قـاربهم أو

---

١ - أحكام القرآن الكريم (٤/٣١١-٣١٢) .

٢ - المصدر السابق (٤/٣١٢) .

٣ - المغني (١٠/٣٥٩- ٣٦٢) :

٤ - (٣٥٩-٣٦٤) .

جاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة ، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم .

وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم ، وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم ، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم ، حتى إذا قام بدفع العدوّ أهل الناحية التي نزل العدوّ عليها ، واحتلّ بها سقط الفرض عن الآخرين .

ولو قارب العدو دار الإسلام ، ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليه ، حتى يظهر دين الله ، وتحمى البيضة ، وتحفظ الحوزة ، ويخزى العدو ، ولا خلاف في هذا » [1] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ [2] المسألة الأولى : هي أن الجهاد ليس على الأعيان ، وأنه فرض كفاية كما تقدم ، إذ لو نفر الكل لضاع من ورائهم من العيال ، فليخرج فريق منهم للجهاد ولْيُقِم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم ، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع ، وما تجدد نزوله على النبي صلى الله وسلم » [3] .

و قال الكاساني : « وأمابيان فرضية الجهاد ، فالأمر فيه لا يخلو من أحد وجهين إما أن يكون النفير عاماً ، وإما أن لم يكن ، فإن لم يكن النفير عاماً فهو فرض كفاية ، ومعناه : أن يفترض على جميع من هو من أهل الجهاد ، لكن إذا قام به البعض سقط عن الباقين ... ولأن ما فرض له الجهاد وهو : الدعوة

---

١ - الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٩٧) .

٢ - سورة التوبة (١٢٢) .

٣ - الجامع لأحكام القرآن (٨ / ١٨٦) .

إلى الإسلام ، وإعلاء الدين الحق ، ودفع شر الكفرة وقهرهم ، يحصل بقيام البعض به ... فأما إذا عم النفير بأن هجم العدو على بلد ، فهو فرض عين ، يفترض على كل واحد ، من آحاد المسلمين ممن هو قادر عليه »[1] .

وفي الدر المختار : « هو فرض كفاية ابتداء ، إن قام به البعض سقط عن الكل ، وإلا أثموا بتركه »[2] . وفي شرحه لابن عابدين : « هو فرض كفاية : كل ما فرض لغيره فهو فرض كفاية ، إذا حصل المقصود بالبعض ، وإلا ففرض عين ، ولعله قدم الكفاية لكثرته ابتداء ، وإن لم يبدؤنا ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾[3]. وتحريمه في الأشهر الحرم فمنسوخ بالعمومات ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[4] . إن قام به البعض سقط عن الكل ، إلا يقم به أحد في زمن ما ، أثموا بتركه ، أي : أثم الكل من المكلفين »[5] .

وفي الهداية : « الجهاد فرض على الكفاية ، إذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقين »[6] .

وقال النووي : « وأما اليوم – أي ليس في عهد الرسول صلى الله وسلم – فهو ضربان : أحدهما: أن يكون الكفار مستقرين في بلدانهم فهو فرض كفاية ، فإن امتنع الجميع منه أثموا ، وهل يعمهم الإثم أم يختص بالذين يدنون إليه ؟ .

---

1 - بدائع الصنائع (٧/٩٨) .

2 - الدر المختار مع شرحه رد المحتار (٤/١٢٢- ١٢٣) .

3 - سورة البقرة (١٩١) .

4 - سورة التوبة (٥) .

5 - حاشية ابن عابدين (٤/١٢٢- ١٢٣) .

6 - شرح فتح القدير (٥ / ٤٣٦) .

وجهان ، قلت : الأصح أن يأثم كل من لا عذر له كما سيأتي بيان الأعذار إن شاء الله تعالى والله أعلم . وإن قام من فيه كفاية سقط عن الباقين وتحصل الكفاية بشيئين أحدهما : أن يشحن الإمام الثغور بجماعة يكافئون من بإزائهم من الكفار ، وينبغي أن يحاط بإحكام الحصون وحفر الخنادق ونحوهما ، ويرتب في كل ناحية أميراً كافياً يقلده الجهاد وأمور المسلمين .

الثاني : أن يدخل الإمام دار الكفر غازياً بنفسه أو بجيش يؤمر عليهم من يصلح لذلك ، وأقله مرة واحدة في كل سنة ، فإن زاد فهو أفضل ، ويستحب أن يبدأ بقتال من يلي دار الإسلام من الكفار ، فإن كان الخوف من الأبعدين أكثر بدأ بهم ، ولا يجوز إخلاء سنة عن جهاد إلا لضرورة »[1] .

وفي مغني المحتاج : « للكفار حالان ، أحدهما : يكونون ببلادهم مستقرين بها ، غير قاصدين شيئاً من بلاد المسلمين ، ففرض كفاية ، إذا فعله من فيهم كفاية سقط الحرج عن الباقين ... والثاني : يدخلون أو ينزلون على جزائر ، أو جبل في دار الإسلام ، ولو بعيداً عن البلد ، فيلزم أهلها الدفع بالممكن منهم ، ويكون الجهاد حينئذٍ فرض عين »[2] .

وقال ابن عبدالبر : « والقسم الثاني : من واجب الجهاد فرض أيضاً على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرة ، يخرج معهم بنفسه ، أو يخرج من يثق به ، ليدعوهم إلى الإسلام ، ويرغبهم ، ويكف أذاهم ، ويظهر دين الله عليهم ، ويقاتلهم حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية ، فإن أعطوها قبلها منهم ، وإن أبوا قاتلهم ، وفرض على الناس بأموالهم وأنفسهم الخروج المذكور حتى يعلم أن في الخارجين من فيه كفاية بالعدو والقيام به ، فإذا كان ذلك سقط

---

[1] - روضة الطالبين (١٠ / ٢٠٨ -٢٠٩) .

[2] - مغني المحتاج شرح المنهاج (٤/٢٠٩و٢١٩) .

الفرض عن الباقين وكان الفضل للقائمين على القاعدين أجراً عظيماً ، وليس عليهم أن ينفروا كافة » [1] .

وقال في الشرح الصغير : « الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله كل سنة كإقامة الموسم بعرفة والبيت وبقية المشاهد ... فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي » [2] .

وقال ابن رشد : « فأما حكم هذه الوظيفة فأجمع العلماء على أنها فرض على الكفاية ، لا فرض عين ، إلا عبدالله بن الحسن فإنه قال : إنها تطوع »[3] .

وفي المقنع : « وهو فرض كفاية ... وأقل ما يفعل مرة في كل عام ، إلا أن تدعو حاجة إلى تأخيره ، ومن حضر الصف من أهل فرض الجهاد ، وحصر العدو بلده تعين عليه ، وأفضل ما تطوع به الجهاد » [4] .

وفي المحرر في الفقه : « وهو فرض كفاية ... وأقل ما يفعل مرة في كل عام ، إلا أن تدعو الحاجة إلى تأخيره لضعف المسلمين ، وعنه للإمام تأخيره أيضاً ، مع القوة والاستظهار لمصلحة ، رجاء إسلام العدو ... ومن حضر الصف من أهل فرض الجهاد ، أو استنفره الإمام ، أو حصر العدو بلده ، تعين عليه » [5] .

وفي تكملة المجموع : « وفرض على الكفاية إذا قام به من فيه كفاية سقط الفرض عن الباقين ... وأقل ما يجزئ في كل سنة مرة ... وفرض عين على كل مسلم إذا انتهكت حرمة المسلمين ، في أي بلد فيه لا إله إلاّ الله ،

---

[1] - الكافي في فقه أهل المدينة المالكي (٢ / ٤٦٣) .

[2] - الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك (٢ / ٢٦٧) .

[3] - بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١ / ٣٩٦) .

[4] - المقنع (١/٤٨٣-٤٨٤) .

[5] - المحرر في الفقه (٢/١٧٠) .

محمد رسول الله ، وكان على الحاكم أن يدعو للجهاد ، وأن يستنفر المسلمين جميعا ، وكانت الطاعة له واجبة ، بل فريضة كالفرائض الخمس » [1] .

وفي تبيين الحقائق : « الجهاد فرض كفاية ابتداء ، يعني يجب علينا أن نبدأهم بالقتال ، وإن لم يقاتلونا ... وكونه فرضا على الكفاية ، لأنه لم يشرع لعينه ، إذا هو قتل ، وإفساد في نفسه ، و إنما شرع لإعلاء كلمة الله تعالى ، وإعزاز دينه ، ودفع الفساد عن العباد ، إذا حصل من البعض سقط عن الباقين ... وفرض عين إن هجم العدو » [2] .

وفي حاشيته : « قوله في المتن : الجهاد فرض كفاية ابتداء : اعلم أن الكفار الذين امتنعوا عن قبول الإسلام ، وعن أداء الجزية ، يجب قتالهم ، وإن لم يبدأونا بالقتال ، وكذا يجوز قتلهم في الأشهر الحرم ... ولنا عموم الآيات والأخبار » [3].

وفي المنتقى شرح الموطأ : « الجهاد فرض في الجملة ، إلا أنه من فروض الكفاية ، ومعنى قولنا فروض الكفاية : أنه يجب في الجملة ، فإذا قام به بعض الناس سقط فرضه عن من قام به ، وعن غيره من المسلمين ، وإذا عمت الحاجة إلى جميع الناس ، ودهمهم من العدو مالا يقوم به بعضهم عم الفرض جميعهم ... إذا ثبت وجوب الجهاد فإن غايته أن يدخل الكفار في الإسلام ، أو يدخلوا في الذمة بأداء الجزية ، وجريان أحكام الإسلام عليهم » [4] .

---

[1] – تكملة المجموع شرح المهذب (١٩/٢٦٦و٢٦٩) .

[2] – تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٣/٢٤١) . مع تصرف .

[3] – حاشية الشلبي على تبيين الحقائق مطبوع معه (٣/٢٤١) . بتصرف .

[4] – المنتقى شرح موطأ مالك للباجي (٣/١٥٩) . بتصرف .

وقال الألوسي : « قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾[1] . أي : قتال الكفار ، وهو فرض عين ، إن دخلوا بلادنا ، وفرض كفاية إن كانوا ببلادهم »[2] .

وفي المفهم : « قوله صلى الله عليه وسلم : « قاتلوا من كفر بالله »[3] ، هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر من المحاربين وغيرهم ، وقد خصص منه من له عهد ، والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد كان متصلا به « ولا تقتلوا وليدا » .

وإنما نهى عن قتل الرهبان والنساء ، لأنهم لا يكون منهم قتال غالبا ، فإن كان منهم قتال ، أو تدبير ، أو أذى قتلوا ، ولأن الذراري والأولاد مال »[4] .

ونخلص من أقوال أولئك الأئمة والأعلام ، إلى اتفاقهم على مشروعية جهاد البعث والإرسال ، على اختلاف مذاهبهم الفقهية ، وتباعد أمصارهم ، وافتراق عصورهم ، وتنوع فنونهم ، لكن مستندهم واحد ، وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اللذان من وقف معهما متجردا من الهوى ، ناشدا للحق ، طالبا لثواب الله ، وفق للصواب بإذن الله .

ويبرز اتفاق الأئمة على مشروعية جهاد البعث والإرسال في النقاط التالية :

١- اتفاقهم على فرضية الجهاد فرضا عينيا ، إذا هجم العدو على بلاد المسلمين ، أو قطر من أقطارهم ، وكان النفير عاما ، وهذا هو جهاد الدفاع لرد العدوان ، ودفع الظلم .

---

[1] - سورة البقرة (٢١٦) .

[2] - روح المعاني (٢/١٠٦) .

[3] - جزء من حديث طويل صحيح سبق تخريجه ص (٢٧) .

[4] - المفهم (٤/٥١٢) .

٢- اتفاقهم على فرض الجهاد فرضا على الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذا هو جهاد البعث والإرسال ، لأجل إخضاع الكفار لحكم الإسلام ، وإعلاء كلمة الله .

٣- اتفاقهم على أن من حضر الصف ، أو استنفره الإمام للخروج تعين عليه الجهاد ، وهذا من الحالات التي يكون فيها جهاد البعث والإرسال ، فرض عين ، إذ أن جهاد الدفاع متفق على أنه فرض عين على كل المسلمين ، إلا إذا كان من هجم عليه العدو ، فيهم القدرة و الكفاية على رده .

٤- أقوالهم : « ويبعث في كل سنة جيش يغيرون على العدو في بلادهم » و « ولا يجوز إخلاء سنة عن جهاد إلا لضرورة » و « الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله كل سنة » و « وأقل ما يفعل الجهاد مرة واحدة في كل عام » ونحو ذلك .

كل هذا يراد به جهاد البعث والإرسال لأمرين : أنهم قالوا عنه فرض كفاية . والثاني : لو كان المراد به جهاد الدفاع ، لما ألزموا به المسلمين كل سنة ، إذا لم يقم به أحد منهم أثموا ، إذ هذا متوقف على هجوم العدو على المسلمين .

وأرى من المناسب أن أختم هذه الوقفة ، بكلام الإمامين الجليلين ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله ، لأن من يقول بالدفاع فقط ، يقتطف من كلامهما ، ما يظن أنه يسعفه ، ويوهم به على القارئ ، لما لهما من المكانة العظيمة ، ولما لكلامهما من القبول ، لدى أهل العلم وطلابه .

فرأيت في كلامهما الجواب عن هذا ، مع ما فيه من الحق والبيان لمشروعية جهاد البعث والإرسال ، قال ابن تيمية : « العقوبات التي جاءت بها الشريعة لمن عصى الله ورسوله نوعان :

أحدهما : عقوبة المقدور عليه ، من الواحد والعدد ...

والثاني : عقاب الطائفة الممتنعة ، كالتي لا يقدر عليها إلا بقتال فاصل ، هذا هو جهاد الكفار ، أعداء الله ورسوله ، فكل من بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له ، فإنه يجب قتاله ، ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ [1] . – وعدد مراحل الجهاد واستشهد بآيات كثيرة – ثم قال : وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين ، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة ، كالنساء والصبيان ، والراهب والشيخ الكبير ، والأعمى والزمن ونحوهم ، فلا يقتل عند جمهور العلماء ، إلا أن يقاتل بقوله أو فعله ، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر ، إلا النساء والصبيان لكونهم مالا للمسلمين ، والأول هو الصواب ، لأن القتال لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [2]....

ولهذا أوجبت الشريعة قتل الكفار ، ولم توجب قتل المقدور عليهم منهم ، بل إذا أسر الرجل منهم في القتال أو غير القتال مثل أن تلقيه السفينة إلينا ، أو يضل الطريق ، أو يؤخذ بحيلة ، فإنه يفعل فيه الإمام الأصلح ، من قتله ، أو

---

[1]– سورة الأنفال (٣٩) .

[2]– سورة البقرة (١٩٠) . والذي يرى هذا قد يظن أن ابن تيمية رحمه الله يشترط في جواز قتال الكفار ، أن يبدأوهم بالقتال ، وليس كذلك ، وإنما يقصد أن من لم يكن مقاتلا للمسلمين ، لضعفه ، كالنساء والأطفال ونحوهم ، أو لخضوعه للإسلام ، وانقياده لأحكامه فلا يقتل ، لأنه لم يكن منه ضرر للمسلمين ولا يشكل خطر عليهم ، ورجاء أن يسلم ، ويظهر ذلك واضحا في بقية كلامه .

استعباده ، أو المن عليه ، أو مفاداته ، بمال أو نفس ، عند أكثر الفقهاء ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، وإن كان من الفقهاء من يرى المن عليه ومفاداته منسوخا ...

وقتال هؤلاء واجب ابتداء ، بعد بلوغ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، بما يقاتلون عليه . فأما إذا بدأوا المسلمين ، فيتأكد قتالهم ، كما ذكرنا في قتال الممتنعين المعتدين قطاع الطرق ، وأبلغ الجهاد الواجب للكفار ، الممتنعين عن الشرائع ، كمانعي الزكاة ، والخوارج ، ونحوهم ، يجب ابتداء ودفعا .

فإذا كان ابتداء ، فهو فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين ، وكان الفضل لمن قام به ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ [1] .

فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين ، فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم ، وعلى غير المقصودين لإعانتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [2] . وكما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بنصر المسلم ، وسواء أكان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن .

وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله ، مع القلة والكثرة ، والمشي والركوب ، كما كان المسلمون ، لما قصدهم العدو عام الخندق ، ولم يأذن الله في تركه أحدا ، كما أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو ، الذي

---

[1] - سورة النساء (٩٥) .

[2] - سورة الأنفال (٧٢) .

قسمهم فيه إلى قاعد وخارج . بل ذم الذين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[1] .

فهذا دفع عن الدين والحرمة والأنفس ، وهو قتال اضطرار ، وذلك قتال اختيار ، للزيادة في الدين وإعلائه ، ولإرهاب العدو ، كغزوة تبوك ونحوها ، فهذا النوع من العقوبة ، هو للطوائف الممتنعة »[2] .

وقال ابن القيم رحمه الله وهو يتكلم عن مراحل الجهاد : « ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم ، دون من لم يقاتلهم ، فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾[3] .ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرما ، ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين إما فرض عين على أحد القولين ، أو فرض كفاية على المشهور.

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين ، إما بالقلب ، وإما باللسان ، وإما بالمال ، وإما باليد ، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع .

أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية ، وأما الجهاد بالمال ، ففي وجوبه قولان ، والصحيح وجوبه ، لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء كما قال تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4] [5] .

---

[1]- سورة الأحزاب (١٣) .

[2]- السياسة الشرعية (١٢٧-١٣٧) . بتصرف .

[3]- سورة البقرة (١٩٠) .

[4]- سورة التوبة (٤١) .

[5]- زاد المعاد (٣/٧١-٧٢) .

الخاتمة

الحمدلله رب العالمين الذي تتم بفضله الصالحات ، أحمده سبحانه على مـــا منَّ به عليَّ من إتمام هذا البحث المبارك ، وأسأله عز وجل أن ينفع بـــه مؤلفـــه وقارئه ، وعامة المسلمين ، وأن يتجاوز عن الزلل والتقصير إنه ذو المن والفضـــل والجود .

وفي ختام هذا العمل أريد أن ألخص أهم ما توصلت إليه من نتائج البحـــث فيما يلي :

١- أن لفظ الجهاد عام يشمل جهاد النفس ، وجهاد الشـــيطان ، وجـــهاد الكفار ، والجهاد باللسان بإقامة الحجة والبيان ، ولكن عند الإطلاق يدل على جهاد الكفار بالقتال ، إلا أن يقترن به قرينة تصرفه إلى نوع آخر من أنواع الجهاد . ولذا فكل ما في القرآن الكريم والسنة النبويـــة ، وكتـــب العلماء وأقوالهم من لفظ الجهاد مطلقاً فيراد به قتال الكفار .

٢- أن الجهاد في سبيل الله عز وجل مرَّ بمراحل تشريعية ، حتى استقر علـــى قتال الكفار كافة حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

٣- أن الغاية من الجهاد في سبيل الله ليست إراقة الدماء وقتل الأبرياء وحـــب التسلط كما هي حال الحروب الكافرة وكما يرميه بها أعداء الإســـلام . بل إن الغاية من الجهاد في سبيل الله هي : تعبيد الناس لله وحده لا شريك له ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبادة لـــرب العبـــاد ، وإزالـــة الطواغيت التي تحول بين الناس وبين عبادة ربهم وإخضاعـــهم لسلطان الإسلام بدليل أن المجاهدين إذا غزوا قوماً خيروهم بين ثلاثة أمور :

أ – الدخول في الإسلام .

ب – فإن لم يقبلوا الدخول في الإسلام يدفعون الجزية .

ج – إذا لم يقبلوا بأحد الأمرين السابقين قاتلوهم حتى يرضوا بأحدهما .

٤– أن جهاد الكفار بقتالهم هو الجهاد الأكبر وهو ذروة سنام الإسلام ، وأما ما زعمه بعض الباحثين أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، والجهاد الأصغر هو جهاد الكفار فليس بصواب إذ لا مستند لهم بهذا والحديث الذي استدلوا به حديث ضعيف لا تقوم به حجة [١] .

٥– أن أقوى عائق يحول بين الأمة الإسلامية وبين الجهاد في سبيل الله هو بعدها عن الالتزام بكتاب ربها عز وجل وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم ، حتى ضعفت في دينها وتفرقت في عقائدها وأفكارها ، فتساهلت في كثير من شرائعه وفي مقدمتها الجهاد في سبيل الله .

٦– أنه لما سار المسلمون وراء الشهوات ، واستمالتهم الملذات فرضوا بالدنيا واطمأنوا بها ، وتركوا الجهاد في سبيل الله عز وجل أصابهم التفرق والاختلاف والذل والهوان .

٧– أن المنافقين فتحوا ثغرات كثيرة ، وأقاموا حججاً واهية ليوقفوا بها الجهاد في سبيل الله عز وجل من زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . تتشابه قلوبهم وألسنتهم في كل عصر ومصر ما دام فيه إسلام ومسلمون أقوياء .

---

[١]- انظر : ضعيف الجامع الصغير (٤/١١٨) .

٨- شدة خوف الكفار من الجهاد مما جعلهم يدبرون له المكـــايد بأســاليب مختلفة .

٩- قوة ضرر المستشرقين على الإسلام ، وأماتتهم لروح الجهاد بما ينشـــرونه من دراسات ومعتقدات وأفكار تحارب الإسلام وتميت الحماس الجــهادي لدى بعض المسلمين .

١٠- أن دعوى أنه يوجد بعض المستشرقين المنصفين للإسلام دعوى جوفـــاء ، فلو وجد لهم بعض العبارات أو المقالات التي يستشعر منها روح إنصــاف للإسلام إلا أنه يوجد ما يعارضه ويناقضه من كلامهم مما يثبت عدوانهــم وحقدهم الدفين للإسلام ، ويبرهن للقول بأنهم ما قالوا – مـــا يشــعر بإنصافهم للإسلام – إلا لاســـتجلاب تعـــاطف المســلمين ، ولكتــم حقيقتهم .

١١- أن من الفرق المنتسبة للإسلام من يعوق عن الجهاد في سبيل الله عز وجــل بما يتبناه من أفكار مخالفة للمنهج الصحيح الـــذي عليـــه أهـــل الســـنة والجماعة. كالمرجئة التي تؤخر العمل عن الإيمان ويرون الإيمان لا يزيـــد بالطاعة ولا ينقص بالمعصية ، فيستوي عندهم إيمان من يقاتل في سبيل الله وإيمان من هو جالس على أريكته منغمس في ملذاته وشهواته . وكالجبرية التي ترى الكافر مجبور على فعله ، فكيف يجاهد من لا ذنـــب لـــه – في زعمهم – .

١٢- أن القول بأن الجهاد المشروع في الإسلام هو جهاد الدفاع فقـــط غـــير صحيح ، بل هو قول مخالف لما عليه إجماع علماء المسلمين السابقين .

١٣- أن ادعاء أن القرآن الكريم لا يجيز جهاد البعث والإرسال وإنما يجيز جهاد الدفاع فقط ادعاء خاطئ سببه عدم الفهم السليم لكتاب الله لأمرين :

أ - التأثر بكتب المستشرقين ومقالاتهم .

ب - عدم الرجوع إلى كتب السلف السابقين في فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

١٤- أن دعاوى وحدة الأديان ، والقومية والعنصرية ونحوها دعاوى باطلة دخيلة على الإسلام ، مقاصدها محو الهوية المسلمة ، وقتل روح الجهاد ، وقد أثرت أثرها في الإعاقة عن الجهاد .

١٥- أن عوائق الجهاد في سبيل الله كثيرة متنوعة ، ولكن متى رجع المسلمون إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واستمدوا منها العقائد والأحكام ومناهج الحياة ، والتزموا منهج السلف الصالح فإن هذه العوائق تزول بإذن الله عز وجل .

١٦- أن على المسلمين أن لا يرضوا بالذلة والهوان ، بل عليهم أن يعدوا العدة لرفع راية الإسلام بالعلم والإيمان والقوة .

وصلى الله على نبينا محمد

وآله وصحبه

أجمعين .

هـ ـــ الفهارس العلمية

١ – فهرس الآيات الكريمة .

٢ – فهرس الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة .

٣ – فهرس الأعلام المترجمين في الرسالة .

٤ – فهرس الألفاظ الغريبة .

٥ – فهرس البلدان والبقاع .

٦ – فهرس الأشعار .

٧ – فهرس الفرق والطوائف .

٨ – فهرس المصادر والمراجع .

٩- فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات الكريمة[1]

﴿ ٢- سورة البقرة ﴾

---

[1] - نظرا لكثرة الآيات الكريمة في الرسالة فإني أذكر طرف الآية الأول وأضع رقمها بعدها بين [ ] ثم أذكر رقم الصفحة التي توجد فيها وأقتصر على أول ورودها في الغالب . وربما يكون الموجود في الصفحة هو غير الجزء الأول منها والله الموفق .

﴿ ٩- سورة التوبة ﴾

﴿ ١٠- سورة يونس ﴾

﴿ ١٣- سورة الرعد ﴾

﴿ ١٤- سورة إبراهيم ﴾

﴿ ١٥- سورة الحجر ﴾

﴿ ١٦- سورة النحل﴾

﴿ ١٧ – سورة الإسراء ﴾

﴿ ٢٦ — سورة الشعراء ﴾

﴿ ٢٧ – سورة النمل ﴾

﴿ ٢٨- سورة القصص ﴾

﴿ ٢٩- سورة العنكبوت ﴾

﴿ ٣٤- سورة سبأ ﴾

﴿ ٦٦- سورة التحريم ﴾

﴿ ٦٧- سورة الملك ﴾

﴿ ٦٨- سورة القلم ﴾

﴿ ٧٠ – سورة المعارج ﴾

﴿ ٧١- سورة نوح ﴾

﴿ ٧٢ – سورة الجن ﴾

﴿ ٧٤- سورة المدثر ﴾

فهرس الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة

٣- فهرس الأعلام

الكنى والألقاب

النساء

٤- فهرس الألفاظ

٥- فهارس البلدان والبقاع

٦ - فهرس الأشعار

٧ - فهرس الفرق والطوائف

٨ – فهرس المصادر والمراجع

- آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي ط/٣ دار الفكر – دمشق ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .
- الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ تقديم وتعليق د/مصطفى ديب البغاء ط/١ دار ابن كثير – دمشق ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م .
- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني . ط/٧ دار القلم – دمشق ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان = صحيح ابن حبان .
- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام للعلامة ابن دقيق العيد تحقيق علي بن محمد الهندي ط/٢ الناشر : لمكتبة
- أحكام القرآن لأبي بكر بن عبدالله ، ابن العربي ت ٥٤٣هـ بتحقيق علي محمد البجاوي . دار الفكر – بيروت .
- أحكام القرآن للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ت ٣٧٠هـ تحقيق محمد الصادق قمحاوي ط/دار إحياء التراث العربي ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- الإحكام في أصول الأحكام لأبي الحسن سيف الدين علي بن أبي علي الآمدي ت ٦٣١هـ ط/١ دار الفكر . ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .
- إحياء علوم الدين لزين الدين أبي الفضل عبدالرحيم ت ٨٠٦ هـ تحقيق سيد إبراهيم ط/١ دار الحديث القاهرة . ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م .
- الأدب المفرد للإمام البخاري ت ٢٥٦هـ ط/١ عالم الكتب ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن محمد القسطلاني ت ٩٢٣هـ . ط المنشي نولكشور كانفور – الهند ١٢٨٤هـ .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) ط / دار الفكر – بيروت .
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط/٢ المكتب الإسلامي –بيروت .
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ت ٤٦٨هـ تحقيق السيد أحمد صقر ط/٢ مؤسسة علوم القرآن سوريا – دمشق ١٤٠٧هـ .
- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم للدكتور مصطفى السباعي ط/٢ المكتب الإسلامي – بيروت – دمشق ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .
- الإستيعاب في أسماء الأصحاب لأبي عمر يوسف ابن عبدالبر القرطبي ت ٤٦٣هـ دار الكتاب العربي – بيروت .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري ت ٦٣٠

ط/دار الفكر .

- أسلحة الحرب الحيوية بين النظرية والتطبيق تأليف / د/ سعيد زغلول محمد البسيوني د/ عبدالرحمن سعود الهواوي د/ هشام عفيفي محمد مصطفى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م مطبعة كلية الملك خالد العسكرية .
- أسلحة الحرب النووية بين النظرية والتطبيق تأليف / د/ فكري عطا الله عبد المهدي ١٤١١هـ /١٩٩١م مطبعة كلية الملك خالد العسكرية .
- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ . دار الكتاب لعربي –بيروت .
- أضواء على الثقافة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد محمود ط/١ إشبيليا ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- أعلام الحديث في شرح صحيح اليخاري لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي ت ٣٨٨ هـ تحقيق د/ محمد بن سعد آل سعود ط/١ مركز البحث العلمي جامعة أم القرى ١٤٠٩هـ .
- الأعلام لخير الدين الزركلي ت ١٣٩٦هـ ط/٨ دار العلم للملايين –بيروت .
- الأم للإمام محمد بن أدريس الشافعي ت٢٠٤هـ تصحيح محمد زهري النجار . دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت .
- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي مطبوع مع الكشاف دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان .
- أهمية الجهاد في نشر الدعوة والرد على الطوائف الضالة فيه للدكتور علي بن نفيع العلياني ط/١ دار طيبة . الرياض ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- بحوث ودراسات عسكرية تأليف / يوسف إبراهيم السلوم ط/١ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م دار المريخ – الرياض .
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي ت٥٨٧هـ . ط/٢ دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لمحمد بن أحمد بن رشد ط/٣ ١٣٧٩هـ نشر مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر .
- البداية والنهاية للحافظ أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثيرت ٧٤٤هـ تحقيق أحمد أبو ملحم وغيره . ط/١ دار الراية للتراث – القاهرة ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .
- البدر الطالع بما حسن من بعد القرن السابع للقاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني ت١٢٥٠هـ . الناشر : مكتبة ابن تيمية – القاهرة .
- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ت ٧٤٩ هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤هـ .
- تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦هـ تحقيق السيدأحمد

صقر . ط/ دار الكتب العربية عيسى الحلبي البابي وشركاه .

- تاج العروس لمحمد بن مرتضى الزبيدي . ط/١ المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية – مصر ١٣٠٦هـ .
- التاريخ الصغير لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ت٢٥٦ط/ ٤ الناشر : إدارة ترجمان الرحمن السنة لاهور – باكستان ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م .
- تاريخ الطبري = تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار التراث – بيروت .
- التاريخ الكبير لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ دار الفكر .
- تبيين الحقائق شرح كنز الرقائق للإمام فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي ط/٢ بالأوفست دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لإمام أبي العلا محمد بن عبدالرحمن المباركفوري ت ١٣٥٣هـ ط / دار الفكر .
- التحفة العراقية في الأعمال القلبية لشيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ تحقيق الدكتور يحي بن محمد بن عبدالله الهنيدي ط/١ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .
- تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج لأبي حفص سراج الدين ابن الملقن تحقيق عبدالله بن سعاف اللحياني . ط/١ دار حراء للنشر ١٤٠٦هـ .
- تذكرة الحفاظ لأبي عبدالله شمس الدين الذهبي ت٧٤٨هـ تصحيح عبدالرحمن بن يحي المعلمي ط/دار الكتب العلمية – بيروت .
- تزكية النفس لابن تيمية ت ٧٢٨هـ تحقيق الدكتور محمد بن سعيد بن سالم القحطاني ط/١ دار المسلم للنشر والتوزيع –الرياض ١٤١٥هـ / ١٩٩٤ م .
- تغليق التعليق على صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ تحقيق د/ سعيد بن عبدالرحمن القزقي ط/١ المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ نشر دار عمان – الأردن .
- تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ت ٧٥٤هـ ط/دار الفكر .
- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ت ٥١٦هـ . تحقيق خالد العك ومروان سوار ط/١ دار المعرفة بيروت – لبنان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .
- تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن للإمام عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي ت ٨٧٥هـ تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود و أ.د عبدالفتاح أبو سنة ط/١دار إحياء التراث العربي . بيروت – لبنان ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .
- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ت ٧٢٥هـ ط/التقدم العلمية – مصر .

- تفسير سورة الأنفال لمصطفى زيد . ط/دار الفكر العربي .
- تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي ط/الدار السعودية – جدة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- تفسير سورة النور للإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية ت ٧٢٨هـ ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
- تفسير غريب القرآن لأبي عبدالرحمن عبدالله بن يحي بن المبارك العدوي البغدادي المعروف بابن اليزيدي ت ٢٣٧هـ تحقيق الدكتور عبدالرزاق حسين ط/١ مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب للإمام فخر الدين المشتهر بالفخر الرازي ت٦٠٤هـ ط/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ط/٢ دار المعرفة بيروت – لبنان.
- تفسير القرآن العزيز المسمى تفسير عبدالرزاق للإمام أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني ت ٢١١هـ تحقيق الدكتور عبدالمعطي أمين قلعجي ط/١ دار المعرفة ١٤١١هـ / ١٩٩١ م .
- تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين ابن كثير ت٧٧٤هـ (تفسير ابن كثير) تقديم يوسف بن عبدالرحمن المرعشلي ط/٢ دار المعرفة بيروت –لبنان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ت٨٥٢هـ تحقيق محمد عوامة ط/٢ دار البشائر الإسلامية –بيروت ١٤٠٨هـ .
- تفسير القرآن لعز الدين بن عبدالسلام السليمي الدمشقي الشافعي ت ٦٦٠هـ تحقيق د.عبدالله بن إبراهيم بن عبدالله الوهيبي ط/١ ١٤١٦هـ / ١٩٩٦ م .
- التفسير الكبير = تفسير الرازي
- تفسير المشكل من غريب القرآن للإمام مكي بن أبي طالب القيسي ت ٤٣٧هـ تحقيق د.علي حسين البواب ط/ مكتبة المعارف – الرياض ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ م .
- تفسير النسفي المسمى بمدارك التتريل وحقائق التأويل لأبي البركات عبدالله النسفي ت ٧٠١هـ ط/دار الفكر .
- التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي . ط/٣ مطابع المختار الإسلامي والناشر مكتبة وهبة – مصر ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- تكملة المجموع شرح المهذب .
- تلخيص المستدرك على الصحيحين للحافظ أبي عبدالله شمس الدين ت٧٤٨ . ط/ دار المعرفة بيروت ، بذيل المستدرك .
- تتريه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لأبي الحسن علي بن محمد الكناني ت ٩٦٣هـ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ط/ دار الكتب العلمية – بيروت .
- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآثار تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ . تخريج وقراءة محمود شاكر . ط . مطبعة المدني

بمصر ١٤٠٢هـ .

- تهذيب التهذيب للحافظ بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ ط/دار الفكر ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م.
- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ت٣٧٠هـ . تحقيق عبدالسلام هارون ومحمد النجار ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- التوضيح شرح الجامع الصحيح بتحقيق زبن بن عبد الله العتيبي رسالة ماجستير .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ت ١٣٧٦هـ تحقيق محمد زهري النجار ط/٢ عالم الكتب . بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- الثقات لأبي حاتم محمد بن حبان البستي ت ٣٥٤هـ . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الركن الهند ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م.
- جامع الأصول في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي السعادات مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير ت ٦٠٦هـ . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير ابن جرير الطبري) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ دار الفكر – بيروت ١٤٠٨هـ .
- جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الحنبلي ت ٧٩٥هـ تحقيق محمد عبدالرزاق الرعود . ط/١ دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١١هـ .
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط/١ دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- الجرح والتعديل لأبي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم ت ٣٢٧هـ ط/١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الركن الهند .
- جمهرة أنساب العرب للإمام محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت٤٥٦هـ ط/١ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- جمهرة اللغة لأبي بكر محمد بن الحسين الأزدي (ابن دريد) ت٣٢١هـ ط/دار صابر – بيروت .
- الجهاد طريق النصر لعبدالله غوشة ط/وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية – عمان ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .
- الجهاد المشروع في الإسلام لتوفيق علي وهبة ط/٤ دار اللواء للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية الرياض سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .
- الجهاد في الإسلام . تأليف محمد شديد . ط /مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م . .
- الجهاد في الإسلام دراسة مقارنة بأحكام القانون الدولي العام . تأليف توفيق علي وهبة . ط/٤ دار اللواء للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية – الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .
- الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه . للأستاذ أحمد محمد جمال . ط/ رابطة العالم الإسلامي

١٤٠١ هـ .

- الجهاد في التشريع الإسلامي للدكتور محمود محمد علي ط/١ دار الاتحاد العربي للطباعة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
- الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام تأليف ظافر القاسمي ط/١ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م دار العلم للملايين بيروت—لبنان.
- حاشية ابن عابدين = رد المحتار شرح الدر المختار .
- حاشية الشلبي على تبيين الحقائق لشهاب الدين أحمد الشلبي . مطبوع مع تبيين الحقائق .
- حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة د/جميل عبدالله المصري ط/٣ ١٤٧١هـ مكتبة العبيكان— الرياض .
- الحجاب لأبي الأعلى المودودي ط/ دار الفكر — بيروت .
- الحرب في الفضاء تأليف /خضر الدهراوي ط/٠ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. دار المريخ للنشر — الرياض .
- حسن المحاضرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط/ نشر مكتبة الفيصلية .
- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال لصفي الدين أحمد بن عبدالله الخزرجي الأنصاري ت٩٢٣هـ . تحقيق عبدالفتاح أبو غدة .
- الداء والدواء لابن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ ط/المدني .
- الدر اللقيط من البحر المحيط لتاج الدين الحنفي النحوي ت ٧٤٩هـ ط/دار الفكر .
- الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه الإمام أبي حنيفة .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ ط/١ دار إحياء التراث العربي ١٤٢١هـ / ٢٠٠١ م .
- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ تحقيق محمد سيد جاد الحق ط/ مطبعة المدني .
- رؤية إسلامية للإستشراق تأليف د/أحمد عبدالحميد غراب ط/٢ .١٤١١هـ .
- رد المختار شرح الدر المختار لمحمد أمين الشهير بابن عابدين ط/٢ مصطفى البابي وأولاده — مصر ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .
- رسالة الإرشاد إلى بيان الحق في حكم الجهاد للشيخ أحمد بن يحي النجمي ط/٢ دار علماء السلف ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .
- رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ت ١٣٢٣هـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ط/مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦ م .
- الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي ت ٢٠٤ هـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ط/ مكتبة دار التراث مصر — القاهرة .

- رفع الملام عن الأئمة الأعلام لشيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ تحقيق زهير الشاويش ط/٢ المكتب الإسلامي بيروت – دمشق ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت ١٢٧هـ ط/ دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م .
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي ت٥٨١هـ تحقيق وتعليق طه عبدالرؤوف سعد .ط/دار الفكر .
- روضة الطالبين للإمام أبي زكريا يحي بن شرف النووي ت٦٧٦هـ ط/المكتب الإسلامي .
- زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت ٥٩٧هـ ط/١ المكتب الإسلامي – دمشق . ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥ م .
- زاد المعاد في هدي خير العباد لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ، ابن القيم ت٧٥١هـ تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط ط/١٤ مؤسسة الرسالة .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها لمحمد ناصر الدين الألباني ط/٤ الكتب الإسلامي . بيروت – دمشق .حلية الأولياء
- سلسلة الأحاديث الضعيفة وشيء من فقهها وفوائدها تأليف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط/٤ المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م .
- السنة لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال ت ٣١١هـ تحقيق الدكتور عطية الزهراني ط/١ دار الراية للنشر والتوزيع الرياض ١٤١٠هـ / ١٩٨٩ م .
- السنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٩٠ هـ النشر دار العلمية للطباعة والنشر .
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي ط/٢ المكتب الإسلامي – بيروت – دمشق ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م .
- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٧٥هـ . ط/دار الجيل – بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- سنن ابن ماجة لأبي عبدالله محمد بن يزيد القيرويني ابن ماجة ت٢٧٥هـ تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت٢٧٩هـ تحقيق أحمد محمد شاكر دار إحياء التراث العربي ، ومع تحفة الأحوذي ط/دار الفكر .
- سنن الدارمي للحافظ عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي السمرقندي ت٢٥٥هـ تحقيق فواز أحمد رمرلي ط/١ دار الكتاب العربي .
- السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت٤٥٨هـ ط/ دار المعرفة – بيروت .
- السنن الكبرى لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت٣٠٣هـ تحقيق عبدالغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسين ط/١ دار الكتب العلمية – بيروت .
- سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي اعتنى به ورقمه عبدالفتاح أبو غدة ط/٢ دار البشائر الإسلامية – بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

- السياسة الشرعية في صلاح الراعي والرعية لسيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق بشير محمد عيون ط/٢ مكتبة دار البيان . دمشق ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م .
- سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبي عبدالله الذهبي ت٧٤٨هـ تحقيق شعيب الأرنؤوط وجمع معه ط/٧ مؤسسة الرسالة – بيروت .
- السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا والأبياري وشلبي . دار المعرفة – بيروت .
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة
- شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني املاء محمد بن أحمد السرخسي تحقيق د/ صلاح الدين المنجد نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عام ١٩٧١م .
- شرح صحيح مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ ط/ دار إحياء التراث العربي .
- الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك .
- شرح الغقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي تحقيق جماعة من العلماء ط/مكتبة الدعوة الإسلامية – مصر .
- شرح فتح القدير للإمام كمال الدين محمد بن عبدالواحد المعروف بابن الهمام الحنفي ت٦٨١هـ . ط/١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م .
- الشرح الكبير على متن المقنع للشيخ شمس الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي ت ٦٨٢هـ ط/ بالأوفست بعناية جماعة العلماء دار الكتاب العربي بيروت – ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- الشريعة للإمام أبي بكرمحمد بن الحسين الآجري تحقيق محمد حامد الفقي ط/١ دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٤م .
- شفاء العليل لابن القيم ط/ دار الكتاب العربي – مصر .
- الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ط/٢ دار العلم للملايين ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م .
- صحيح ابن حبان لأبي حاتم محمد بن حبان البستي ت ٣٥٤هـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ط/١ مؤسسة لرسالة – بيروت لبنان ١٤٠٨هـ .
- صحيح البخاري تصحيح محمد ذهني ط. المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر استانبول – تركيا ١٣١٩هـ .
- صحيح الجامع الصغير وزيادته شيخ ناصر الدين الألباني ط/٢ المكتب الإسلامي – بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ت٢٦١هـ . تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي . ط المكتبة الإسلامية استانبول – تركيا .
- الصهيونية والقضية الفلسطينية في الكونجرس الأمريكي ١٩٤٣-١٩٤٥م. تأليف د/ عاصم الدسوقي ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م – الرياض.

➢ الضعفاء الصغير لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ تحقيق محمود إبراهيم زايد ط/١ دار المعرفة بيروت لبنان .

➢ الضعفاء الكبير لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي تحقيق د/ عبدالمعطي أمين قلعجي ط/١ دار الكتب العلمية — ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

➢ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالقادر محمد الحلو ط/١ مؤسسة قرطبة .

➢ طبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد بن محمد (ابن قاضي شهبة) الدمشقي ت٨٥١هـ تصحيح در الحافظ عبدالعليم خان ط/١ عالم الكتب ١٤٠٧هـ .

➢ طبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد هداية الله الحسيني ت ١٠١٤هـ بتحقيق عادل نويهض ط/٢ ذخائر التراث العربي .

➢ الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ت ٢٣٠هـ دار الفكر .

➢ طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية ط/٢ دار ابن القيم — الدمام . ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .

➢ العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب تأليف محمد حامد الناصر ط/١ . ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م مكتبة الكوثر — الرياض.

➢ العلاقات الخارجية في دولة الخلافة للدكتور / عارف خليل أبو عيد ط/١ دار الأرقم الكويت سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .

➢ العلاقات الدولية في الإسلام تأليف محمد أبو زهرة ط/ الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

➢ عمدة القارىء شرح البخاري لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني ت٨٥٥هـ ط/١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

➢ غريب الحديث المجلدة الخامسة لأبي إسحاق الحربي ت٢٨٥هـ تحقيق د/سليمان بن إبراهيم ابن محمد العايد . ط/١ مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي جامعة أم القرى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

➢ غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ت ٢٢٤هـ ط/١ دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

➢ غريب الحديث لابن قتيبة عبدالله بن مسلم ت ٢٧٦هـ اعتنى به نعيم زرزور ط/١ دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

➢ فتح الباري شرح البخاري لأبي الفضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ تحقيق سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي . دار الفكر .

➢ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠هـ ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

➢ فتح القدير لابن الهمام للإمام كمال الدين محمد بن عبدالواحد المعروف بابن الهمام الحنفي

ت٦٨١هـ . ط/١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م .

- الفرق بين الفرق تأليف عبدالقاهر بن طاهر البغدادي ت٤٢٩ هـ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد . نشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت –لبنان .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل . للإمام أبي علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري ت ٤٥٦هـ تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصير و الدكتور عبدالرحمن عميرة ط/١ مكتبات عكاظ المملكة العربية السعودية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
- فقه السنة للشيخ سيد سابق ط/١٠ دار الفتح للإعلام العربي ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م .
- فلسفة الجهاد في الإسلام للأستاذ عبدالحافظ عبدربه ط / دار الكتاب اللبناني – بيروت .
- فهرست ابن النديم لأبي الفرج محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم ت ٤٣٨هـ ط٠ دار المعرفة – بيروت .
- في ظلال القرآن لسيد قطب ط/١٢ دار العلم – جدة و دار الشروق – القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م .
- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت٨١٧ هـ ط/٢ مؤسسة الرسالة –بيروت ١٤٠٧هـ .
- قبل الكارثة نذير ونفير تأليف / عبدالعزيز بن مصطفى كامل ط/١ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م الرياض .
- القتال في الإسلام . تأليف أحمد نار ط/٢ الدار السعودية ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م نشر وتوزيع المكتبة الإسلامية حمص – الفاخورة .
- القواعد القرآنية والنبوية في تنظيم الصلات بين المسلمين وغير المسلمين . ط/١ دار الجيل للطباعة والنشر والخدمات الإعلامية دمشق – سوريا ١٩٨٢ م .
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة الإمام الذهبي ت ٧٤٨هـ إشراف لجنة من العلماء دار الكتب العلمية ط/١ . ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.
- الكافي في فقه أهل المدينة المالكي
- الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير عز الدين ٦٣٠هـ ط/٦ دار الكتاب العربي .
- الكامل في ضعفاء الرجال للإمام ابن أحمد عبدالله بن عدي الجرجاني قرأها يحيى مختار غزاوي ط/٣ دار الفكر ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ ط/٣ المكتب الإسلامي دمشق – بيروت ١٤٠١ هـ .
- كتاب التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني ط/ مكتبة الفيصلية – مكة المكرمة .
- كتاب الدرة فيما يجب اعتقاده . للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ت ٤٥٦هـ تحقيق الدكتور أحمد بن ناصر بن محمد الحمد والدكتور سعيد بن عبدالرحمن بن موسى القزقي ط/١ مطبعة المدني القاهرة – جمهورية مصر ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ٥٣٨هـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان .
- الكنى لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ مطبوع في آخر التاريخ الكبير .
- اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١هـ ط /دار المعرفة بيروت – لبنان .
- لسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي ت ٧١١هـ دار الفكر – بيروت .
- لسان الميزان للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ ط/١ مطبعة مجلس دائرة المعارف الكائنة في الهند حيدرآباد الدكن .
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن علي الحسيني الندوي ط/١ دار القلم – دمشق ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م .
- مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان .
- المبسوط لشمس الدين السرخسي ط/٢ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان .
- مجاز القرآن لأبي عبيدة .
- المجروحين من المحدثين والضعفاء المتروكين للإمام أبي حاتم محمد بن حبان البستي ت ٣٥٤هـ تحقيق محمود إبراهيم زايد ط/٢دار الوعي بحلب .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧ هـ دار الكتب العلمية .
- المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث للإمام الحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر الأصفهاني ت٥٨١ هـ تحقيق عبدالكريم الغرباوي ط/١ مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- المجموع شرح المهذب للإمام أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي ت ٦٧٦ هـ ط٠ دار الفكر .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وأبنه محمد توزيع الرئاسة العامة لشؤون الحرمين .
- المحرر الوجيز للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت ٥٤٦هـ تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد ط/١ دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
- المحلى لابن حزم ت ٤٥٦هـ تحقيق أحمد محمد شاكر مكتبة دار التراث .
- مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي اشراف لجنة من علماء العربية . دار الكتب العلمية .
- مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك أبي عبدالله الحاكم تأليف سراج الدين عمر بن علي بن أحمد المعروف بابن الملقن ت٨٠٤هـ تحقيق عبدالله بن محمد اللحيدان – سعد بن عبدالله بن عبدالعزيز آل حميد ط/١ دار العاصمة – الرياض ١٤١١هـ .

- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة للإمام ابن القيم الجوزية اختصره الشيخ محمد بن الموصلي ط/دار الفكر .
- مختصر تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ت ٥١٦هـ ط/ الحرس الوطني ١٤٢١هـ على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام السلفي العلامة المحقق أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ٧٥١هـ راجعه لجنة من العلماء باشراف الناشر دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .
- المستدرك على الصحيحين تأليف أبي عبدالله الحاكم النيسابوري دار المعرفة - بيروت لبنان .
- مسند أبي داود الطيالسي سليمان بن داود الجارود ٢٠٤هـ دار المعرفة بيروت – لبنان .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ط/٥ المكتب الإسلامي بيروت – دمشق .
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار تأليف الإمام أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي ت ٥٤٤هـ ط. المكتبة العتيقة تونس . دار التراث القاهرة .
- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه تأليف أحمد بن أبي بكر شهاب الدين البوصيري ت ٨٤٠هـ تحقيق محمد المنتقى الكشناوي ط/١ دار العربية للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ .
- المصباح المنير تأليف العالم العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري مكتبة لبنان .
- المصنف في الحديث والآثار للإمام الحافظ عبدالله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم ابن عثمان أبي بكر بن شيبه الكوفي العبسي ت ٢٣٥هـ . ط. الدار السلفية الهند .
- المصنف للحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني تحيقيق حبيب الرحمن الأعظمي ط/٢ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣هـ .
- معارج القبول لحافظ بن أحمد حكمي ط/١ دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق عبد الجليل شلبي منشورات المكتبة العصرية بيروت .
- معاني القرآن الكريم للإمام أبي جعفر النحاسي ت ٣٣٨هـ تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي في مركز إحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى ط/١ . ١٤٠٨/١٩٨٨م.
- معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية الجائز المستحيل تأليف/ د/ عبدالرحمن محمد مليباري ١٤١٤هـ .
- معجم الأدباء لياقوت الحموي مطبوعات دار المأمون .
- معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ دار الفكر بيروت .
- المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت ٣٦٠ هـ تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي ط/٢ .
- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية تأليف عمر رضا كحالة مكتبة المتنبي – بيروت

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع تأليف عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي ت٤٨٧هـ تحقيق مصطفى السقاء ط/عالم الكتب – بيروت .
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق عبدالسلام هارون . ط/دار الفكر بيروت – لبنان .
- معرفة الثقات للعجلي ترتيب الهيثمي والسبكي تحقيق عبدالعليم عبدالعظيم البستوي ط/١ مكتبة الدار بالمدينة المنورة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- المغازي لمحمد بن إسحاق المطلبي ت ١٥١هـ . تحقيق د/ سهيل زكار ط/١ دار الفكر ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للشيخ محمد الشربيني ط/مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر . ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .
- المغني لابن قدامة عبدالله بن أحمد المقدسي ت ٦٢٠هـ مع الشرح الكبير ط/ بالأوفست بعناية جماعة العلماء دار الكتاب العربي بيروت – ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ تحقيق محمد خليل عيتاني ط/٢ . لبنان – بيروت دار المعرفة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م .
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي ت ٦٥٦هـ تحقيق محيي الدين ديب مستو و يوسف علي بديوي وأحمد بن محمد السيد ومحمود إبراهيم بزال ط/١ دار ابن كثير بيروت – دمشق و دار الكلم الطيب بيروت – دمشق ١٤١٧هـ / ١٩٩٦ م .
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ت ٣٣٠هـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ط/المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م .
- الملل والنحل تأليف أبي الفتح محمد عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيؤروت – لبنان .
- المنظمات الدولية تأليف د/حسين عمر دار الفكر العربي ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- الموضوعات للعلامة أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي القرشي ت ٥٦٧هـ مكتبة ابن تيمية القاهرة .
- الموطأ للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه تصحيح وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء التراث العربي .
- ميزان الإعتدال في نقد الرجال تأليف أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨هـ تحقيق علي بن محمد البجاوي دار المعرفة بيروت لبنان .
- الناسخ والمنسوخ للإمام أبي منصور عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي تحقيق الدكتور حلمي كامل أسعد عبدالهادي ط/١ دار العدوي عمان – الأردن ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغردي بردي الأتابكي ٨٧٤ هـ تحقيق فهيم محمد شلتوت ط. دار الكتب .
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لجمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ت ٥٩٧ هـ تحقيق محمد عبدالكريم كاظم الراضي ط/٢ مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- نزهة الألباب في الألقاب تأليف أحمد بن علي بن محمد المشهور بابن حجر العسقلاني تحقيق عبدالعزيز بن محمد بن صالح السديري ط/١ مكتبة الرشد ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م.
- النشر في القراءات العشر تأليف أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري ت ٨٣٣هـ تصحيح علي محمد الصباغ ط/ دار الفكر .
- النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي تأليف ياسر أبو شبانة ط/١ . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٨١هـ/١٩٩٨م.
- النظر في النظر بحاسة البصر للإمام الحافظ المجتهد أبي الحسن علي بن محمد بن القطان الفاسي ت ٦٢٨هـ تحقيق أ.إدريس الصمدي ط/١ دار إحياء العلوم – بيروت و دار الثقافة – الدار البيضاء ١٤١٦هـ / ١٩٩٦ م .
- النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي ت ٤٥٠هـ تحقيق خضر محمد خضر ط/١ مطابع مقهوي الكيت ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ت ٦٠٦هـ تحقيق محمود الطناحي – طاهر أحمد الزاوي أنصار السنة المحمدية .
- هيئة الأمم المتحدة منذ النشأة وحتى اليوم تأليف / طلال محمد نور عطار ط/١. ١٤١٤هـ/١٩٩٣م - جدة.
- وثائق المنظمات الدولية والإسلامية والعربية تأليف د/ عبدالرحمن بن إبراهيم الضحيان ط/١. ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد خلكان ت ٦٨١هـ تحقيق أحسان عباس دار الفكر .
- الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف لمحمد بن سعيد بن سالم القحطاني ط/دار طيبة .

فهرس الموضوعات